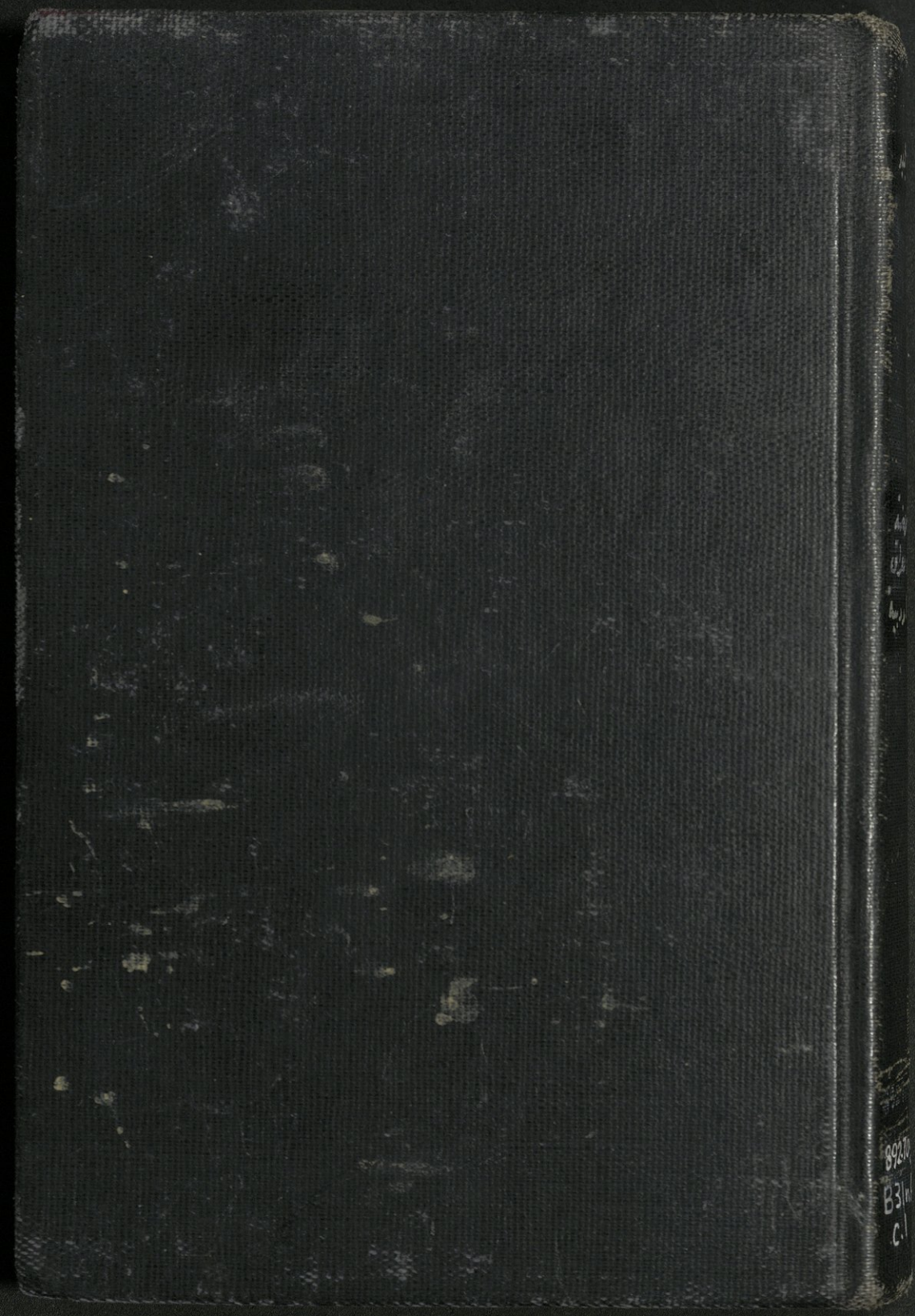
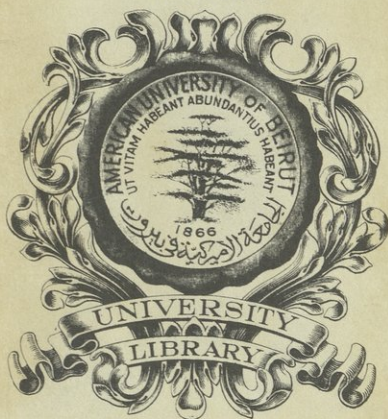


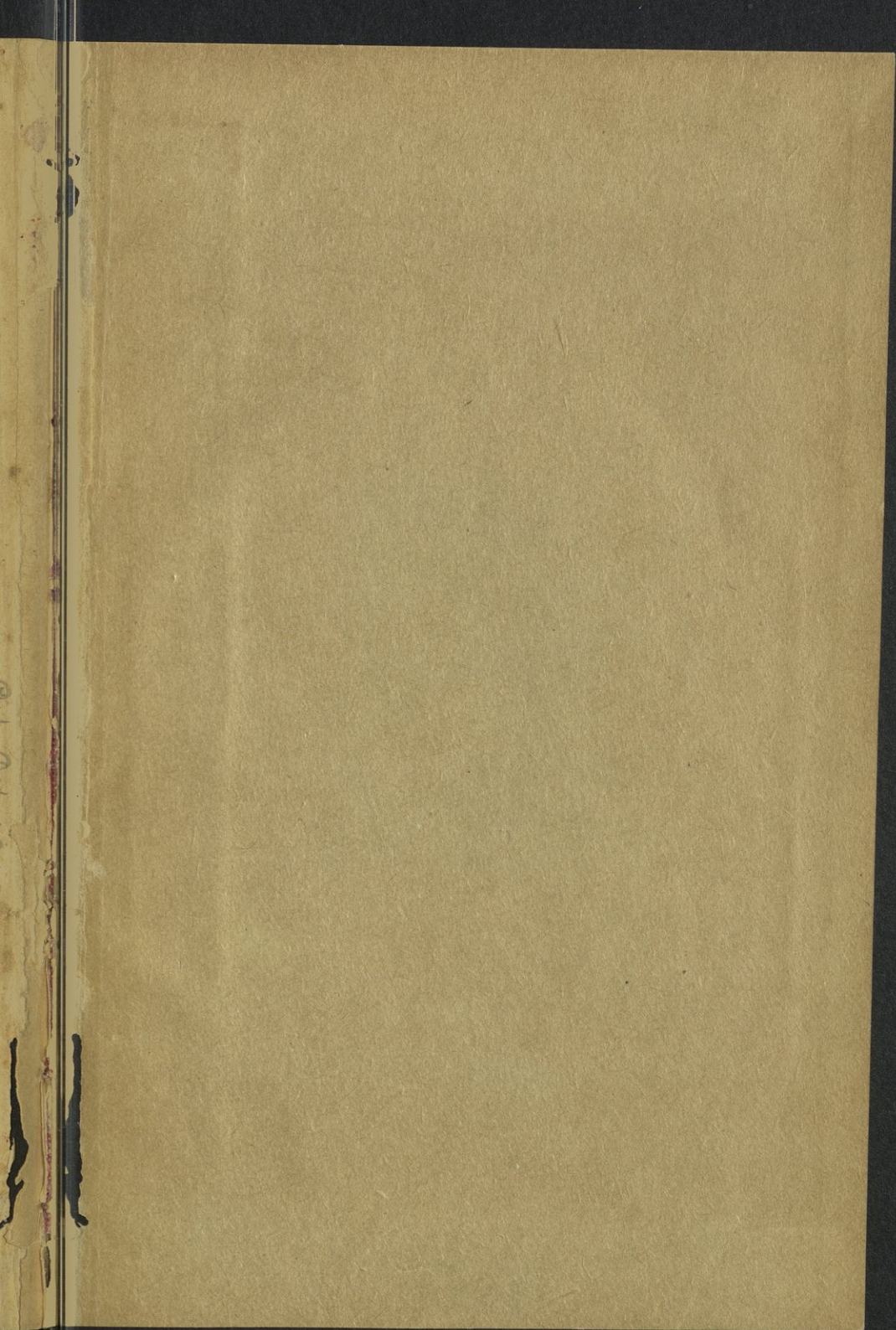


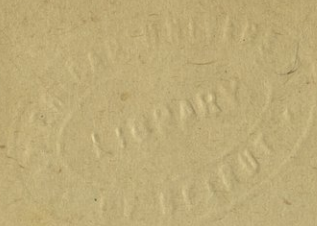
A. U. B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A. U. B. LIBRARY





ARABIC
B31nA

محمد بن عبد البصير

892.709

B31nA

C.1

نَهْضَةُ الْعَرَبِ وَالْإِسْلَامِ

في القرنين التاسع عشر

Oct. Oct. 1949

68686

مطبعة المعارف - بغداد

الطبعة الاولى
١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

حقوق الطبع كافة
محفوظة للمؤلف

اللقائمة

يحتوي هذا الكتاب على خمسة وأربعين حديثاً أذيع أربعون منها من دار الاذاعة الاسلامكية العراقية وخمسة من محطة الشرق الأدنى بباڤا، ترجمت فيها لثمانية وعشرين شاعراً عراقياً لا يكاد العراقيون أنفسهم - فضلاً عن غيرهم من الناطقين بالضاد - يعرفون عن أكثرهم شيئاً، على ما لهم من جليل القدر وعظيم المنزلة وجميل الأثر في خدمة اللغة والأدب.

جهلهم الناس في الخارج لأن العراق كان على عهدهم قطراً فائياً مجهولاً من أقطار الدولة العثمانية، ولأنهم لم يكونوا يحسنون الدعوة لأدبهم بل لم يكونوا يفكرون بها ولأن أكثرهم كانوا فقراء إلى درجة لم يستطيعوا معها نشر آثارهم، ولذلك مات أدبهم بموتهم ودفنت أخبارهم وآثارهم معهم. على أن ما نشر من آثارهم لم يرزق حظاً يعتد به من الذبوع والانتشار، لأنه لم ينشر ليقراه الناس في كل مكان ولينقلوه الأدباء والنقاد بالدرس والتحليل والنقد وإنما نشر لتقرأه طبقات معينة في أوساط معينة. وهذا الأب (لويس شيخو) يحدثنا في كتابه (الأدب العربي في القرن التاسع عشر) أنه سعى للحصول على نسخة من ديوان (السيد حيدر الحلاوي) فلم يوفق إلى ذلك مع

منها ما هو جدير بالقبول ورفضت منها ما هو جدير بالرفض . وفي
 اعتقادي أنه لا تزال هناك جهود أخرى يجب أن تبذل في سبيل
 إحياء هذا الأدب وصفحات أخرى مطوية من هذا الأدب يجب
 أن تنشر ويجب أن تدرس ، ولكن إذا لم يخطئ ظني فأن هذه
 الأحاديث تحتوي على أهم ما يمكن أن يقال عنه وعلى جانب لا بأس
 به منه . على أنني أضفت مثلاً وشواهد أخرى إلى ما سبق إيرادها في
 عدة أحاديث لم يتسع الوقت المحدد لها لإيراد ما ينبغي إيرادها من
 الشواهد والأمثال وذيلت عدداً من الأحاديث بهوامش أثبتت فيها
 مختارات لم يتسع لها الكلام في الأصل . وغني عن البيان أنني إنما
 أفل ذلك حرصاً على فائدة القاريء ورغبة في توسيع إلمامه بهذا
 الأدب المجهول وسأضيف إلى هذه الأحاديث وأحذف منها وأنقصها
 وأزيد فيها كلما رأيت أن خدمة العلم والأدب تقتضي ذلك .
 وقبل أن أختم هذه الكلمة أحب أن أتقدم بحزب شكري
 وخالص امتناني إلى أولئك الذين آزروني في تنفيذ هذا المشروع
 وأعانوني على إخراجه إلى حيز العمل معونة صادقة . فلست أنسى
 ما حميت أن الاستاذ الشرقي لبث في يوم من الأيام يتعقبني بالتلفون
 في كل مكان يظن أنني موجود فيه ليقول لي إن لديه معلومات تتعلق
 بحركة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر وأن عليَّ أن أبعث إليه

من يأخذها منه في أقرب وقت مستطاع . ولست أنسى ما حييت
أن الشيخ محمد مهدي كبة وضع تحت تصرفي كل ورقة يملكها مما له
حصة بهذا الموضوع . ولست أنسى ما حييت أن الشيخ عبد الغني
الخصري كتب ترجمة عمه الشيخ محسن وضم إليها نماذج كثيرة من
شعره وحمل إلي كل ذلك بيده من النجف الأشرف وأنه أعانني على
مراجعة كثير من المخطوطات ربما كانت مراجعتها غير ميسورة
لولا معونته .

وكما أسجل لهؤلاء الأفاضل كرمهم وأريحياتهم ومساعدتهم
المشكورة أحب أن أعرب عن أسفي الشديد لتصرف بعض الافراد
الذين وضعت الصدقة بين أيديهم بعض المعلومات التي تتعلق بهذا
الموضوع فأثروا بقاءها في زوايا الاهمال والنسيان على نشرها
والاستفادة منها - سألهم الله وألهمهم سداد القول والعمل في

الأعظمية الشيخ محمد مهدي البصير

٢٢ كانون الثاني ١٩٤٦

تمهيد

أيها السادة :

معلوم أن الحركات الفكرية إنما تنشأ وتنمو وتقوى وتشتد في ظل الحكم الوطني الثابت الأسس الراسخ الدعائم ، حيث الأمن والطمأنينة ، وحيث الدرس والتتبع والتفكير والانتاج ، وحيث المساعدات المادية التي تكفي العلماء والباحثين عناء الحاجة وتكفل لهم عيشاً إن لا يكن مثلاً في الرخاء والسعة فانه يسمح لهم على كل حال بالانصراف إلى البحث والعكوف على الدرس في غير وجل ولا قلق . ومن أمثلة ذلك نهضتنا في صدر الدولة العباسية وازدهار العلوم والفنون في ظل كبار الخلفاء ولا سيما الرشيد والمأمون ، ونمو الحركة العقلية نمواً عجيباً في القرن الرابع للهجرة ، يوم كان ملوك الطوائف وأمرء الأقاليم يتنافسون في حماية العلماء والفلاسفة ، ويتسابقون إلى تقريب الشعراء والكتاب ، ونهضة مصر في ظل محمد علي وأبنائه نهضة علمية أدبية صادقة ، وتقدم الأدب الفرنسي تقدماً باهراً على عهد لويس الرابع عشر ووزيره العظيم كليبر Colbert اللذين كانا

يدفعان المرتبات والمخصصات لأربعة وستين رجلاً من العلماء
والشعراء والفنانين ليس في فرنسا فحسب بل في سائر الممالك
الأوروبية . ومع أن العراق لم يكن في القرن الماضي مستقلاً استقلالاً
تاماً أو ناقصاً ، ولم يكن في دست حكومته خليفة كالمأمون ولا أمير
كسيف الدولة ولا مصلح كمحمد علي وإنما كان جزءاً من السلطنة
العثمانية المترامية الأطراف المضطربة الاحوال : وكان ممثلو هذه
السلطنة في كثير من الأحيان يعجزون عن توطيد الأمن في ربوعه
وحمل عشائره القوية على الاخلاص للسكون والطاعة ، فقد شهد القرن
المنصرم في وادي الرافدين نهضة علمية أدبية خطيرة كتلك التي
شهدها القرن الرابع للهجرة في بلاط سيف الدولة بحلب وكتلك التي
شهدها عصر ملوك الطوائف في الأندلس على اختلاف في بعض
الفروع والتفاصيل . فقد نبغ في العراق إذ ذاك عدد كبير من أعظم
الفقهاء والمحدثين والمفسرين منهم أبو الثناء شهاب الدين الألوسي
صاحب التفسير الجليل الموسوم « روح المعاني » ، والشيخ محمد حسن
صاحب « جواهر الكلام في الفقه » ومؤسس الأسرة الجواهرية في
النجف الأشرف ، والشيخ مرتضى الانصاري صاحب « الرسائل »
و « المكاسب » وغيرهما من الكتب المهمة في الفقه . وكل الكتب التي

أشرت إليها مطبوعة ومتداولة ، بل إن أكثرها ما يُدرّس في
الحلقات الدينية العليا .

أما الشعراء فقد كثروا كثرة عجيبة : وحسي أن أقول لكم إن
الفحول والمقدمين منهم يعدون بالعشرات . ومن هؤلاء الفحول
الجوببي ، وحيدر وجعفر الحليان ، ونوح والكواز الكبير ، وعبد الباقي
العمرى والتميمي ، والقيّم وغيرهم كثيرون . ومما هو جدير بالذكر أن
هذه النهضة الأدبية عربية بحثة ، جميع من أشرت إليهم من كبار
الشعراء عرب أقحاح بل إن بعضهم ذوو أنساب عريقة في العروبة ،
ومثل هذا يقال عن الكثرة الكبرى من شعراء ذلك العهد .

وسؤالان لابد من الإجابة عنهما في هذا المقام ، وهما : - كيف
نشأت هذه النهضة ؟ ومن كان يتعهدا بالرعاية والتشجيع ؟ أو ماسرّ
نموها وتقدمها ؟ وأجيب عن السؤال الأول : بأن الثقافة العربية
الإسلامية في العراق لم تنقرض بانقراض الدولة العباسية وإنما ظلت
سائرة في طريقها قائمة في أروقة المساجد وحلقات المدارس الدينية
ولا سيما على الفرات ، حيث كانت الحلة مركز نهضة ثقافية عظيمة
بزغت شمسها في أوائل القرن السادس للهجرة وما زالت مشرقة حتى
أوائل القرن العاشر حيث انتقلت الثقافة العربية الإسلامية إلى
كربلاء ثم ما لبثت أن انتقلت إلى النجف الذي لا يزال مركزاً

عظيماً من مراكز الثقافة العربية الإسلامية . ولم تبلغ هذه الحركة في وقت من الاوقات ما بلغت من النمو والانتشار في القرن الماضي . فقد كان ازدهارها فيه - على وجه التقريب - عاماً ، لانه شمل بغداد والنجف والحلة و كربلاء والسكاظية وسامراء والموصل في وقت واحد .

أما السؤال الثاني فجوابه : أن الظروف هيأت لهذه النهضة حماة وأنصاراً لم يكونوا في الحسبان ، فقد تعهدوا نفر من الولاة العثمانيين النهاء منهم داود باشا الذي حكم العراق من سنة ١٢٣٢ إلى سنة ١٢٤٧ هـ و علي رضا باشا الذي تولى الحكم في العراق من سنة ١٢٤٧ إلى سنة ١٢٥٩ هـ ، وخصها بالرعاية والعطف عدد كبير من الاسر العراقية النبيلة ، فمن هذه الأسر بيغداد آل النقيب ، وهم أهل علم وأرباب ثراء وجاه عظيمين ، فارسهم في هذه الحلبة السيد علي النقيب والد النقيبين الجليلين سلمان و عبدالرحمن . وآل جميل ، وهم على غرار آل النقيب في نصيبهم من العلم والجاه والمال ، أكثرهم تشجيعاً للادب السيد عبدالغني مؤسس أسرتهم وشريك السيد علي النقيب في مدائح الأخرس الرقيقة : وآل الشاوي وهم رؤساء قبيلة نبغ منهم في هذا القرن شاعران مجيدان هما أحمد بك وابنه عبدالحميد بك والثاني أشعر من الأول فيما أحسب . وآل كبة وهم أرباب تجارة

إلا أن بينهم كان ملثقي العلماء والأدباء والشعراء . ومن يتصفح
ديواني حيدر والحبوبي المطبوعين وديوان السيد مهدي السيد
داود المخطوط يدرك ما لهذه الأسرة النبيلة من الأيادي البيضاء على
الفضل والأدب . على أن هذه الأسرة قد أنجبت في أواخر القرن
الماضي رجل علم وأدب خطير الشأن هو المرحوم الشيخ محمد حسن
المتوفى سنة ست وثلاثين وثلثمائة وألف للهجرة .

أما في خارج بغداد فمن أهم الأسر التي ساعدت على نشر لواء
الأدب آل العمري في الموصل وهم أهل علم وأدب وسياسة ورئاسة
ظهر منهم في هذا العصر ثلاثة شعراء أحقهم بالذكر عبد الباقي أفندي
الذي سأقف عنده وقفة طويلة . وآل كاشف الغطاء في النجف
الأشرف وهم أهل علم وأدب وزعامة دينية لعل أكبر من خدم
الأدب منهم الشيخ علي صاحب « الحصون المنيعه » . وهو موسوعة
كبرى في الأدب والترجمة يؤسفنا أنها لا تزال مخطوطة . وآل
قزوين في النجف والحلة وهم أعظم هذه الأسر حظاً من خدمة
الأدب وأجلها أثراً في تاريخ هذه الحركة . فقد كان السيد مهدي
القزويني جد هذه الأسرة الأعلى وأولاده الأربعة علماء وشعراء في
وقت واحد . وكانوا جميعاً أرباب حول وطول مدح كل منهم ورثي
بما يملأ مجلداً ضخماً على الأقل . ولكن ، أكان في عطف الولاية

العثمانيين وفي سخاء هذه الأسر النبيلة ما يضمن لشعراء ذلك العهد
رزقا واسعا وعيشا رغيدا؟.

كلا! فقد كان شعراء ذلك العصر الزاهر فقراء معوزين على
الأكثر، وكان السيد حيدر وهو ثاني اثنين لا ثالث لهما - وهما
الحبوبي وهو - رجلا خفيف الحال، هذا مع العلم بأنه كان يتمتع
بمنزلة سامية وجاه عريض. وكان الكوازان كوازين فعلا وهما
شاعران مجيدان، وكان الحاج حسن القيم صانع مناطق وبعبارة
أوضح « حائك حيص » وهو شاعر خل. وفي هذا دليل كاف على
أنه لم تكن ثمة جوائز سنوية تغري الشعراء بقرض الشعر وتحملهم على
الاتجار به. إذا ما سر نمو هذه النهضة الأكبر؟!

إذا لم يخطئ ظني فإن هذا السر هو الاستعداد الكامن في نفس كل
عراقي، ذلك الاستعداد الذي لا تواتيه فرصة من الفرص حتى يتكشف
تكشف المعدن الثمين إذا انحسرت الرمال عنه ويتفجر تفجر المنبع
الغزير العذب إذا أزاحت عنه يد المنقب ما يحجبه من التراب
والأحجار. وإذا فالعراق مدين بنهضته الأدبية في القرن المنصرم
قبل كل شيء لما آتاه الله من سلامة الفطرة وصفاء الطبع وجودة
السليقة، ثم هو مدين بعد ذلك بنهضته هذه لمن ذكرنا من الولاة
العثمانيين ولمن نوهنا بهم من كبرائه وأعيانه في الخميس ١٢/٧/١٩٤٤

السيد محمد سعيد الجبوبي

نشأته وحياته

سيداتي وسادتي :

كان الجبوبي وحيداً في طليعة الشعراء الذين أشرت إليهم في حديثي الماضي ، ولم أكن أول من جعلهما في طليعة شعراء ذلك العهد فقد كان رجال الادب في العراق مجمعين على أنهما خير شعراء العراق في القرن المنصرم على الاطلاق ، إلا أنهم كانوا يختلفون في تقديم أحدهما على الآخر . فقد كانت النجف ، وهي مركز الادب العربي الاول في العراق إذ ذاك ، تذهب إلى أن الجبوبي شيخ شعراء العصر غير مدافع ، وكانت الحلة التي تأتي بعد النجف مباشرة في المنزلة الادبية تذهب إلى أن حيدراً خير شعراء العصر غير منازع . وربما تطرّف بعض رجال المدرستين فزعم أن صاحبه أكبر شعراء العربية على الاطلاق . فمن أصحاب هذا الرأي في الجبوبي ناشر ديوانه الذي لم يحجم عن تفضيله على أبي العلاء المعري والمتنبي وغيرهما من أساطين الشعر في الكلمة التي صدر بها الديوان . ومن

أصحاب هذا الرأي في حيدر ناشر ديوانه أيضاً فانه فضل صاحبه
على أبي تمام والشريف الرضي وغيرهما من أعلام القريض العربي ،
ولكنه عزا ذلك إلى غيره فقال ما مضمونه : ان العارفين بالادب
يفضلونه على كل من سبقه من الشعراء .

وعندي أن الجبوبي أغزل شعراء عصره ، وأن حيدراً أرثى
شعراء عصره ، وأن للجبوبي رثاءً بليغاً ولكنه دون رثاء حيدر على
الاجمال ، وأن لحيدر غزلاً طريفاً ولكنه دون غزل الجبوبي ،
وأنهما معاً في الرعي الاول من شعراء العربية . أما تقديم أحدهما
أو كليهما على شعراء العرب قاطبة فانه رأي قـد لا يؤيده
برهان قاطع .

على أنه إذا كان في تأريخ الأدب العربي رجل تصح المقارنة بينه
وبين الجبوبي تماماً فهو الشريف الرضي ، لانهما يتشابهان تشابهاً قوياً
ويتقاربان في شؤون أدبية ومادية كثيرة تقارباً عجيبياً . فكلاهما شاعر
خل ، وكلاهما طريف الغزل عفيفه إلى حد بعيد ، وكلاهما مترفع عن
التكسب بالشعر ترفعاً تاماً ، وكلاهما صاحب فقه وصلاح وورع ،
وكلاهما موفور الحظ من الجاه والمال ، وكلاهما رجل عمل وكفاح
أيضاً ، هذا على الرغم من أن الظروف التي أحاطت بالرجلين مختلفة
أيما اختلاف . فقد عاش الشريف الرضي في عصر من أزهى عصور

الحضارة الاسلامية هو القرن الرابع للهجرة، وعاش الجبوبي في عصر من أحط عصور التاريخ الاسلامي وأشدّها ظلاماً هو القرن الثالث عشر للهجرة، وعاش الشريف الرضي في ظل الخلافة العربية العباسية، وعاش الجبوبي في ظل السلطنة التركية العثمانية، وعاش الشريف الرضي في عاصمة الملك ومقر الخلافة، وعاش الجبوبي في مدينة بعيدة كل البعد عن السياسة، بعيدة كل البعد عن الحضارة ولا سيما على عهده. ومع ذلك كان بينهما ما كان من وجوه الشبه والتقارب.

ولد الجبوبي في أواخر العقد الرابع أو أوائل العقد الخامس من القرن الثالث عشر للهجرة، ومن الغريب حقاً أن لا يعرف تاريخ ولادته بالضبط مع أنه علم من أعلام عصره وعين من أعيان جيله، ومع أن جماعة من معاصريه ومن مساكنيه أيضاً، أي من سكان مدينته، عنوا بأخباره واهتموا بجمع شعره وكتبوا عنه الفصول الطوال في أيام حياته وبعد وفاته. ولكن هذا ما حدث. ومهما يكن من شيء فقد كان مولده في النجف وفي هذه المدينة نشأ وترعرع وشب، وبها تلقى دروسه الأولى. وفي نحو العشرين من عمره سافر إلى نجد حيث تقيم أسرته وتحترف التجارة، وقضى هناك عدة أعوام. ويبدو أن السماء التي ألهمت طرفة بن العبد وزهيراً بن أبي سلمى ونابعة بني ذبيان فعلت

فعلها في نفسه - كما يقول ناشر ديوانه - . ثم عاد إلى النجف ، فعكف
على دواية علوم العربية والدين وقرض الشعر ، وكان هذا الأخير
أغلب على طبعه في شطر حياته الأول . فما لاشك فيه أنه كان بلبل
العراق الغريد نحواً من ربع قرن ، وأن الحانة الجميلة وأغاريد العذبة
كانت تسمع في كل مناسبة تهز قرائح الشعراء وتستوحي أخيلتهم
وأحاسيسهم ومشاعرهم في ذلك الحين . ولكن ماذا كان يصنع
« رحمه الله » بالشعر ؟ .

لقد كان الشعر عنده فيض النفس وصدى الخاطر ومتعة الروح ،
وإن لم يكن في لغته المزخرفة التي كان عصره يفرضها عليه فرضاً
ما يؤيد هذا الزعم تأييداً تاماً ، هذا إلى أنه مظهر كبير من مظاهر
وفائه وكرمه لأنه كان يتحف به أصدقاؤه في شتى المناسبات مشاركا
لهم في أفراحهم مؤاسياً إياهم في أحزانهم وأتراحهم . ومن هنا
يتبين أن الدواعي التي كانت تحمله على قرض الشعر من أفضل
الدواعي وأبعثها على قرضه . ولكنه هجر الشعر عندما ناهز الخمسين ،
وفرغ للعلم ، فلم يمضِ قصير وقت حتى كان من شيوخه المبرزين
وأساتذته المقدمين . وكانت له في تدريسه وتلقينه طريقة خاصة
قوامها الوضوح والاختصار . وليس هذا كل شيء ، فقد غني
بالأخلاق عناية خاصة ودرسها دراسة دقيقة وراض نفسه عليها رياضة

صداقة ، وبعبارة أخرى إنه اعتنق الصوفية ونفذ مبادئها الروحية
وقواعدها الأخلاقية تنفيذاً كاملاً صحيحاً . ولعلنا لا نخطئ إذا
قلنا إنه عرف الصوفية وألفها قبل أن يطاق الشعر : فنحن نلمح في
ديوانه خطرات صوفية قوية ، منها قوله في موشح :

غنتي باسم الذي لذَّ اسمه

حربه حربي وسلمي سلمه

جسمه روحي وروحي جسمه

(أنا من أهوى ومن أهوى أنا) صحَّ هذا في الزمان الأول
وقوله من قصيدة رثى بها صديقه وزميله السيد حيدرًا :

إلى النزوان العيس تلوي أعنة وهيئات ليست تملك النزوانا
وليس تشيم البرق من أ برق الحمى بلى ، قد تشمَّ الشيخ والعلجانا
ولست تنال الري عباً وعلمها ، إذا ظمئت ، أن تبلغ الرشفانا
ومنها في هذا الباب :

فقم نجمتل النار التي قال خابط من الناس حسبي إن رأيت دخانا
وإن لمعت فاقصد لمشرق ضوئها وأمَّ شروق الضوء لا اللعانا
ولا يمتلئك الوهم دون مكانها فثم ، وإلا لا تحمل مكانا
ذلك هو الجبوبي الشاعر ، وهذا هو الجبوبي الفقيه ذو النزعة
الصوفية القوية . فأين نجد الجبوبي الرجل ؟ !

إن تأريخ الحرب العامة هو الذي يجهلنا عن هذا السؤال . فما
كادت إنكثرة تنزل جنودها على ضفاف شط العرب في خريف سنة
١٩١٤ حتى وثب الجبوبي وثبة الأسد الحادر ، وأسرع إلى الجنوب
ففسكر بقرب ناصرية المنتفك ، وإذا هو خطيب مصقع ، وإذا هو
رجل جهاد وجلاد ، وإذا هو زعيم جيش عرمرم من العرب
المتطوعين . وتمر الأيام ، وتنقضي الشهور ، والجبوبي الشيخ الذي
تجاوز السبعين والذي لم يعرف خشونة الحياة وشظف العيش في يوم
من الأيام يواسي جنوده البواسل الذين ابوا نداءه واستجابوا
لدعوته في حياتهم الشاقة ومعيشتهم الخشنة . ومما هو جدير
بالاعجاب حقاً أن الجبوبي كان ينفق على نفسه وحاشيته طوال أيام
هذه الحملة من ماله الخاص ، وقد حدث أن قدمت له الحكومة العثمانية
خمسة آلاف ليرة ذهباً ليستعين بها على أداء مهمته المقدسة فرفضها
مؤثراً أن ينفق آخر درهم يملكه في سبيل ما هو بصددده .

وتوفي رحمه الله سنة ١٩١٦ في ناصرية المنتفك عائداً من الشامية
التي اندحر عندها جيشه في معركة فاصلة فكان لوفاته في العراق كله
صدى أسف عظيم . وتسابق الشعراء لثرائه ، فرائاه الشبيبي
الكبير بقصيدة مطلعها :

لواء الدين لف فلا جهاد وباب العلم سد فلا اجتهد

ورثاه الاستاذ الشرقي بقصيدة مطلعها :

حماة الحمى قد شيعوك إلى الشجر فبالرغم أن يستقبلوك إلى القبر

ورثيته أنا أيضاً — وكنت في فجر شبابي إذ ذاك — بقصيدة

ركيكة ولكنها تعبر عن شعوري نحوه وأسني عليه ، مطلعها :

في مَنْ لواء الدين بعدك يعقد وسواك لا سيف لديه ولا يد؟

هذا هو مجمل القول في حياة الحبوبي . أما شعره فأرجو أن

أحدثكم عنه في مثل هذا الوقت من الأسبوع القادم

الخميس ١٤ / ١٢ / ١٩٤٤

السيد محمد سعيد الحبوبي

شعره

غزل ووصف

سيداتي وسادتي :

حدثكم قبل أسبوع عن نشأة الحبوبي وحياته وأود أن أحدثكم الليلة عن شعره ولا بد قبل كل شيء من قسمته إلى قسمين كبيرين ، هما : الموشح والقصيد : لأن موشحات الحبوبي من الجودة والكثرة بحيث ينبغي أن نقف عندها وقفة خاصة ، ولولا ضيق الوقت لأفردنا لها حديثاً خاصاً . فليس من شك في أن هذه الموشحات جميعاً من أفضل ما أنتجت قرائح الوشاحين القدماء ، وليس من شك في أن أربعاً منها ، تفضل كل ما أنتجه الوشاحون القدماء ، ومن بينهم لسان الدين بن الخطيب وتلميذه ابن زمرك وابن سناء الملك وصفي الدين الحلي . ومطلع أولى هذه الموشحات هو :

هاج برق السعد قري الهنا فتغنى هزجاً في هزج

وسرت باليمن من روض المنى نسمة هبت بطيب الأرج
أما مطلع الثانية فهو :-

هزت الزوراء أعطاف الصفا وصفت لي رغبة العيش الهني
فارغ من عهدك ما قد سلفا وأعد يا فتنة المقتن
وأما مطلع الثالثة فهو :-

يا معير الفصن قدأ أهيفا ومعير الريم مرضى الحدق
هل إلى وصلك من بعد الجفا بلفة تنعش باقي رمقي
وأما مطلع الرابعة فهو :-

أترى الشهب أضواء مطلعا أم تراها غرر الغيد الملاح ؟
تركت ليلى نهارا أنصعا وجلت رآد الضحى قبل الصباح
وقد قال الجبوبي هذه الموشحات كلها ، في تهمة نقر من
أصدقائه بأعراسهم وأفراسهم . وغني عن البيان ، أننا لا نحفل بما في
هذه الموشحات من تهاني ، ولا نحفل بما فيها من مديح ، وإنما نحفل
بما فيها من غزل وما فيها من وصف للطبيعة . وأول شيء يجب أن
أن تفعله هو الاجابة عن هذا السؤال وهو : أيعر غزل الجبوبي
في موشحاته عن غرام حقيقي وحب صادق ، أم هو غزل متكلف
مصطنع ؟؟؟

ومما يؤسف له أن الإجابة عن هذا السؤال ليست من السهولة
بمكان : فمن يستطيع أن يقول إذ الجبوبي قد اكتوى في أيام شبابه
بنار الحب فعرف خيره وشره وذاق حلوه ومره ؟! ومن يستطيع
أن يقول إن الجبوبي قد استمتع من الحياة في شرح صباه بكل
ما يستمتع به أمثاله من الشبان المترفين غير المتقشفين ؟! ومن يستطيع
أن يقول إن في شعر الجبوبي - ولا سيما في موشحاته - من خواج
الحب وشواهد الحياة المترفة ، ما يلمس بوضوح ويستشف بقوة
وجلاء ؟! من يستطيع أن يقول هذا كله أو بعضه ؟!

إن سمعة الجبوبي الفقيه تأبى ذلك كل الباء ، ومنزلة الجبوبي
الزاهد المتقشف تأبى ذلك كل الباء مع أن الجبوبي الشاعر غير
الجبوبي الفقيه ، وغير الجبوبي الزاهد المتقشف ، ومع أن الجبوبي
الشاب غير الجبوبي الشيخ أو الكهل . فضلاً عن أننا نظلم الجبوبي
ظلماً فاحشاً ، إذا افترضنا أن قلبه لم يكن من القلوب التي يدخلها
الحب ، وأن طبعه لم يكن يستجيب في يوم من الأيام لما في الحياة من
متعة ولذة وجمال . وقد زاد الجبوبي هذه المسألة تعقيداً بقوله
في موشح :

لا تخل ويك ، ومن يسمع يخل أنني بالراح مشغوف الفؤاد
أو بمهضوم الحشى ساهي المقل أخجلت قائمه السمر الصبعاد

أو بربات خـدور وكلل يتفـنن بقرب وبـساد
 أن لي من شرفي برداً ضفا هو من دون الهوى مرتهني
 غير أني رمت نهـج الظرفا عفة النفس وفسق الألسن
 وما أريد أن أكذب الجبوبي في قوله هـذا، ولا أريد أن
 أقترض أموراً لا تتفق وسمعته كناسك وفقيه . ولكني أحب أن
 أروي لكم مثلاً قليلة من غزل موشحاته هـذه على أن أدعكم
 تستنبطون منها ما تشاءون وتحكمون عليها بما تريدون . اسمعوا قوله
 من موشحة :

قلن لي : علك يا بادي الشجن
 ذلك الصب العراقي الوطن
 مولع القلب بتسأل الدمن
 لست تنفك تحي الأربعا ولكم عجت ضحى في سفح ضاح
 قلت : هل تنكرن ممباً مولعا ياذوات الأعين المرضى الصباح

قلن : يا أسم امنحيه الغزلا
 وصلية فهو من خير الملا
 فاثنت كبراً وقالت : لا ، ولا
 كان لي سر لديه مودعا ضمن الكتمان فيه ثم باح

ولقد شيب بي حتى سعى بي في سر التصابي لا فتضاح

فتضاحكن لها يخذعنها

وإذا ما اعتسفت أرجعنها

قلت إذ أعت خصاماً دعنها

فهي والغيران كانت شرعاً في تدانها وفي طول انتزاح

منعت من وصلها ما منعها وأباح من هواها ما أباح

ثم قد ناشدنها بالذمم

وتلطفن بطيب الكلام

قلن لي : الموعد في ذي سلم

فانتظر حارسها أن يهجمها ورعاة الحي أن تأوي المراح

وهزيم الليل أن ينزعها وتهيج الروض أنفاس الرياح

وقوله من أخرى :

فاحد بالركب إذا الركب حدا فيه يوماً وأقم ما لمن أقام

يممن : نجداً إذا ما أنجدنا وإذا أتهم فلمسرى تهام

وهو إن يشهد فأَمّ المشهدا وسلام لك من دار السلام
إن نوى جسي خـلّ النجفا * فقوّادي عنـدهم لم يضعن
أين من حلوا بجمع والصفاء * من مقيم بالغري الأيمن

* * *

أيها العذال كفوا عذلكم بالهوى العذري عذري اتضحا
وامنحوا يا أهل نجد وصلكم مستهـاماً يتشكى البرحا
(واذكروني مثل ذكراي لكم رب ذكرى قربت من ترحا)
ألؤفا ، يا عرب ، يا أهل الوفا * لا تخونوا عهد من لم يخن
لا تقولوا صد عنا وجفـا * عندكم روعي وعندي بدني

* * *

وقوله من أخرى :

همت في حبك والحب هيام في اللوم ولا لوم عليك
وتعاصيت على داعي الغرام فوقعت الآن طوعاً في يديك
كلما رمت أعاصيك الزمام جذبتني سورة الحب إليك
وإذا جـال فوّادي وقفـا * حول مغناك فلم ينطلق
وعلى نادي هواك اعتكفا * فـدا مأمنـه في فرق

* * *

بت من حبك ذا طرف قريح محرق وجدي ودمي غامري

خضبل الأردن ، ذا قلب جريح أنحوى كل برق حاجر
 ما لقي القيسان ، قيس بن ذريح ما ألقىه ، وقيس العامري
 لا ، ولا عروة فيما سلفا * بعض ما لا قيت في الحب ، لقي
 ليت دين الحب لما عرفا * لم تقم بيعته في عني

* * *

فهذه مثل قليلة من غزل الجوبي في موشحاته ، أضفها بين
 أيديكم ، ولكم أن تقولوا فيها ما تشاءون ، وتستنبطوا منها ما تريدون
 أما أنا فأحتفظ برأيي إن جاز لمؤرخ أدب أو ناقد أن يحتفظ برأيه
 في ميل هذا المقام .

أما وصف الطبيعة في موشحات المترجم ، فانه حافل بالصور الحية
 والمشاهد الرائعة ، ومثال واحد من وصفه يكفي للدلالة على وجهة
 هذا الزعم . اسمعوا قوله من موشحة :

وترى منتظم الطل السقيط فيه بطن الوادين انشعا
 والصبا قد حملت عرف الخليط ولذا كانت لقايا أروحا
 فصأت هذي وذياك بخيط مطرف الزهر ليكسو الابطحا
 إذ حدا الرعد يسوق المزنا * مثقلات كالضعين المدالج
 ودعا عند محاني المنحني * يا ربوع ابتشري وابتهجي

* * *

فترى فيها القضا لما ارتدى وله من لامع البرق شنوف
 يرقص القطر زفوفاً إذ غدا يضرب الرعد بجنبه دفوف
 وترى الآكام في قطر الندى أظهرت في مده مثل الحروف
 وترى فيه الرواسي سفنا * سبحت ماخرة في لجج
 وترى الضب يؤم المكننا * ثانياً برثنه لم يعج

* * *

عارض الوسي كم قد روضا وجه وهد أو كئيب أو عس
 وكان الماء لما غمضا قيل يا أرض ابلي ثم اكتسي
 فاكست أخضر لكن فضضا بالأقاحي فهو أسنى ملبس
 ألحت آساً وسدت سوسنا * يد أزهار الريح الأبهج
 ثم حاكته تباهي المننا * هكذا صنعاء أو لا تنسج

* * *

وبعد : أرأيتم كيف تتلبد الغيوم ، وتتألق البروق وتدوي
 الرعود ، خلال هذا الوصف ؟ .. أرأيتم كيف تتدفق السيول ، ثم
 تغيض مياهها الزاخرة خلال هذا الوصف ؟ .. وأخيراً ، أرأيتم
 كيف تخضر البطاح والوديان وترندي حللها السندسية الزاهية خلال
 هذا الوصف ؟ .. هذه هي سبيل الجوبي في الوصف . وهذا هو
 مبلغ تمكنه منه وإجادته فيه .

وتسألوني عن غزله ووصفه في قصيده فأقول لكم إنهما مثل
غزله ووصفه في موشحاته وهما كم على سبيل المثال قوله من قصيدته:
منح الصباة أضلاعاً وفؤادا وعصته سلوة مقصر قتمادى
وطنى عليه الحب وهو أميره فأطاع جاح قلبه وانقادا
ولهان يفرح إن دنا أهل الحمى منه ويحزن إن ناوه بعادا
بعثوا الخيال وما رقدت فليتهم بعثوا إلي مع الخيال رقادا
أحيى الدجا أرقاً كأن نواظري خلقت محاجرها قذى وسهادا
قلق الوساد كأن من أهواه قد أهدى وشاحيه إلي وسادا
قطف العيون الورد من وجناته غرس المضاجع للمحب قتادا
يا غارساً بالجزع روضة حسنه ومخيف رائدها ظباً وصعادا
كنيت عنك بمن سواك مورياً بهوى سعاد وما عنيت سعادا
أعرضت عني وادعيت مودتي أرايت إعراضاً يكون ودادا
إن لم تساعف بالوصال فربما عودت قلبي للجفنا فاعتادا
ولقد أزورك بالمنى وخداعها وأجوب في فكري إليك وهادا
لترك فؤادي جربة لا تطفه فالنار إن خمدت تعود رمادا
إني تعبدني الهوى لمغنج دان الجمال لعزه فانقادا
كبر الوقور إذا مشى يعتاده حتى إذا غلب الدلال نهادى
فكأن في برديه ملكاً ظافراً جذلان أبدى زهوه وأعادا

قاس رقيق نال من زهر الربى خدّاً ومن زبر الحديد فؤادا
 فاذا هزرت ، هزرت منه أراكه وإذا سألت سألت منه جمادا
 ينأى فلا يمد الدنو فان دنا يوماً نوى لك فرقة وبعادا
 اني لأستر عفتي بخلاعة وأريد فيما أنتحيه مرادا
 والضد قد يبدو بمظهر ضده أو ما ترى نور العيون سوادا ؟

وقوله من أخرى :

هلا (١) خبر الحمى لمن استهلا فهلل بالبراءة مستهلا (٢)
 أعد ذكر الحمى ليعود أنسي وكرره عليّ فان يملأ
 وشب في أهيل مني قصيدي معرضة بسكان المصلى
 وصرح لي بمذك لي حنواً فقد أضجرتني فنداً وعدلاً
 فلي بين القباب فتاة خدر يمد لها القنا الخطي ظلاً
 إذا وصلت فقد وعدتك هجرأ وإن هجرت فما وعدتك وصلاً
 صبا لك يا ابنة البكري قلبي فهلاً لا عدمت هواك مهلاً
 جعلت لك القضا أمراً ونهياً فما شئت احكي جوراً وعدلاً
 بروحي من بروحي أفتديها وقلّ لها القدا مالا وأهلاً

(١) هلا : كلمة حث واستعجال .

(٢) بين الديوان « والعراقيات » خلاف في رواية هذا المطلع وقد
 آثرت رواية العراقيات لصحتها واستقامتها .

كأن الأقحوانة قبلها بمسما فأبقت فيه شكلا
 وإن سفرت فقد أبدت شقيقاً أجادته يد النعمان صقلا
 أرق من الحميا في يديها وأطيب من مذاقتها وأحلى
 بحيث الزهر ترضعه الفوادي بحجر خميلة حضنته طفلا
 وقامت فيه ماشطة النعما تسرح من جمود الآس جثلا
 ونفر الأقحوان اقتر حسناً لأعين نرجس ينظرن نجلا
 وأعطاف الأراك مرنحات كأعطاف الأراك تميل دلا
 فكم خالت ثم وخالتني جاذر ما ظفرت بهن ختلا
 فيا شهب الثريا سامريني فلو كان السмир سواك ملا
 كأن الصبح سيف في جفير تقلده الجبان فلن يسلا
 سيداتي وسادتي :

لقد كنت أود أن أقف عند هذه المثل التي اقتطفها لكم من
 غزل الجبوبي ووصفه في قصيده لأوفىها حقها من التحليل والدرس
 ولكنني أتخشى هذا خشية الاطالة والاملال فأكتفي بأن ألفت
 أنظاركم لما فيها من دقة وروعة وجمال

الخميس ٢١ / ١٢ / ١٩٤٤

السيد محمد -سيد- الحبوبى

- رثاؤه -

سيداتي وسادتي :

قلت في صدر هذه الأحاديث إن للحبوبى رثاءً بليغاً ولكنه دون رثاء السيد حيدر على العموم وأقول الآن إن له ثلاث عشرة مرثية يخيل إليّ أن تسعاً منها من متوسط الرثاء أو فوقه بقليل وأن الأربع الباقية من جيد الرثاء ونفيسه .

هذه المراثي الأربع هي لاميتها في رثاء السيد جعفر القزويني كبير أنجال السيد مهدي القزويني الذي أشرت إليه في الحديث الأول من هذه الأحاديث وكبير زعماء الحركة الأدبية على عهده إذ ألم أخطيء . وهائيته في رثاء السيد مهدي القزويني والد السيد جعفر المار ذكره . وعينيته في رثاء السيد صالح ثاني أنجال السيد مهدي القزويني المذكور . ونونيته في رثاء صديقه وزميله السيد حيدر .

وسأشددكم ما يسمح بانشاده المقام من هذه المراثي الأربع . على
أني أحب أن أقول إنك لا تجد هذه القصائد في الديوان مصدرة
بأسماء من قيلت فيهم عدا مريثة السيد حيدر . وهذه هي الطريقة
التي أتبعها ناشر الديوان لإزاء معظم أصدقاء الحبوبى الذين شاء كرمه
وشاءت أريحيته أن يتحفهم بتأنيده ويخلد لهم بمراثيه . وقد حاولت أن
أفهم السبب الذي حمل الناشر على اتباع هذه الطريقة فلم أفصح . بيد
أنا لحسن الحظ نعرف شيئاً لا بأس به من شعر الحبوبى في جملته
هذه المراثي الأربع قبل أن يُنشر الديوان . ونعرف كذلك عدداً
لا بأس به ممن أهدي إليهم هذا الشعر وفي جملتهم من قيلت فيهم هذه
المراثي قبل أن ينشر الديوان أيضاً . ولذلك فنحن نقول ما نقول
بصدد هذه المراثي عن ثقة واطمئنان .

والآن لنسأل : ألتحبوبى في رثائه طريقة خاصة ؟ وإذا كانت
فما هي ؟ .. وأجيب بأن للحبوبى طريقة خاصة أساسها قوة الفطنة
وقوامها دقة الملاحظة وخلاصتها أنه يستوعب الحوادث التي تهز
قريحته للرثاء استيعاباً كاملاً ويفهم الظروف والعوامل التي تحيط
بها فهماً تاماً ويحس وقعها في النفوس وأثرها على الخاصة والعامة
وصداها في آفاق البلاد القريبة والبعيدة إحساساً دقيقاً . ثم يصفها
وصفاً صادقاً أصيلاً .

فاذا برثائه يفيض مشاعر وعواطف ويتدفق أحاسيس وانفعالات
وإذا هو يسجل حوادث الأيام ويدون وقائع الاجتماع ، وإذا هو
بروقك بأصالته ويدهشك بصدق حسه ويشوقك بطرافة معلوماته :
فأنت إذا قرأت لاميته في رثاء السيد جعفر القزويني فهمت من
مطلعها أن الفقيه قرشي وأنه جليل القدر عظيم المنزلة في قومه
إلى حد بعيد .

نزعك من يدها قريش صقيلا وطوتك فذاً بل طوتك قبلا
فاذا تقدمت في القصيدة علمت منها أن المراثي فذ من أفذاذ
أسرته وأنه قد أضاف إلى مجدها مجداً وإلى نحرها نحرأً وأن الله قد
اختاره لجواره في سن مبكرة .

أكسبتها العز الكثير محامداً تبقى فعزاً بأن تعيش قليلا
فاذا أمعنت في القصيدة تبينت منها أن الفقيه قد لبى نداء ربه في
أول محرم الحرام ، وأنه من نباهة الشأن وجمال السيرة وطهارة
الخلق ووفرة العلم والأدب ومباحة الوجه أيضاً بحيث يمكن أن
يقرن إلى جده الحسين ، وأن فقدته المفاجئ المبكر يمكن أن يعد
صورة مصغرة من مصرع جده فداحة هول وشدة وقع :

كان المحرم مخبراً فأريتنا يا جعفر فيه الحسين قليلا
فكان جسمك جسمه لكنه كان العفير وكنت أنت غسيلا

وكان رأسك رأسه لو لم يكن عن منكبيه ميمزاً مفصولاً
 وجبينك الوضاح مثل جبينه بلجاً وليس كشله تجديلاً
 وحملت أنت مشرفاً أيدي الوري وثوى بنعش لم يكن محمولاً
 إن تنأ عنا راحلاً كرحيله فلبّ سجاد تركت عليلاً (١)
 وتمضي في القصيدة فتفهم منها أن المرثي لقي ربه في حياة أبيه وأن
 هذا لقي تلك الكارثة الهائلة بصبر لا يُفل وثبات لا يتزعزع .

يا أيها المهدي يا علم الهدى أعبي التصبر من سواك فميلاً
 أيقنت حين نعي إليك مصداً ونخال أنك خلته تخيلاً
 حاشاك من جلد القساة وإنما هدي النبي قد أجبتك خيلاً
 أنت الذي ترضى بما يرضى به باري البرية هيناً وجليلاً
 أقول صبراً؟ لا، وصبرك لاني جزعاً وصبرك لا يزال جميلاً (٢)

(١) المراد بالسجاد العليل والد الفقيد .

(٢) يخيل إلي أنه من المفيد أن أروي لك هنا مثلاً آخر من هذه
 القصيدة العصماء ، وها هو ابتداء من البيت الثاني منها : -

فجعت بفقدك واحداً فكأنها فجعت بآل النضر جيلاً جيلاً
 وغدت تطوف خلال نعشك ولها وأت على أعواده تقبيلاً
 بكر النعي لها بواشج أصلها فلتبك يومك بكرة وأصيلاً
 حسرت فكنت السرد من أدراعها

وضحت لظلم لم تجده ظليلاً =

وَأَنْتَ إِذَا قَرَأْتَ هَائِثَهُ فِي رِثَاءِ السَّيِّدِ مَهْدِي الْقَرْوَيْنِي تَبَيَّنْتَ فِي
 كُلِّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهَا أَنَّ الْمُرْتِيَّ عَالِمٌ جَائِلٌ وَزَعِيمٌ كَبِيرٌ ، وَأَنَّهُ قَدْ
 تَوَفَّى عَائِداً مِنْ أَدَاءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ ، وَأَنَّ وَفَاتِهِ قَدْ أَقَامَتْ الْحَجِيجَ
 وَأَقْعَدَتْهُ وَتَرَاتْ عَلَى مَسَامِعِ الْعِرَاقِيِّينَ أَوْ الْفَرَاتِيِّينَ مِنْهُمْ عَلَى الْأَقْلَى
 نَزُولَ الصَّاعِقَةِ .

سَرَى وَحْدَاءَ الرِّكْبِ حَمْدَ أَيْدِيهِ وَأَبَ وَلَا حَادٍ لَهُمْ غَيْرَ نَاعِيهِ
 وَعَهْدِي بِهِمْ يَسْتَمْطَرُونَ بَنَانَهُ فَلَمْ وَبِمَاذَا اسْتَمْطَرُوا دَمْعَ بَاكِئِهِ
 وَكَانَتْ وَسَاماً بِالْجَمِيلِ جَمَالَهُ فَأَيْنَ مَرَائِيهَا وَأَيْنَ مَرَائِيهِ
 وَقَلْتَ دِنَارَكَبِ الْحَجِيجِ لِصَاحِبِي هَلَمْ نَلَاقِي رُكْبَهُمْ وَنُحْمِيهِ
 فَقُلِّي وَمَا نَارُ الْغُضَا مِثْلَ نَارِهِ وَدَمْعِي وَمَا وَادِي الْعَقِيقِ كَوَادِيهِ

== يَا سَيْفَهَا وَسَنَامَهَا غَادِرَتَهَا ظَهراً أَجَبَّ وَسَاعِداً مَشَلُولاً
 وَلَأَنْتَ مَعْقِلُهَا أَصَابَ تَصَدَّعاً وَلَأَنْتَ صَارِمُهَا أَصَابَ فُلُولاً
 مَهلاً أَبَا مُوسَى فَانْكَ وَالْعَلَا وَلِئِكَ السَّلَامَةُ مَزْمَعَانِ رَحِيلَا
 يَا أَيُّهَا الْجَبَلُ الْمُنْعَرِكُ رُكْنَهُ هَوْلُ لَعْمَرِكَ أَنْ تَرَكَ مَهِيلَا
 نَكَدَ الْإِقَامَةَ أَنْ تَقِيمَ وَلَمْ تَقَمْ فِينَا تَنْيِلَ جَزِيلَةً وَجَزِيلَا
 وَمَنْ الرَّدَى أَنْ لَا نَشَاطِرُكَ الرَّدَى

وَمَنْ الْغَلِيلُ بِأَنْ نَبْلَ غَلِيلَا
 لَوْ قَفْتُ مَا بَيْنَ النَّوَائِبِ وَالرَّدَى حَصْنًا يَبْقِي الْخُطْبَ الْجَلِيلَ جَلِيلَا
 حَتَّى تَخْبِطَ عَارَاً بِكَ ظَفَرَهَا إِذْ لَمْ يَجِدْ بِكَ لِلْأَنَامِ سَبِيلَا

فلو جزت رمل المنحنى يوم جازه لطاحت محاني أضلعي في محانيه
 نرجي ويا بؤساً بشير قدومه فعاج ولكن كي تعجّ مرأيه
 وقل مثل هذا في عينيه التي يرثي بها السيد صالح القزويني
 ونونيته التي يرثي بها السيد حيدر . على أنّ الجبوبي يتبع هذه
 الطريقة في سائر رثائه ، ولكن اتباعه إياها في مرأيه المختارة أكثر
 بجلاء ووضوحاً .

ومما يزيد في أهمية رثاء الجبوبي ويكسبه قيمة إلى قيمته وخطراً
 إلى خطره ، هذه الخطرات الأخلاقية العرفانية التي يحاق بها من
 حين لاخر في جو التصوف ، فيتكلم لغة قلما يفهمها الآخرون ،
 ويعبر عن مشاعر وخواطر لا يتيسر إدراكها لكل أحد .

فمن هذه الخطرات الجميلة قوله في عينيه التي يرثي بها السيد
 صالح القزويني : —

أحبتنا الذين قد استقلوا رويدكم التحمل والزماعا
 فأخوة يوسف خلصوا نجياً وقد صجوا فؤادي لا الصواعا
 فلو عاجوا عليّ لكان عندي لهم شأن إذا اعتنقوا وداعا
 إذا أغرقت عيسهم بدمع طغى لججاً فما أخطأت قاعا
 ولو فرشت بقرهم العوالي هدأت على أسنتها اضطجاعا

أحببتنا وأوقات التلاقي نراها لا توافقتنا اجتماعا

فنسبقها إذا جاءت بطاء وتسبقنا إذا جاءت سراعا

وقوله في نونية التي يرثي بها السيد حيدر : —

بلى تحن في طيف الكرى وتظننا من السكر يقضى لا بطيف كرا
بمعشوقة لم ترع ذمة عاشق وشنآنه لم نولها الشنآن
نرى وصلها وهو المحال فريضة كما أوجبت هجراننا وجفاننا
أجدك علمني لوصلك حيلة فأنت الذي علمتني الهيماننا
وهب أن سمعي قانع بحديثكم الالعين معنى أو تراك عياننا ؟
وفي ثنا يارثاء الجوبي أمثال طريفة أروي لكم مثلا منها قل في
مطلع قصيدة :

ما لفودي ينكران المشيبا أحسن النجم طالع لن يغيبا

وقال في أخرى : —

دفنت ولم تدفن علاك وإنما تروق وراء السيل خضر أجاريه

وقال في أخرى : —

وليس بضائر المسك استنار اذا ما عرفه الداري ضاعا

* * *

وأحب أن أختم هذا الحديث بأمنية غالية ، ألا وهي إعادة طبع

ديوان الجبوبي على أن يشتمل في هذه المرة على شعره برمته ، فإن
له شعراً كثيراً غير موجود في ديوانه ، وعلى أن يكون خالياً من
هذه الأغلاط المطبعية وغير المطبعية التي تشوه جماله وتنقص من
قيمته ، وعلى أن يكون مضبوطاً ضبطاً كافياً ومشروحاً شرحاً وافياً .
فهل يؤدي محبو الجبوبي وعشاق أدبه وسيرته هذا الواجب نحوه
أم تضطلع به السلطات المسؤولة عن رعاية الأدب في هذه الديار ؟
إن من يفعل ذلك يؤدي للأدب العربي وللإعراق خدمة تستحق
كل ثناء وتستوجب كل تقدير مـ

الخميس ٢٨ / ١٢ / ١٩٤٤

السيد حيدر

— سيرته —

أيها السادة :

هناك مثل فرنسي ترجمته (لا تاريخ لشعب سعيد) . وقياساً على هذا يمكننا أن نقرر أنه لا تاريخ لرجل سعيد ، لأن في رغد العيش وجمال السعادة ولين جانب الحياة ما يلهي عن الأعمال التي تكون التاريخ عادة . ولم يكن السيد حيدر الذي نخصه بهذا الحديث رجلاً سعيداً ، إلا أنه لا تاريخ له . ولا أدل على ذلك من أن ناشر ديوانه وهو ابن أخيه وتلميذه ، لم يقدم بين يدي شعره سوى تاريخي ولادته ووفاته مصحوبين بما قيل في رثائه وفي تقریظ كتابه العقد المفصل من الشعر . ومع ذلك سأحاول أن أرسم صورةً صحيحة أو شبه صحيحة لحياته .

ولد صاحبنا في الحلقة في ١٥ شعبان عام ١٢٤٦ للهجرة في بيت علم وأدب ووجاهة ، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي عليهما السلام . وتوفي والده السيد سليمان بن السيد داود وهو طفل ، فنشأ

يتيماً ، وكفله عمه السيد مهدي ، فتزوج والدته وتولى تربيته . وكان
هذا شاعراً مجيداً وأديباً كبيراً له ديوان شعر مخطوط وآثار أخرى
حسنة ، وأرجو أن أحدثكم عنه في وقت قريب .

وعني السيد مهدي بتربية ابن أخيه من الناحية الأدبية كما عني
بشؤونه الأخرى ، وعمل على شحذ ملكاته وصقل مواهبه فكان هذا
منه مكان زهير من أوس ، أي أنه فضله وفاقه بمراحل كثيرة . وكان
للمترجم أملاك قليلة في قرية تبعد عن الحلة نحواً من اثني عشر كيلو
متراً تدعى (بيرمانه) (١) . إلا أنها لم تكن تكفيه لأنه لم يكن رب
أسرة خسب وإنما كان ذا نادر له نفقاته وله تكاليفه . فكان آل كبة
الذين تربطه بهم صداقة تأريخية يكملون إيراد الضئيل . وأنا إذا
قلت آل كبة في هذا المقام فلما أغني عميدهم السري التقي الفاضل الحاج
محمد صالح وولديه السيدين مصطفى ومحمد حسن . وقد سبقت الإشارة
إلى هذا الأخير في صدر هذه الأحاديث . وكان آل قزوين من
فاحيتهم يفعلون فعل آل كبة مع المترجم ، فكان يعيش عيشة الكفاف ،
وربما ساءت حاله أحياناً فانتجع بعض العظماء بمدحجه . إلا أنه من
الحق أن نلاحظ أنه كان على العموم أديباً عزيز النفس يلتزم التصون
(١) مما ينبغي أن يذكر هنا أن السيد مهدي عم المترجم ترك ولدين جعله
نائبهما من ناحية الارث .

ويؤثر الترفع . ولكن لئن كان خفيف الحال قليل المال لقد كان عظيم
القدر واسع الجاه .

أخبرني جماعة من معاصريه أنه كان إذا دخل مجلساً نهض كل
من فيه له إجلالاً كما لو كان عالماً كبيراً أو حاكماً خطيراً . ولبلوغه
هذه المنزلة الأدبية الرفيعة أسباب : أولها تميزه بين شعراء عصره
ولا سيما في رثاء أهل البيت ، وثانيها نباهة بيته الذي نبغ منه عدد
لا بأس به من العلماء والشعراء ، وثالثها كلف آل قزوين به وتقديمهم
له وإطراؤهم إياه . فقد كان والدهم الامام السيد مهدي بعده أكبر
شاعر طالبي ، ومعنى ذلك أنه يقدمه على الشريف الرضي ويعرب عن
تقديره له وإعجابه به في كل مناسبة .

روى أنه لما سمع قوله فيه : -

فاليوم إن شكت الشريعة قرحةً فسواك ليس بمدمل أقرافها (١)
ما أيقنت ببقاء مهجتها لها حتى دعاك الله : قم فتلافيها
قام واستعاد البيتين وخلم عباءته على المترجم . وروى أنه لما سمع
قوله فيه : -

ومفيد عصر لو أتى العصر الذي فيه المفيد لقال أنت مفيدي (٢)

(١) الاقراف ، جمع قرف وهو قشر القرحة .

(٢) المفيد ، هو محمد بن النعمان كبير علماء الامامية في القرن الرابع للهجرة .

قال له بصوت فيه رنة الاعجاب : « أنت مفيدى » واستعاد البيت . وروي لي أن نجله العلامة السيد صالح قال لصاحبنا وهو يسمع رثاءه لأحد وجهاء الحلة : « إن رثاءك يجب إلينا الموت » . وكان سائر آل قزوين يققون منه هذا الموقف الملقم صداقة وتقديراً . وكان هذا وحده كافياً لأن يرفعه إلى منزلة أدبية سامية تماماً ، فكيف إذا أضيفت إليه عوامل أخرى ؟!

إلا أن خصوم المترجم من النجفيين كانوا يعابشونه من حين لآخر معابشات تسيء بعض الشيء إلى هذه العظمة الأدبية ، مثال ذلك أنهم سمعوا جزءاً كبيراً من مراثيته البليغة للشريف جعفر القزويني كبير أنجال الامام السيد مهدي القزويني التي مطلعها :

قد خططنا للمعالي مضجعاً ودفنا الدين والدينا معا
دون استحسان ولا استعادة ، ومع أن عدداً كبيراً من أدباء الحلة كان حاضراً ذلك المجلس وكان يستحسن كل بيت من أبيات هذه القصيدة ويستعيده شق على المترجم موقف خصومه منه وتمصّبهم عليه . فقال للشيخ محسن الخصري ، الذي أخضه بأكثر من حديث واحد من هذه الأحاديث وهو من كبار شعراء النجف ^(١) : « إذا كان في هذا المجلس من أعتب عليه لصمته

(١) كان من عادة المترجم أن يأتي النجف في مثل هذه المناسبة ومعه =

وتغافله عن أداء حق هذه المريثة فهو أنت » . فأجابه بقوله :

ميزتني بالعتب بين معاشر سمعوا وماحي سواي بسامع
آخر ستي، وتقول: مالك صامتاً؟!

وأمتي، وتقول: مالك لا تعي؟!

واستعاد القصيدة من أولها ونزل خصوم المترجم عن مطية
لعبهم وانضموا إلى الشيخ محسن وإلى أدباء الحلة الذين كانوا
يستحسنون القصيدة ويستعيدونها : فسُرِّي عن خاطر المترجم
ونالت مريثته ما تستحق من إعجاب وتقدير . وحدث مثل هذا
عند تلاوة مريثته للسيد مهدي القزويني - طاب تراه - فكظم غيظه
إلى أن وصل منشده إلى قوله :

فقل لعوادي الختف : شأنك والورى

مضى الفضل والباقون منها فضولها

وأنشد أعاد عجز البيت وترك المجلس مغضباً . فبادر خصومه إلى
استرضائه والاعتذار إليه ، فسأحهم وصفح عنهم وعاد إلى المجلس
الذي تكهرب منذ ذلك الحين بروح التفاهم والانصاف .

= جمع كبير من أدباء الحلة يعتمد عليهم في استحسان شعره وترويجه . إلا
أن سكوت أدباء النجف عند سماع قصائده من حين لآخر كان يسوءه
ويشق عليه .

وكان المترجم ضعيف البنية عليل الجسم ، وربما كان هذا سبباً في
غلبة الكآبة على طبعه وانقطاعه إلى الرثاء انقطاعاً جعله في طليعة
شعرائه .

وتوفي رحمه الله متأثراً بآلامه وأسقامه في ٩ ربيع الأول من عام
١٣٠٤ للهجرة .

و شاءت الصدفة أن تكون وفاته في سنة جذب وأن يلفظ الله
بعباده على أثر وفاته فيسقيهم الغيث ويحيي الزرع والضرع ، فعد
الناس ذلك كرامة له . وإلى هذا أشار الشيخ محمد نوح بقوله في
مرثية له :-

مصد الغمام فساد الأرض وانقشعت

سحب القطار وهول الشدة انفسحا

وفزع الدهر إمساك الحيا وعرت سود الروائع حيث المترف اجترحا
حتى إذا اخترت دار الفيض مصطفىاً

مشوى به جبرئيل وجهه مسحا

بكت عليك السما فاخضر منغمراً روض البسيطة حتى عيشها صلحا
وهكذا أصبحت مكانة الشاعر بعد موته بنظر كثير من الناس
مكانة قديس ، ووقف كثير من شعراء عصره منه موقفاً كله وفاء
وكرم فرتوه أجمل رثاء وأبثوه أحسن تأيين ، ولعلي لا أخطئ إذا

قلت لكم إن مرثية السيد محمد سعيد الجبوبي أجمل مرثية قيلت فيه. وقد رويت لكم الجزء العرفاني من هذه القصيدة في حديث

سابق، فاسمعوا الآن مثلاً من رثائها البليغ، قال الجبوبي:

أبن لي نجوى إن أطقت بيانا ألت لعدنان فـاً ولسانا
وأبلغ خطاباً فالبلاغة سلمت لكيفيك منـاً مقوداً وعنانا
وَجَلْ يا جواد السبق في حلباتها فـاًشم سامت للسباق رهانا
منها: -

فيا صارماً لاقى من الموت صارماً بلى وسناناً ذاق منه سنانا
رماك الردى فينا بماضي سهامه فأصمى لأحشاء الكمال جنانا

الخميس ١٤ / ١ / ١٩٤٥



السيد حيدر

- آثاره -

سيداتي وسادتي :

كان السيد حيدر - رحمه الله - نأراً كما كان شاعراً. ولدينا رسائل كثيرة منه كتب بها إلى نفر من أصدقائه وأودائه لها طابعها الفني ولها قيمتها الأدبية التاريخية. وأقول : التاريخية ، لأنها ليست مما يُقرأ أو يكتب نظيره اليوم. على أنه قد لا يخلو من فائدة أن نلاحظ أن هذه الرسائل المسجوعة فصيحة اللفظ متينة السبك رصينة الأسلوب . وفي ذاكرتي شيء من رسالة عَقَّبَ بها المترجم على قصيدة عتب أرويه لكم على سبيل المثال ، قال المترجم :

« فلما استوقفت ناقد الفكر فيها ، وسرحت رائد النظر في ألفاظها ومعانيها ، وجدتها تنطق عن بذخ وبأو ، وتتشدق عن شمع وزهو ، قد نشأت عن ضمير شحنه الخلق ، فطفح بالاحن إناؤها على لسان منشئها فنطق بما نطق . » وواضح أن هذه الجمل على جانب لا بأس به من الجمال والقوة ، وأن الذي يشينها هو التزام السجع ،

ولكن لا حيلة للمترجم في هذا. فان هذه هي الطريقة التي كان يكتب بها الناس في عصره في العراق وفي غيره من الاقطار العربية. وأهم آثاره كتابان هما العقد المفصل وديوانه.

فأما العقد المفصل فهو كتاب أدب وضعه لصديقه العالم الفاضل الشيخ محمد حسن كبة ، وضمنه مدائحه إياه ، واستطرد فيه استطرادات لطيفة جمع بها شيئاً غير قليل مما تحفل به كتب الادب القديم من شعر وخبر ، وكل هذه الاستطرادات تنفرع عادة عن كلام للمؤلف في صديقه الفاضل . مثال ذلك أنه يقول فيه من قصيدته :

يسكت لكن بجواب حاضر يترك أ كباد الخوصوم فلدا
ومن هنا يستطرد إلى ذكر الأجوبة الحاضرة المسكتة فيروي منها كل ما وعى صدره وأحاط به علمه . فترون أن الكتاب في مادته وكيفية ترتيبه شبيه « بالبيان والتبيين » « والكامل » للمبرد وربما كان أقوى شهماً « بمعاهد التنصيص » وما يجري مجراه من كتب البديع . إلا أن وقعه كان عظيماً إلى الغاية فقد أ كبره العلماء والادباء والشعراء وتنافسوا في تقريضه والتنويه به . ويغلب على ظني أن هذا التقريض كان للكاتب أكثر منه للكتاب .

أما ديوانه فانه يحتوي على كل باب من أبواب الشعر القديم .

والرجل مجيد في هذه الأبواب جميعاً على اختلاف في الاجادة ، إلا أنه يبلغ أوج شاعريته في الرثاء . وسأقصر حديثي هذا على غزله ووصفه ، على أن أحدثكم في فرصة قريبة عن أبواب شعره الأخرى التي تهمننا .

السيد حيدر تشبيب كثير صدر به مدائح وتهانيه وطائفة من مرثياته لأهل البيت أيضاً . وهذا التشبيب يختلف باختلاف الموضوع الذي تنظم القصيدة من أجله . فإذا كان الموضوع تهنئة بزفاف أو عودة من الحج كان ذلك التشبيب وصالاً وقرباً وعناقاً وضماً ولتماً وعزفاً وقصفاً . وإذا كان الموضوع إطراء رجل من عباد الله الصالحين كان ذلك التشبيب شكوى من الهجر وعتاباً على الجفاء وحنيناً إلى الأيام السالفة وتطلعاً إلى أخرى تشبهها بشاشة وجمالاً . وإذا كان الموضوع رثاء لأهل البيت كان ذلك التشبيب وقفات باكية على الأطلال وحسرات تقطع الأكباد ومطارحات للحمام الباكي على لافه . وقد لا ينفذ هذا تنفيذاً حرفياً على الدوام ، إلا أنه غالب على المترجم في تصدير قصائده .

وتقولون : وما قيمة هذا التشبيب إذا كان خلواً من العواطف والأحاسيس ، صغراً من المشاعر والانفعالات ؟ وأجيب بأن له من جودة معانيه ولطف أخيلته وحلاوة أدائه ما يجعله خليقاً بأن يُقرأ

وخليقاً بأن يدرس . وأنا أروي لكم الآن مثلاً منه لتروا أهو
جدير بأن يهمل خليك بأن ينسى كما هو شأنه الآن ؟؟

قال حيدر من قصيدة :

فجحات السرور أحييت حبيبا	فحبنا من النسيب نصيبا
وأعادت لنا صريع الغواني	يسترقّ الغرام والتشيبا
غادرتنا نجر رجل خليم	غزل كالصبا بعد المشيبا
نعمتنا بناعم الجيد غض	قد كساه الشباب برداً قشيبا
زارنا والنسيم ثمّ عليه	فكان النسيم كان رقيباً
رشاً عاطش الموشح ريان	بماء الصبا يمس قضيبي
كم لحاني العذول ثمّ رآه	فعدداً شديداً إليه طروباً
جاءني لائماً فعاد حسوداً	رب داء سرى فأعدى الطيباً

وقال من أخرى :

حدرت بأطراف البنان نقابها مرحاً فأخجل حسناتها

وجلت غداة تبسمت عن واضح

تستعذب العشاق فيه عذابها

قتالة اللحظات فهي إذا رنت وجد المشوق سهامها أهدابها

سارقها النظر المريب بمقلة لم تقض من لحاتها آرابها

ولقد دعوت ومادعوت مجيبة ودعت بقلبي للهوى فأجابها
 أعقيلة الحين شقت فنوّلي كبدًا هوتك فكابدت أوصابها
 مادمية المحراب أنت بل التي تنسين نساك الوري محرابها
 منها :

هتكت أشعة نورها ستر الدجا فجلت بهاتيك الفجاج ضبابها
 فكان ليلة وصلها زنجية خنقت عليك فزقت جلبابها
 وكان أنجمها الثواقب في الدجا حدق تراقب في الحجال كعابها
 ليس هناك أدنى شك في أن السيد حيدر لم يقع في شرك الحب
 ولم يخضع لسلطان الغرام في يوم من الأيام - إذا كان ما نعرف من
 أخلاقه وأحواله صحيحاً - ولكن ليس هناك أدنى شك أيضاً في
 أن ما رويته من غزله لكم الآن لا يقل عن أنفس ما نعرف من غزل
 شوقي وحافظ والزهاوي إن لم نقل إنه يفوقه روعة خيال وصفاء
 ديباجة ولطف أسلوب. ومثل السيد حيدر في هذا مثل صانع
 الدمية الذي يروك فنه وتمجيك صناعته مع أنه بعيد كل البعد عن
 أن يقدم لك جمالاً قوامه اللحم والدم.

وللسيد حيدر موشحات نفيسة لا يعرف أحد عنها شيئاً، فيها
 غزل طريف ووصف بديع، أروي لكم طرفاً من غزل إحداها،

وقد اتخذ الحرم ومناسك الحج مسرحاً لغرامه وغزله في هذه
الموشحة :

أنشقتني يوم جمع عرفها
وعلى الخيف حمّتي رشفها
كحل الحسن بسحر طرفها
مارنت للصب إلا أقسما ما كذا ترنو طباء الأجرع
والغواني تدّعي السحر وما هو إلا تحت ذاك البرقع

كلما ورد خديها الخجل
قطفت ذيلك الورد المقفل
لا تسل عنها وعني لا تسل
وقمت فاستوقفتني مسقما وأفاضت فأفاضت أدمعي
عجبا راقبت فيها الحرما واستحطت صيد قلبي الموجد

كم قضت في حجها من منسك
ما أضاعت فيه الانسكي
فلقد عدت بقلب مشرك
في الهوى يعبد منها صنما فهو في اللاهين لا في الرّكّم

صلة يقرأ قل من حرّما زينة الله ولما يقلع

على أنه إذا كان ما نعرف من سيرة السيد حيدر يمنعنا أن نفترض
أنه كان ممن تأسّرهم الحدود البيض والعيون السود ، فانه ليس ثمة
ما يمنعنا أن نفترض أنه كان يحب الطبيعة ويتذوّق جمالها ويدرك
ما فيها من سحر وفتنة ويصفها وصف من يصبو لها ويتأثر بها . وما
أريد أن أضعه في مصاف ابن خفاجة الأندلسي ، ولكنني أريد أن
أرجح أن وصفه لها مستمد من إلهامها مباشرة . وأنا أروي لكم
ما يعجبني من وصفه الطبيعة في إحدى موشحاته لتروا أنتم الآخرون
رأيكم في الموضوع . قال :

أعرس الروض بنوار حلا

عندليب الأيك فيه هلهلا

رقص القطر فغنى ، وعلى

منبر الأغصان لما خطبا عقد البان وقال : اعتنق

في ربيع بالتهاني زهرا

فرش الأرض بهـ -- ارا بهـرا

ودنانير عليها نثرا
بيد الوسمي ليست ذهباً بل خدود الجنار المونق

كم شقيق قد جلا عن نظرة
من بياض مشرب في حمرة
ومن الريحان كم من وفرة
ررفت ما بين أنفاس الصبا فوق قد من قضيب مورد

وعلى خد من الورد بدا
صدغ آس بله طل الندى
في رياض غضة فيها غدا
صاحكاً نغر الأقاحي عجباً وبها النرجس ساهي الحدق (١)

(١) أثبت فيما يلي مثلاً أخرى من هذه الموشحة ، قال حميد :

يا خليلي وأيام الصبا حلمات فانفضا نستبق

زال غني يا نديمي الوصب
أقبل النور ولي فيه أرب

=

هذا ما عنّي لي أن أحدثكم به من غزل السيد حيدر ووصفه

أبرز الأتقاء في زي عجب =

ومن الوشي كساها قشبا حلل السندس والاستبرق

وشحّ الطل عروس الزهر

بسقيط اللؤلؤ المنحدر

ثم حياها نسيم السحر

وجلاها فوق كرسي الربي لمع برق من ثنايا الأبرق

ومنها:

في الرياحين يطيب المجلس

لبني اللهو وتحلو الأكؤس

نزه ترتاح فيها الأنفس

لمدام عتقوها حقبها وندبم ناشيء ذي قرطق

ذي دلال يتكفي غنجا

فاق أنفاس الخزامى أرجا

كلما شعثها تحت الدجا

= خلته أوقد منها لهبا كاد أن يحرق ثوب الفسق =

وأرجو أن أستأنف الحديث عن شعره قريباً إن شاء الله

الخميس ١١ / ١ / ١٩٤٤

أيمها المخجل ضوء القمر
حرك الشوق بحس الوتر
فالى ريقك ذاك الخصر
طرب الصب فزده طرباً
بغناً يصبي ذوات الأطوق



السيد حميد - - فيخرة ورثاؤه -

سيداتي وسادتي :

عرفنا في الحديث الماضي كيف يتغزل حميد وكيف يصف ،
على أقله ما رويت لكم من غزله ومن وصفه ، ونحاول الليلة أن نعرف
كيف يفخر هذا الشاعر وكيف يرثي . وأسرع فأقول لكم : إن
نخره قليل ، ولكن هذا الفخر القليل ينقسم قسمين ، يدل أحدهما ،
على شقاء الرجل ونكد عيشه وقلة رزقه وكثرة خصومه من جهة ،
وعلى صلابة عوده وقوة جلده وقدرته على الكفاح والصراع من
جهة أخرى . ومن طريف نخره في هذا الباب قوله :

ألفت قراع الخطب مذ أنا يافع

فكيف ترزع اليوم قلبي الروائع

لقد عركتني الليالي ابن حرة

على العزك منه لا تلين الأخادع (١)

(١) الأخادع : جمع أخدع ، وهو شعبة من الوريد .

فسيان عندي سلم دهري وحربه وما هو معط لي وما هو مانع
لعمري ليصنع كل ماشاء لانه حقير بعيني كل ما هو صانع
سأشدد لا عجزاً ولكن تحمساً لي الله أي الحادثات أضرار
وأي الأعادي أتقي وهم الحصى عديداً وكل مجهر ومصانع
حيث طرحت اللحظ أبصرت منهم

أنا حنق شخصي لأحشاه مساعد
إذا ما رأيته أزور عني طرفه كأني ربح بين جنبه شارع

* * *

ويدل القسم الآخر على سعة مطامع الرجل وبعد مطامحه وعلو
همته ومضاء عزيمته . وحيدر - هذا الذي لم يخلق إلا ليكون حمامة
تردد ألقائها على قن ، يستحيل في هذا القسم من نغره سبباً ضارياً
يزار ويزجر حتى يخيل لك أنه سيأكل الدنيا ويشربها : -

إن لم أقف حيث جيش الموت يزدحم

فلا مشيت بي في طرق العلا قدم
لا بد أن أتداوى بالقنا فلقد صبرت حتى فؤادي كله ألم
عندي من العزم سر لا أبوح به حتى تبوح به الهندية الخدم
لا أرضعت لي العلا ابناً صفودرتها

إن هكذا ظل رمي وهو منقطع

ألية بظبي قومي التي حمدت قدماً مواقعها الهيجاء لا القمم
لأحلبن ندي الحرب وهي قنأ لبانها من صدور الشوس وهو دم
يبد أنه قد لا يكون ملوماً في هذا ، لأنه علوي ، والعلوي
لا يعدم ومضة من الأمل الوثاب وشعلة من العزيمة الصادقة ،
خصوصاً إذا أرهف الأدب حسه وصقل شعوره وأيقظ وجدانه ..
ولكن ليست هذه هي الحيلة التي يجلي فيها حيدر فلا يشق له غبار ،
ولما هي الرثاء الذي ترك فيه تسعاً وخمسين قصيدة وست عشرة
مقطوعة . وليست المسألة مسألة كثرة ، إنما هي مسألة إحسان وإجادة
قبل كل شيء . فلا نزاع في أن ثلاثة أرباع هذا الرثاء على الأقل جيد
كل الجودة نفيس كل النفاسة . وتسألوني عن الأسباب التي مكنت
لحيدر أن يبلغ هذا الشأو البعيد في الرثاء . فأقول ليم : إنها صنفان
نفسية وثقافية .

فأما النفسية فبعضها ظاهر ، وهو ما نكب به من اليتيم في الصغر
ومني به من الفقر والمرض في الكبر ، وبعضها باطن ، وهو ما أذهب
إليه من أن حيدراً من شعراء العواطف الذين خلقوا ليعبروا عما
في الحياة من ألم ويترجموا عما فيها من حزن وكآبة . وسأعود
إلى معالجة هذه المسألة عند الكلام عن رثائه لشهداء الطف . وأما
الثقافية ، فهي صلتها القوية بالشريف الرضي وصلته القوية كذلك

بتلميذه مهيّار ، واطلاعه ليس فقط على مرآئيهما الكثيرة الحافلة بأحد
المشاعر والعواطف وأصدق الأحاسيس والانفعالات ، بل على كل
ما خلفها من منظوم الكلام . فما أظن أن للرضي أو لتلميذه مهيّار بيتاً
واحداً لم يقرأه حيدر ولم يفهمه فهماً كلياً . وقد كان الرضي ومهيّار
علاوة على كونهما من أكبر شعراء الرثاء متشائمين كل التشاؤم ناقلين
على الحياة إلى أبعد حدود النعمة برمين بالناس إلى أبعد حدود البرم ،
فاذا أضفنا هذه الأسباب الثقافية إلى العوامل النفسية التي تقدمت لها
الإشارة تبين لنا بوضوح كيف تهيأ لحيدر أن يكون فارس حلبة
الرثاء في القرن التاسع عشر غير مدافع .

ولكي تفهم رثاء حيدر فهماً صحيحاً يجب أن نقسمه قسمين
أحدهما رثاؤه لأهل البيت ، وثانيهما رثاؤه من استحق الرثاء من
معاصريه . ويتألف رثاؤه لأهل البيت من ثلاث وعشرين قصيدة
وأربع مقطوعات كلها أو معظمها على الأقل من الشعر الجيد
المختار .

ولكن ماذا تعني هذه الكثرة في رثاء أهل البيت ؟ بل ماذا
تعني هذه الكثرة في رثاء شهداء الطف ؟ إنها إن عنت شيئاً فأنما
تعني ما أشرت إليه من أن حيدرأ شاعر كئيب في فطرته عجن
طينته بماء الحزن ، وجبلت طبيعته على الشعور بالآلم ، فنشأ بآلي

الخيال عابس الشعور لا ينظر الى الحياة إلا من ناحيتها السوداء
ولا يجد فيها شيئاً غير الحسرة والاسف، ولو قدر له أن يقرأ
«روسو» Rousseau و«گوت» Goethe و«شاتوبريان»
Chateaubriand لترك لنا آثاراً لا تقل عن آلام «فرتر»
وتأملات «لامارتين» وليالي «موسيه» حدة شعور وقوة عاطفة
ومرارة ألم. ولكنه أدار نظره فيما حوله من بيئته الأدبية والمادية
فوجد هذه المأساة الخالدة مأساة كربلاء فنجحها عقله وقلبه ووهبها
خياله وشعوره وجبس عليها لسانه وقلمه. يرفه بها عن نفسه ويخفف
من برحائه وينفس عن خاطره. وكم كان مخلصاً عند ما قال:

أنا عي قتلې الطف لا زلت ناعيا

تهيج على طول الليالي البواكيا

أعد ذكرهم في كربلاء، إن ذكرهم

طوى جزعاً طي السجل فؤاديا

ودع مقتلې تحمر بعد ايضاضها

بعد رزايا تترك الدمع داميا

وتعطي الدموع المستهلات حقهها

محاجر تبكي بالفوادي غواديا

أجل .. إنه ليبيكي شهداء الطف لأنه في حاجة إلى البكاء ،
وينشج لما أصابهم لأنه في حاجة إلى النشيج ، ويتفجع لما حل بهم
لأنه لولا ذلك لبحث عن شيء آخر في هذه الحياة يستمطر دموعه
ويصعد أنفاسه الحارة ... ولكن ، أليس في مرثئي حيدر لشهداء
الطف شيء آخر سوى البكاء ؟ نعم ، إن فيها لوصفاً لا يفوقه وصف
للإباء ، وتصويراً لا يفوقه تصوير للشجاعة والنجدة ، والبسالة
والجرأة ، وإلا فأني وصف للإباء يفوق قوله في أبي الشهداء :
كريم أبي شمم الدنية أنه فاشمه شوك الوشيح المسدد
وقال قني يا نفس وقفة وارد

حياض الردى لا وقفة المتردد

رأى أن ظهر الذل أخشن مركباً

من الموت حيث الموت منه بمرصد

فأترأف يسمى على جرة الوغى

رجل ولا يعطي المقادة من يد

وقوله فيه :

طمعت أن تسومه القوم ضيماً وأبى الله والحسام الصنيع
كيف يلوي على الدنية جيداً لسوى الله ما لواه الخضوع

وأي تصوير للشجاعة يفوق قوله في أبي الشهداء أيضاً؟
وألحقها شعواء تشق بها العدا

ولود المنايا ترضع الحثف ممقرا (١)

وظاهر فيها بين درعين نثرة

وصبر، ودرع الصبر أقواهما عرى

سطا وهو أحجى من يصون كريمة

وأشجع من يقتاد للحرب عسكريا

فرافده في حومة الضرب مرهف

على قلة الأنصار فيه تكثر

تمترحت مات بالهام حده وقائمه في كفه ما تعثر

كان أخاه السيف أعطي صبره

فلم يبرح الهيجاء حتى تكسرا

وقوله في أنصاره من نفس القصيدة:

كأمة تعدد الحلي منها إذا انبرت

عن الطعن من كان الصريع المظفرا

ومن يحترم حيث الرماح تظافرت

فذلك تدعوه الكريم المظفرا

(١) ممقرا : مرآة

وقوله فيهم من أخرى :

كل وطأ على شوك القنا إثر مشاء على الجمر اختيلاً
وقفوا ولموت في قارعة لو بها أرسى هيلان لزالا
أرخصوها للعوالي مهجاً قد شراها منهم الله فغالى
سيداتى وسادتى :

إن في رثاء حيدر لشهداء الطف ما يفتت الأكباد أسي ولوعة
ويذيب القلوب أسفاً وحسرة ، ولكن فيه كذلك ما يملأ الرءوس
أنفة ، والصدور حمية وحماسة ، والنفوس جرأة وإقداماً

الخميس ١٨ / ١ / ١٩٤٥

السيد هيدر - رثاؤه أيضا -

سيداتي وسادتي :

حدثكم في الأسبوع الماضي عن نحر حيدر ورثائه لآل البيت، وأودّ أن أحدثكم الليلة عن بقية رثائه. وهذا يتألف من ست وثلاثين قصيدة وإحدى عشر مقطوعة، وهو شيء غير قليل كما ترون. ومن المدهش حقاً أن يجيد حيدر في أكثر هذه المراثي التي تعد بالعشرات علاوة على إجادته في رثائه الجَمَّ لأهل البيت إجابة بالغة، وأن يحسن إحساناً غير قليل حتى في هذه المراثي التي يقولها تلبية لرجاء وإجابة لالتماس. ومن الأمثلة على إجادته في هذا الباب قصيدتان، ينص الديوان على أنه رثى بهما بعض الناس على لسان أحد الأشراف مطلع إحداها :

أحبابنا هل عائد بكم الدهر طواكم وعندي من شمائلكم نشر
ومطلع الثانية :

أما والهوى العذري مابت ناسيا حبيباً بعني للكرى كان ثانيا

ففي هاتين القصيدتين من رقة الشعور وحرارة العاطفة ما يخل
 لك معه أن الشاعر يبكي حبيباً أسر له وتيم قلبه ونفذ إلى أعماق
 نفسه مع أن الحقيقة هي أنه يبكي إنساناً لم يقع بصره عليه في يوم من
 الأيام . وقد لا يخلو من فائدة أن أقول لكم إنه يرثي بهاتين
 القصيدتين فتاة خطبها شريف عظيم المنزلة ، خيل بينها وبينه لسبب
 من الأسباب . وتوفيت الفتاة بعد هذه الخطبة الفاشلة بقليل ، ومن
 يدري لعلها ماتت أسفاً على ما فاتها من شرف الاقتران بذلك الرجل
 النبيل ، وحزن الخاطب الجليل على وفاة تلك الفتاة حزناً شديداً
 أفضى به إلى حيدر وسأله أن يعبر عنه بهاتين المرثيتين الرقيقتين
 اللتين أقتطف لكم من إحداها قوله :

وريان من ماء الصبا غصن قدہ برغمي يمسى في ترى اللحد ذاويا
 جُمعتُ به حلوى الشمائل بعدما ولعت به غصن الشيبية ناشية
 ومن الأخرى قوله :

ولما وقفنا للفراق وقربت حمولة بين لا يكل لها ظهر
 ربطت بكفي الضلوع على حشا تكاد خفوقاً أن يطير بها الدُّعُر
 والشئ الوحيد الذي أفهمه من إجادة حيدر في أمثال هذه
 المراثي هو استعداد الفطري القوي للتعبير عن الحزن أيّاً كان نوعه
 وأيّاً كان مصدره وهذا ما أفسر به إجادته في هذا المقدار الضخم

من الرثاء ، ولست أنفي أن في رثاء حيدر مآتم صاخبة تقيمها السماء
 وحفلات تشيع مهيبة يشترك فيها الملائكة ودموعاً تقور فوران
 الطوفان فتغرق الأمم ، وأن هذه المبالغات لا تمت بصلة إلى
 ما يسمى شعوراً أو عاطفة ، ولكن يجب أن نتذكر أن التقاليد
 الأدبية السائدة في عصر المترجم كانت ترضى هذا وتقره بل
 تستجيده وتستحسنه ، وأن هذا موجود في رثاء شوقي والزهراوي
 رغم تجددهما ورغم اطلاعهما على ما لم يطلع عليه حيدر من ألوان العلم
 والثقافة ، على أننا إذا استحسننا رثاء حيدر فأنما نستحسن له تلك
 الصفحات الممتازة التي تمثل أخلاق من رثى من ذوي العلم والفضل
 والأدب والدين ومواهبهم ومراكزهم الأدبية والدينية والاجتماعية
 أصداق تمثيل وتصور علاقته بهم أحسن تصوير . اسمعوا قوله في
 رثاء الامام الشيخ مرتضى الأنصاري ، وهو ممن انتهت إليهم زعامة
 الإمامية في مختلف أقطار الأرض وكان مضرب المثل في التقوى
 والزهد والصلاح والورع :

يا راحلاً بالعلم يند	قله عن الدنيا جميعه
وموسداً في تربة	بات الصلاح بها ضجيجه
كنت النريمة للهدى	واليوم بعدك لا ذريه
إن الورى في فترة	عمياء ليس لها طليعه

ترتاد مثلك سابقاً بين الحسيرة والضايعة
ما كان أحوجها لطبيبك أيها الراقي السميع
فأذهب فلم تصلح لك هذه الدنيا الخدوعه
فلها دخلت وأنت مود السجية والطبيعة
وصحبتهم بجوارح عصمت خالقها مطيعه
وخرجت منها طاهر الـ أبراد مشكور الصنيعه
فلتبك مفقداً للورى يا نيراً فقدت طلوعه
ولتستر الهلاك خلاصتها ولا تشكو القطيعه
قد فلما العين البصير رة منك والأذن السميعه
كانت ترى بك من إمامك غرّ أوصاف بديعه
قد راض نفسك زهده فقدت بقرصيه قنوعه
وبلبس طمريه اكتفت فاستشعرت بهما خشوعه
وصنعت إذ كنت الأمية ن على الحقوق بها صنيعه
ورأيت فيها رأيه لما لديك غدت وديعه
فلذا بها ساويت عالمة النفوس مع الوضعيه
والآن قد ضاقت لرزئك في الورى الارض الوسيعة
عادت كيوم وفاته شكلاء ذات حشى صديعه
هذي الفجيعة جددت أحزانها تلك الفجيعة

وقوله في رثاء العلامة السيد صالح ثاني أنجال السيد مهدي
 القزويني وأخيه السيد جعفر الذي سبقه إلى لقاء الله بأعوام قليلة :
 أفعى الأسى طرقت وغاب الراقي فأنا اللديغ وأدمعي درياقي
 باتت تساور وهي غير ضئيلة حتى رشحن بسمها آماقي
 لا راق نفسي العيش بعدك ليلة ضربت عليّ بأسدف الأرواق
 أتكلمتها - يا ثكلتك - قبلها - غرراً أعز علي من أهدائي
 فأعدت لي في فقد أطيب معرق في المجد مفقد طيب الأعراف
 ذهباً بأيام خطرت مع الهوى منها بمعلمة البرود رفاق
 زمناً لبست حيرها ونضوتها عن جدة - وأبيك - لا إخلق
 فلا تدين اليوم (صالح) عهداً ولا بكين تقاس الأعلق
 ولا حلين من الشؤون حشاشتي دمعاً كمندفق الحيا المهراف

وقوله في رثاء عمه وأستاذه السيد مهدي السيد داوود :

أظبا الردي انصاتي وهاك وريدي

ذهب الزمان بعدي وعديدي

تسبت سهام النائبات بمقتي فلحفظ ماذا أتقي عن جيدي؟

ماذا الذي يا دهر توعدي به؟ أو بعد عندك موضع لمزيد؟

طرقتي الدنيا بأي ملة ذهبت علي بطارفي وتليدي

الآن أصبح للنوائب جانبي غرضاً وشمل قواي للتبديد
طلعت عليّ الحادثات ثنية لا يهتدى لرتاجها المسدود
والي قد صعدت ذرى من شاهق

لا ترتقي هضباته بصعود
فنزعت من كفي قائم أبيض أعدته للقا الخطوب السود
قد ملت حول^(١) الصبر حين فقدته

فاذا المصاب بصبري المفقود
عجبا أمنت الدهر وهو مخاتلي ورقدتُ والأيام غير رقود
وأنا القداء لمن نشأت بظله والدهر يرمقني بعين حسود
لم أدر ما لفتح الخطوب بحرهاء وهو اجرُ الأيام ذات وقود
ما زلت وهو عليّ أخنى من أبي

بالذَّ عيش في حمّاد رغيـد
حتى زماني في صبيحة نعيمه أرسى بداهية عليّ كؤود
ففقده فقد النواظر ضوؤها وعجبت عجة مثقل مجهود
أليس في المثال الأول صورة إمام ألقى الدنيا إليه قيادها وممكنه
من نفسها فصدف عنها وزهدبها وقصر همه على ما يرضي ربه ويصلح
من أمور آخرته؟! وفي المثال الثاني صورة صديق حميم يندب

(١) هكذا في الديوان وربما كان الصحيح (نحو) .

صديقين محضهما وده وأصفاهما حبه وقد جفمه بهما القدر خلال
سنوات؟ وفي المثال الثالث صورة ولدٍ بارٍ يفطر قلبه الأسي على
قبر أبيه، وتلميذٍ وفي يذرف دموعه حزناً لفقد أستاذه!!.. هذا
ما يحملنا على الإعجاب بحيدر ويحدو بنا إلى حشره في طليعة شعراء
اللغة العربية من ناحية الرثاء، فعسى أن تنصف هذا الشاعر العظيم
الذي نسيناه نسياناً تاماً وأهملناه إهمالاً كاملاً، وعسى أن نطبع
ديوانه طبعة تليق بمقامه فانه مطبوع طبعة سقيمة إلى الغاية وقد
تعدت نسخها مع ذلك واختفت من السوق إختفاء تاماً، أما إذا
تعذر هذا في الوقت الحاضر فلا أقل من أن نعيد طبع طائفة من
مختاراته في مجموع صغير يسهل طبعه ويخف شراؤه

الخميس ٢٥ / ١ / ١٩٤٥



أبو تمام الصفي

— أو —

الشيخ صالح التميمي

« حياته وصفاته »

حديثنا الليلة - سيداتي وسادتي - عن أديب كبير وشاعر فحل خبر الحياة وتقلب في أوساط مختلفة وعاشر العلماء والأدباء والشعراء وجالس كبار الولاة والأثرياء ، وصحب البدو والحضر فكان موضع إعجاب هؤلاء جميعاً ، وكان موضع عطفهم وإكرامهم جميعاً ، على أن ذلك كله لم يكن ليشفع له عندنا ، فقد نسيناه في جملة من نسينا وأهملناه في جملة من أهملنا فأنسى أدبه من أذهاننا وذكره من ألسنتنا وجهله شيوخنا وشباننا جهلاً يكاد يكون تاماً . هذا الأديب الكبير والشاعر الفحل الذي كان بالأوس علماء من أعلام الحركة الأدبية في هذه الديار وأصبح اليوم نسياً منسياً - هو الشيخ صالح بن الشيخ درويش بن الشيخ زيني التميمي ، ويسرني كثيراً أن أتحدث إليكم عنه في هذا المساء .

ولد صاحبنا - رحمه الله - في الكاظمية ، وتاريخ ولادته مجهول مع
الأسف ، وفي هذه المدينة نشأ وترعرع . وكفله أبوه وأتاح له أن
يدرس على الطريقة القديمة فما لبثت سمات الذكاء والنجابة أن ظهرت
فيه صادقة قوية ، ولكنه لم يبلغ سن المراهقة حتى استأثرت رحمة الله
بأبيه ، فلم ينهه ذلك عن المضي في التحصيل ، بل إنه انتقل من
الكاظمية إلى النجف حيث الفائدة أعم والدرس أتم . أما كيف سافر
إلى النجف ومن أعانته على هذا السفر وزوده بالمال اللازم له ، فهذه
أمور نجعلها جهلاً تاماً . إلا أن هناك شيئاً ينبغي أن لا يغرب عن
أذهاننا وهو أن المترجم شديد الإعجاب بأبي تمام ، شديد الإعجاب
له ، وسأعود لدرس صلته به في مكان آخر من هذا الحديث . أفصح
أن نفترض أنه قرأ ديوان أبي تمام في الكاظمية وهو غلام ووقف
على ترجمته وقوفاً تاماً وعرفه معرفة جيدة وتأثر به تأثراً كلياً فأراد
أن يجازف كما جازف وأن يغامر كما غامر ، وأن يخرج من الكاظمية
إلى النجف وهو في سن المراهقة طلباً للعلم كما خرج أبو تمام من
دمشق إلى مصر وهو ابن سبع عشرة سنة طلباً للمجد ، وأن يحترف
بعض الأعمال الصغيرة التي تتيسر له على أن يستعين بما يفيد منها من
مال على طلب العلم ، كما كان أبو تمام يسقي الماء في جامع عمرو
بالقساط سعيّاً وراء ما ينشد من المجد ؟

يُخيل إليّ أنه ليس من المجازفة في شيء أن نفترض هذا القرض
الذي يميننا على فهم هذه المرحلة الغامضة من حياة المترجم . على كل
حال ألتى صاحبنا عصا الترحال في النجف ، وأقبل على طلب العلم
ودراسة الأدب بنشاط وحماسة ، فبرع في علوم العربية براءة فائقة ،
وحذق صناعة قرض الشعر فكان من فحولها للمقدمين . ولما غزر
فضله واشتد ساعده صار يفسد إلى مضارب خزاعة في أواسط
الفرات ، وكان زعماء هذه القبيلة إذذاك يفهمون الأدب ويتذوقونه
فكانوا لذلك يكرمون وفادة المترجم ، ويجلونه ويجزلون صلته ، وكان
يختلف من حين لآخر إلى بغداد ويغشى أنديتها التي تروج فيها سوق
الأدب ، فيلقى فيها ما يستحق أو بعض ما يستحق من عطف وتشجيع ،
فعرف في بعض أسفاره هذه داود باشا ، والي بغداد المشهور ، قبل أن
يكون والياً ونشأت بين الرجلين صلة ودية متينة ، فلما تولى داود باشا
مقاليد الحكم في بغداد عينه كاتباً في ديوانه ، وينبغي أن نلاحظ أنه لم يعينه
ليخلق منه رجلاً من رجال السجلات والاضبارات ، وإنما عينه
ليستر خلته ويوفر له رزقه ويعصمه من التكسب بأدبه ، أو قل إنه
عينه ليتخذ منه شاعراً خاصاً لدولته ومؤرخاً خاصاً لآيامه . فلما
انتهت أيام داود باشا وخلفه علي رضا باشا في ولاية بغداد عرف
المترجم فضله وقدره حق قدره وأبقاه في منصبه ، وآية ذلك أنه

مدحه بقصائد كثيرة ، بعضها موجود في ديوانه كرائيته التي وصف
بها قومه ثورة قامت في أرييل ، والتي سأروي لكم مثلاً منها في
الحديث القادم ، وبعضها غير موجود في ديوانه ، كلاميته التي وصف
بها استيلاءه على الحمرة ، والتي مطلعها :

دع التفاصيل واسألني عن الجمل هذا عليّ ، وهذي وقعة الجمل
ومما هو جدير بالذكر أن المترجم لم يتنكر لداود باشا ، ولم ينل
منه تقرّباً إلى خانقه كما فعل غيره من الشعراء ، بل إنه ثبت على حبه
له وإعجابه به ، فقد أطراه وعدّه من عطاء الرجال ، وشكر عليّ
رضا باشا لرفقه به وصفحه عنه في قصيدة أروي لكم منها هذه
الآيات :

ظفرت بداود الوزير وللردى قوارع خطب لا يفك اصطلامها
ولو ظفرت فيه تزار ويمرب بيوم هياج والذمام ذمامها
نخاطبها مستعظفاً عن حياته لعاجله قبل الخطاب حمامها
على أنه ما مدّ كف مسام وترتكب الأمر العظيم عظامها
وقد أقام التيمي على ولائه لعلي رضا باشا حتى بعد مغادرته
بفداد إلى الشام واليا عليها . وزاده تمسكاً باخلاصه له أن خلقه
محمد نجيب باشا أبعد وأساء معاملته ، فكتب إليه يمدحه ويتشوقه
ويعتني عودة أيامه :

أيام غيرك قد أكدى بها أملي عسى بأيامك الأقدار تسمح لي
بينني وبين نذاك الغمر قد حجزت قواطع اليد من سهل ومن جبل
من لي بتقيل كف صوب عارضها

يزري بواكف صوب العارض الهطل
لم يبق بعدك في الزوراء ذو كرم
يرجى، ولا لبني الآداب من أمل

ومنها:

وكنت بالشعر أدنى كل شاردة والشعر لا ينبغي بعد الوزير علي
فارقت فيه سعود المشتري ورمت

ني نائبات نحوس في لظى زحل
وقد رأيت وجوهاً حين رؤيتها تكاد تصغر عندي رؤية الأجل
وكانت لصاحبنا أيضاً صلة بأمرء الخويزة المعروفين بالموالي،
فكان هؤلاء يجلون قدره ويكبرون أدبه وفضله.

وتوفي - رحمه الله - في الكاظمية في ١٦ شعبان سنة ١٢٦١
للهجرة ودفن بقرب روضة الجوادين عليهما السلام.

أما صفاته فأنها من أجمل وأفضل ما يتحلى به لإنسان، كان
- رحمه الله - خفيف الطبع عذب الروح حلو المعاشرة حاضر النكتة

غزير الحفظ واسمع الرواية قيل له : كم تحفظ من بدائع الشعر
وروائعه ؟ : فأجاب : « لولا أن شيخي أبا تمام جمع محاسن الجاهليين
والاسلاميين في حماسته المشهورة لجمعت أنا لكم من حفطي هذه
الحماسة » . وكانت يُجلّ أبا تمام كثيراً ويعجب به إعجاباً شديداً
ويعده إماماً له ، ومن الغريب أنه رثاه على بعد ما بينهما من الزمن
بقصيدة بليغة يقول فيها :

ياراكبا وجناء عيدين^(١) لم يترك الوخذ لها من سنام
إن جئت للحدباء قفلي بها وابلغ أبا تمام عني السلام
وقل له بشراك يا خير من سام القوافي الغر من نسل سام
فضلك أحياء كأن لم تبت بالخلد هاتيك العظام العظام
وهنا أحب أن أستطرد فأقول : إنه قد بلغني أن القبر الذي بنته
بلدية الموصل لأبي تمام في أثناء زيارتي لها سنة ١٩٢٢ ، وبناء على
وجائي المتواضع ، ونقلنا إليه رفاة أبي تمام في احتفال كبير قد بات
مهذواً بالاندثار ، فأرجو أن يبذل أدباء الحدباء كل ما في وسعهم
لصيانة هذا القبر لأنه من العار على أم الربيعين أن تسيء إلى رفاة
أبي تمام هذه الاساءة بعد أن أحسنت القيام عليه مدة تزيد على
أحد عشر قرناً . وأعود إلى الشيخ صالح فأقول : إنه كان صورة

(١) عيدية : نسبة إلى فحل شهر من فحول الابل .

صادقة من أبي تمام في حدة ذكائه وسرعة خاطره وسعة ثقافته
الأدبية ، ولذلك يحلوني أن أقدم له لقب (أبي تمام الصغير)
فمضى أن يقع منه ذلك موقع القبول والرضا . وقد أنسيت أن
أقول لكم : إن المترجم كثير العلم بالانساب كبير الامام بالتاريخ ،
ولا سيما تاريخ معاصريه ، وما أحدثكم - سيداتي وسادتي - بشيء
عن آثاره في هذه الليلة لأن الوقت لا يتسع لذلك ، ولكني أروي
لكم بعض نوادره . فمن ذلك أنه سافر إلى ناحية النيل في لواء
الحملة وطال مكثه فيها ، وعابسه بعض أصدقائه على ذلك فكتب
إليه معتذراً :

بالفت بالنيل فقـابلته	بهر عيسى وهو نحر البلاد
ما ذاك إلا سحر ماروته	في بابل ضيع مني السداد
فجئتكم معتذراً نادماً	وطالما والله يكبو الجواد
أسود وجهي حين حييته	والنيل لا ينتج إلا السواد

وأهدي إلى علي رضا باشا فيل ، فأسرع رجال السراي إلى
مشاهدته والتفرج عليه ، إلا عثمان سيفي بك كاتم سر الوالي
فانه بقي ثابتاً في مكانه لم يترشح . فقال التميمي في ذلك :
قامت إلى الفيل الرجال تعجباً وسمي ذي النورين طود قاعد

فلقد تبين ، من ثباتك عندهم القيل عندك والبعوضة واحد

* * *

سيداتي وسادتي :

هـذا ما عنّي أن أحدثكم به عن التميمي في هذه الليلة ،

أما آثاره فأرجو أن أحدثكم عنها في حديثي القادم إن شاء الله

الخميس ١٩٤٥/٢/١



السَّيِّخُ صَالِحُ التَّمِيمِي

— آثاره —

سيداتني وساداتني :

للسَّيِّخِ صَالِحِ التَّمِيمِي آثار عدة ، وهي :

(١) « شرك العقول في غريب المنقول » : أرَّخ به الأربعين سنة

الأولى من القرن الثالث عشر للهجرة ، وعني فيه بحروب الوزير

داود وأعماله الأخرى عناية خاصة .

(٢) « وشاح الرود والجواهر والعقود في نظم الوزير داود » ،

ترجم فيه لشعراء داود باشا ، وجمع نكتهم ونواديرهم ومثلاً من
أشعارهم .

(٣) « الأخبار المستفادة من منادمة الشاه زاده » : وهو كتاب

لا نعرف منه سوى اسمه .

(٤) « الروضة » : وهي ديوان شعر صغير يتألف من ثمان وعشرين

قصيدة ، بنيت كل واحدة منها على حرف من حروف الهجاء

تبتدئ أبياتها به وتنتهي به كذلك ، حاكي به روضة صفي الدين

الحلي المسماة « درر النحور في مدائح الملك المنصور » وفدبه على
أمير الخويزة السيد عبد علي سنة ١٢٣٥ للهجرة . وقد فقدت هذه
الأسفار الأربعة مع شديد الأسف .

(٥) « ديوانه » : وهو بقية ضئيلة من شعره قد لا تمثل ربع
إنتاجه ، يرجع الفضل في جمعها وإنقاذها من الضياع لصديقه
المغفور له عبد الباقي العمري الذي قال لابنه كاظم (١) في مجلس
جمعه به : « ما فعل شعر أبيك ؟ » فأجابته : « عندي أقله وعند الناس
أكثره » فقال له ما مضمونه : « قم من فورك وابذل قصارى
طاقتك في سبيل جمعه وتدوينه ، فانه من الغبن الشديد للأدب وأهله
أن يضيع شعر كعشر أبيك » . وعمل الولد البار بهذه المشورة
الصالحة فجمع نحواً من ألفين وثلاثمائة بيت من شعر أبيه ، قدمها
لعبد الباقي بعد الفراغ من جمعها وإثباتها في مكان واحد ، فكتب
عليها هذين البيتين :

نعم ، رب هذا الشعر قد كان صاحبي

يلعنني في فقهه والأئمة

(١) ترك الشيخ صالح ولدين ، يدعى أحدهما « كاظماً » والآخر « سعيداً »
كلاهما شاعر ، ولكنني لم أقف لهما على آثار مهمة .

وقفت على ديوانه بـمـد بـمـد

(وقوف شحيح ضاع في الترب خائمه)

ولا يزال هذا الديوان مخطوطاً لا يتيسر الوقوف عليه إلا بشق النفس . فعسى أن يقدر له النشر في وقت قريب لينتفع الناس به من جهة ، وليفلت هو من خطر الضياع من جهة أخرى . ومع أن هذا الديوان صغير كما قلت لكم فإنه يمثل شاعرية صاحبه تمثيلاً لا بأس به لاشتماله على نماذج حسنة من مديحه وراثته ووصفه وهجائه أيضاً . كما أنه يمثل حياة العراق في القرن الثالث عشر للهجرة تمثيلاً صادقاً قوياً ، لاشتماله على شيء غير قليل من وقائع الحرب والسياسة والاجتماع .

فها هي أربيل تنور على الحكومة العثمانية وتمتنع عن أداء الضريبة وتقطع علاقتها ببغداد ، وتولي أمرها عصابة من الأشقياء ، تعصم بقلعة قوية كل القوة منيعة كل المنعة ، وها هو علي رضا باشا يرسل إلى أربيل حملة قوية تقمع فتنها وتقطع دابر العصاة فيها ، وتستولي على قلعتهم الحصينة ، وتعيد المياه إلى مجاريها في تلك المنطقة . وها هو محمد الكهية حاكم الحلة ، يشور على داود باشا ، ويعلمن الاستقلال في مقاطعته ، وها هو داود باشا يرسل إليه ثلة من جيشه فلا يجد

الكهية مناصباً من القرار والالتجاء إلى بني لام في الجنوب، وها هو
 سليمان آغا نائب دواد باشا في الحلة يُخرج الشيخ موسى نجل الامام
 الشيخ جعفر كاشف الغطاء من حضرته، لأنه يعتبره خطراً على
 أمنها وسلامتها، وها هما محمد بك وعبد العزيز بك الشاويان يُقتلان
 في قن ومنازعات عشائرية دامية، وها هي الحكومة تحلّ زعيم شمر
 الجرباء محلها وتسكنه دارها، وها هي سدود دجلة تتداعى وتنهار،
 بسبب إهمال الحكام، وانهما كهم في إرضاء لذاتهم وشهواتهم، وتقانيهم
 في سبيل أغراضهم الذاتية ومنافعهم الخاصة، فتموت أو توشك أن
 تموت أراضي بادرباء والسندية وأبي غريب، وتقل فيها المياه،
 ويتفرق عنها السكان، ثم ها هي الحكومة تصحو من غفلتها،
 وتستيقظ من رقدتها، فتغني بأمر الري، وتقيم السدود، وتحفر
 الأنهار وتظهر الجداول، فتعود القنوات والأراضي الآف ذكرها
 إلى ما كانت عليه من رخاء وازدهار، ويعود إليها السكان بعد أن
 تفرقوا أيدي سبأ. وها هي البصرة يشق أهلها ويفسد مناخها،
 وتغزوها الأمراض فتفتك بأهلها فتكاً ذريعاً. وأخيراً هم الولاية
 يبنون القصور الشاهقة، وينفقون عليها الأموال الطائلة، ويخلمون
 عليها أجل الزخارف وأبداع الزينات. ولكم أن تطالبوني بما يؤيد

هذا من شعر الرجل ، اسمعوا قوله في قمع فتنة أرييل على يد علي
رضنا باشا :-

لا ترو عن فتح عمورية خبراً ففتح أرييل ما أبقى له أثراً
دع ما سمعت وحدث بالذي نظرت عيناك فالصدق مقرون بمن نظرا
وقوله واصفاً قلعة أرييل في نفس القصيدة :

صماء سامية الأعلام غاصبها قد كاد يبلغ حد الكفر ، أو كفر
غمامة لا يدانها الغمام علاً ولا مع البرق في أرجائها استترا
ما صافح الريح من أركانها حجراً إلا ويقدح من حافته شررا
كانها والرواسي الشم قائمة من حولها جائر أهدواله أسرى
ما في جوانبها ماء لذي ظلاً وليس في أرضها ما ينبت الشجرا
وقوله واصفاً لإخراج الشيخ موسى كاشف الغطاء من الحلة :

بمن تفخر الفيحاء والفخر دأبها قديماً وعنهما سار موسى بأهله
وغادرها من بعد عزٍ ومنعة تحاذر كيد السامري وعجله (١)

(١) بلغني أن داود باشا وقف على هذين البيتين وأنه عاتب التميمي على
نظمهما فأنكر هذا أنه قائل هذين البيتين ، وذكر أنه عقب على موقف
سليمان أغا من الشيخ موسى بقوله :

زهت بأبي داود حلة بابل فألبسها بالأمن بردة عدله
وكانت قديماً قبل موسى وقبله تحاذر كيد السامري وعجله
ويغلب على ظني أن الخبر صحيح وأن البيتين له .

وقوله مخاطباً دار محمد بك وعبد العزيز بك الشاويين وقد
سكنها فارس الجرباء :

بالله يادار المكارم ما الذي أضنى ربوعك يا شفاء الأتقى
عجباً لقوم يهرعون لمجلس ، أنسوا بربعك طيب ذاك المجلس ؟
قد قلت لما أن رأيت حبيجهم شتان مكتنا وبیت المقدس !
وقوله واصفاً عمران نهر النيل في لواء الحلة مع الإشارة إلى
خراب بعض قنوات بغداد الرئيسية :

دع نهر عيسى وحدثني عن النيل واجر الحديث باجمال وتفصيل
و (بادر بآء) دعها إن رونقها قيل يزخرفه الراوون عن قيل
ولا بسندية تعطي لهم سنداً فهل عن الفيل تغني أعظم الفيل ؟
صحائف درست آياتها وغدت بالحكم تقضي إلى شرح وتأويل
عرج على النيل لا تمر على نهر يفريك واصفه بالعرض والطول
نيل ولا مصر ، لكن في جوانبه نضارة لم تكن في مصر والنيل
جرى به الماء والأنهار تجذبه لفاية صغرت قدر المحاويل
إذا تلاطمت الأمواج كان لها صوت الحبيج بتكبير وتهليل
يصبو إلى دجلة العوراء عن سغب

يفري السباب من ميل إلى ميل
قد كان ألقى عليه الدهر كل حله فقابل الدهر بالشوس البهاليل

وقوله واصفاً لأحياء نهر عيسى وعودة العمران إليه :

نهر عليه ظباء الوحش عاكفة دهرًا وعادت ظباء الأنس تأويه
فلست أدري أهني ساكنيه به ، في سائر القوافي ، أم أهنيه ؟
يصبو لدجلة مذ كانت مصافية والمرء يصبو لمعشوق يصابيه
وطالما زارها وهنأ فعانقها على الهوى كيف ما يجري تجاريه
أكرم بنهر من الأنبار أوله وفي أبطح صحن الكرخ تاليه
وقوله واصفاً قصرًا بناه علي رضا باشا :

عج بي على قصر رفيم سما مواطن الفتح بأعلى المصاد (١)
قصر فمن كسرى وإيوانه وإن بني طاقاً رفيعاً وشاد
إن قيل سيف قد بنى ما بنى تالله ما غمدان إلا نجاد
تبدي لعينيك تصاويره كواكباً لاحت بسبع شداد
واعجب لفرسان به صورّت أصول في بيض وسمر صعاد
ينطق عن صامتها صنعه ومن غريب الوصف نطق الجماد
وانظر رياضاً ما سقاها الحيا وليس تراح لصوب العهد
والتمني بعد كل ذلك محب لوطنه حباً جما ، يستهويه الفراق
بصورة عامة وبغداد بصورة خاصة . سأله أمير الخويزة ذات يوم

(١) الفتح : جمع فتحاء ، وهي العقاب اللينة الجناح .

عن المراق وبغداد فتهد وأنشده قصيدة مطلعها :

تذكر من يهوى فهاجت بلابله إلى بابل ، أين العراق وبابله ؟
ومن شعره في هـ . ذا الباب قوله في صدر قصيدة يمدح بها
داود باشا :

صب تنقل من وادٍ إلى وادي وهام ما بين أغوار وأنجاد
والحسن لا يتناهى في الورى وأرى

لا يملأ العين إلا عين بغداد
على أننا نظم الأ دب ونظم التميمي ظلماً فاحشاً إذا لم نشر إلى
همزته الرنانة التي مدح بها الامام علياً عليه السلام ، تلك الهمزية
التي تقع في خمسين ومئة بيت كلها من نقائس الشعر وغرره . ولكي
تكونوا عنها فكرة واضحة أروي لكم منها الأبيات التالية :

قال التميمي :

غاية المدح في عـلاك ابتداء ليت شعري ما تصنع الشعراء
ما رى ما استطال إلا تناهى ومعاليك ما لهن انتهاء
فلك دائر إذا غاب جزء من نواحيه أشرفت أجزاء
سيداتى وسادتي

لقد منحت الشيخ صالحاً التميمي لقب « أبي تمام الصغير » ،
وأنا عالم حق العلم أي آخر من يمنح الألقاب في الأدب . ولكني

فعلت هذا ولا أريد الرجوع عنه . ويقتضي إقداي هذا أن لا أختم
هذا الحديث دون أن أقارن بين التيمي وأبي تمام ، وأن أوضح
ما بينهما من وجوه الاتفاق والاختلاف . وعندني أن التيمي ينهج
سبيل أبي تمام في فرض الحلية البديعية على شعره ، وينهج سبيله
كذلك في انتقاء الألفاظ الجزلة وصوغ العبارات الفخمة ، وينجح
نجاحه في هذا أحياناً قليلة ولا سيما في بعض مطالعه . ولكن
ما وصلنا من شعره دون عامة شعر أبي تمام رصانة أسلوب وصفاء
ديباجة . وهذا هو تفسير زعمي أنه « أبو تمام الصغير » م

الخميس ٨ / ٢ / ١٩٤٥



عبد الباقي أفندي العمري^(١)

— حياته و منزلته وبعض نوادره —

أما حديثنا الليلة - سيداتي وسادتي - فانه عن أديب كبير خدم السياسة بأدبه ، وخدمته السياسة في أدبه ، فعظم قدره واتسع جاهه ، وبعد صيته وحسنت حاله ، وغلب على شعره لون من الترف العقلي ، تمثل فيه خفة الروح وسلامة الذوق ، وطمأنينة البال ومرونة الفكر . هذا الأديب الموفق في أدبه ، الراضي عن أيامه المستبشر بحياته ، ذو الروح الخفيف والعقل المرن ، هو عبد الباقي أفندي العمري أحد أفراد الأسرة العمرية الشهيرة في الموصل طاب رآه .

ولد صاحبنا - رحمه الله - سنة ١٢٠٤ هـ في الموصل ، ونشأ في كنف والده الجليل سليمان أفندي نشأة صالحة ، وتلقى علومه على النمط القديم ، فما كاد يبلغ أشده حتى كان موضع إعجاب الجميع ، لما اتم به من ذكاء خارق وألمية نادرة وأدب جم . وقد رافقه التوفيق في مطلع رجولته ، فعين نائباً لوالي الموصل ولما يتجاوز

(١) عمري : نسبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب (رض) .

العشرين . وحدث أن شغرت ولاية الموصل في أيام داود باشا ، فقرّر
قرار كبار الحُدباء على أن يلتمسوا منه أن يرشح لولايتهم موظفاً
قديراً سبق لهم أن عرفوه وخبروه هو يحيى باشا ، وذلك لأن
الاستانة كانت تعين والي الموصل بانتهاء من والي بغداد ، وكان لابد
لهم من أن يختاروا رجلاً ذا كفاية ودراية من بينهم لأداء هذه
المهمة ، فوقع اختيارهم على المترجم ، ولم يخطئ ظنهم ، فقد استحسن
داود باشا مندوبهم كل الاستحسان ومنحه ما طلب ، وزاد على ذلك
أن خلع عليه وأكرمه إكراماً تاماً . ولما شق داود باشا عصا الطاعة ،
وغدر مماليكه بقاسم باشا ابن عم المترجم ، الذي كان قد نذبه الباب
العالي لقمع فتنة داود باشا والقبض عليه ، نذبت الاستانة لقمع هذه
الفتنة علي رضا باشا . ولدى مرور هذا بالموصل عرف صاحبنا
فاستحسنه كثيراً واستصحبه إلى مدينة السلام . وبعد أن قضى على
فتنة داود باشا وشتت شمل مماليكه وأرسله مخفوراً إلى الاستانة
وأعاد كل شيء إلى ما كان عليه ، عين المترجم نائباً لولاية بغداد ، وقد
احتفظ بهذا المنصب معظم أيام حياته . ومن مآثره الطيبة أن فتنة
أهلية مسلحة قامت في النجف في أيام الوالي نامق باشا فأرسله على
رأس حملة قوية إلى النجف وفوضه أن يفعل ما يشاء ، فقمع الفتنة
بحكمته وأعاد الأمن إلى نصابه دون أن يريق قطرة دم واحدة ،

وعين قائم مقام للنجف، نظراً لأهميتها السياسية والدينية فاقته. نذر
وعقب على هذا بيّتين أعرب فيهما عن عدم موافقة مناخ النجف
وأساليب حياتها لمزاجه.

وتوفي - رحمه الله - ببغداد سنة ١٢٧٨ هـ، ومما هو طريف حقاً
أنه أرّخ وفاته عندما أحسّ دنوّ أجله فقال :
بلسان يوحدُ الله أرّخ ذاق كأس المنون عبدُ الباقي

(سنة ١٢٧٨)

كان منصب المترجم عاملاً كبيراً في توطيد مركزه وتوسيع
نفوذه من الناحية الاجتماعية، وكان شعره ولاسيما الديني منه عاملاً
كبيراً كذلك في تعزيز مكانته وتجيده إلى القلوب وائفوس . ولذلك
كان شعره في الرسول وآل بيته الأطهار وكبار رجال الدين كالشيخ
عبدالقادر الكيلاني ومحبي الدين العربي - رضي الله عنهم أجمعين
يقابل في الأوساط العلمية الأدبية العراقية بمالا مزيد عليه من
التقدير والاعجاب ويقرّض بشيء غير قليل من المنظوم والمشور .
مثال ذلك أن تخميسه همزية البوصيري وقع في محافل العلم والأدب
وقعاً جميلاً إلى الغاية، وقرضه السيد جعفر كبير أنجال الامام السيد
مهدي القزويني ومحمد أمين أفندي واعظ الحضرة القادرية والسيد
حيدر الحلي والشيخ جابر الكاظمي وغيرهم ، وأن ديوانه الصغير

المعروف « بالباقيات الصالحات » الذي خص به أهل البيت « عليهم السلام » كان أعظم وقعاً وأجمل أثراً وأبعد صدىً في هذه المحافل على اختلافها . فقد قرّضه العلامة مفتي بغداد أبو الشناء الآلوسي ونجمله بهاء الدين والعلامة عبدالغني أفندي جميل والزهاوي الكبير محمد فيضي أفندي وعدد كبير من شعراء بغداد والموصل والنجف . وقل مثل ذلك عن رأيته في محي الدين العربي - رضوان الله عليه - وقد لا يخلو من فائدة أن أروي لكم شيئاً من هذه التقارير الكثيرة لتبينوا مكانة عبدالباقي بنظر معاصريه : اسمعوا هذه القصيدة التي يقرّض بها السيد صالح القزويني النجفي ديوان « الباقيات الصالحات » ، وأحب أن أقول لكم إن السيد صالح القزويني هذا غير السيد صالح ثاني أنجال الامام السيد مهدي القزويني الذي ورد ذكره مراراً عديدة في هذه الأحاديث ، كما أن أسرته غير الأسرة القزوينية التي ورد ذكرها غير مرة في هذه الأحاديث أيضاً ، على أن هذا بالطبع لا يحيط من شأنه ولا ينقص من قيمة قصيدته كثيراً ولا قليلاً ، قال :

يا موقراً سمع الزما	ن بما تضمنت الدفاتر
والمرتقي بكماله	شأوا وأرد الطرف حاسر
والجوهر الفرد الذي	عرضاً به غدت الجواهر
والمستطيل على الأعما	ظم بالملكارم والمفاخر

والمصقع الأسن الذي
 لله درك من بليـ
 يزهو بهـ — تاج الملو
 أبرزت أبكاراً بها
 لا تلتوي إلاّ عليه
 زينت أفق النظم مشـ
 قد طلت في مدح الهدا
 بشارك إنك في غد
 أو لم تكن بالباقيـا
 وهي العصا بيدك تلـ
 بيديهـ — انه تزهو المنابر
 يغ ناظم درراً وفاتر
 ك من الأكلسر والقياصر
 حسدت أوائلها الأواخر
 بك عما تسمّطه الخناصر
 بل الأفق بالشهب الزواهر
 ة يدأ فكل عنك قاصر
 منهم — توافيك البشائر
 ت الصالحات لهم مؤازر ؟ !
 وقف ما يخيل كل ساحر

واستمعوا هذه القطعة التي يقرض بها عبد الغني أفندي جميل ديوان
 « الباقيات الصالحات » أيضاً :

كلمات تعزى لعبد الباقي
 برزت للعيان مثل عروس
 سحرت أهل بابل حين زوّت
 ولأهل الغري لما تجلت
 يا هماماً فاق الألى بمديح
 ذاك مدح لآل طه ونعت
 هي عندي قلائد الأعناق
 تنهادى على معان دقاق
 وتسامت نغراً بقطر العراق
 تركوا مالدتهم من شقاق
 هو يدعى بالصالحات البواق
 فاتخذ ذخرأ ليوم التلاقي

سيداتى وسادتى :

معلوم أن العلماء والشعراء المتقدم ذكرهم لم يقرضوا في عبد الباقي
الشاعر المحيد خصب ، وإنما قرضوا معاون الوالى أيضاً . ولكن
أحمت هذه المكانة الأدبية السياسية الاجتماعية السامية عبد الباقي على
شيء من الفرور والكبرياء ؟!.. أبعثت فيه روح الخيلاء والزهو ؟!
كلا .. ثم كلا ..! فقد بقي دمث الخلق لين الجانب جم التواضع وفيأ كل
الوفاء لآخوانه الأدياء الذين لم يرزقوا مالا كماله ولا جاهاً كجاهه ،
كالشيخ جابر الكاظمي والسيد راضي القزويني والشيخ عباس النجفي
وغيرهم ، يجالسهم ويكاتبهم ويساجلهم بل ويقرضهم وينوّه بفضلهم
وأدبهم في منظومه ومشوره ، وتلك لعمر الحق مزية تبعث على
الاعجاب وتستوجب الثناء والتقدير .

سيداتى وسادتى :

ليس لدي من الوقت في هذه الليلة ما يمكنني من أن أحدثكم عن
ديوان عبد الباقي وما فيه من فوائد وفرائد فأكتفي بأن أروي لكم
بعض نواتره : فمن هذه النواتر أن الشيخ جابراً الكاظمي وصف له
أديباً اسمه « حبيب الله » وصفاً طيباً فعقب المترجم على هذا
الوصف بقوله :

أقول وعندى صبح من قول جابر

حديث به من وحشتي رحت في أنس

أيكمل إيماني إذا أفلح أكن أحب جيب الله أكثر من نفسي؟!

وهو بهذا يشير إلى حديث يروي عن الصحابي الجليل جابر

الأنصاري، مضمونه: أنه لن يكمل إيمان مؤمن حتى يحب

رسول الله أكثر من نفسه.

ومن هذه النوادر أن المشير علي رضا باشا صباد ذات يوم من

القرات سمكة وهو في طريقه إلى بغداد عائداً من المحمرة التي كان

قد أخضعها وألحقها بالعراق فعقب المترجم على صيد هذه

السمكة بقوله:

نفسى القداء لمن غزا بجيوشه أهل الشقاء فلم يذر دياراً

وغزا القرات فصاد من حيتانه نونا فأدرك لابن متى الثارا

وهو بهذا يشير إلى قصة النبي يونس المذكورة في القرآن.

ومن هذه النوادر أنه أطرى في يوم من الأيام الشيخ عباس

النجفي وهو في حجر فتوته لإطراء أخجله وحمله على شكره شكرآ

جزيلآ، فعقب على هذا بقوله:

تبسم عباس غداة مدحته

بالطف من ضحك الربى من بكا الودق

وقال : لقد طوقتني طوق مئة

فقلت له : « قد شب عمرو عن الطوق »

وما أظنكم بحاجة للتنبيه إلى التضمن الجميل الموجود في هذين
البيتين . رحم الله عبد الباقي فلقد كان حاضر البديهة جم الفكاكة
حلو النادرة مـ

الخميس ١٥ / ٢ / ١٩٤٥



عبد الباقي أفندي العمري

- آثاره -

سيداتي وسادتي :

كانت حياة عبد الباقي ومنزلته موضوع حديثنا السابق ، وتكون
آثاره موضوع حديثنا في هذه الليلة . وآثاره رحمه الله هي :
أولاً : « أهلة الأفكار في مغاني الابتكار » ، وهو كتاب أدب
لا نعرف منه إلا اسمه - أستغفر الله - بل إننا نعرف ديباجته ، لأنها
منشورة في ديوان المترجم على سبيل الاستطراد .
ثانياً : « زهرة الدهر في تراجم فضلاء العصر » ، وهو كتاب
أدب وترجمة كما يتبين من اسمه ، لم يطبع إلى الآن .
ثالثاً : ديوانه الموسوم « بالترياق الفاروقي في منشآت الفاروقي »
وهو ديوان ضخم يقع في (٤٥٦) صفحة . وفي الواقع أن هذا
الديوان يشتمل على شعر كثير لغير عبد الباقي ، منه هذه المطولات
والمقطعات التي خمسها أو شطرها عبد الباقي ، وهي كثيرة ، ومنه هذه
القصائد التي عارضها عبد الباقي ، ومنه قصائد ومقطوعات ذكرت

على سبيل الاستطراد استتماماً للفائدة ، إلا أن ما يخلص لعبد الباقي من هذا الديوان شيء غير قليل . وينقسم هذا الديوان أو ما يخلص لعبد الباقي منه إلى قسمين كبيرين ، أحدهما زماني والآخر ديني . ويحتوي القسم الأول على ألواح كثيرة لألوان مختلفة من الحياة بعضها شخصي ، وبعضها اجتماعي ، وبعضها سياسي ، وبعضها في وصف الطبيعة . وتدرج من الشخصي للاجتماعي إلى السياسي ، على أن نلم بوصف المترجم لحسن الطبيعة الملمة قصيرة ، ثم نخرج على شعره الديني فنقول كلمتنا فيه .

يحدثنا عبد الباقي في القسم الشخصي من شعره عن حياته حديثاً كله إخلاص وصراحة ، فهو يقول لنا في غير مخادعة ولا مخاتلة : إنه يشرب الخمر ، وإنه لا ينوي أن يتركها ، لأنها (- عنده - بكر في الشبية ، وعجوز مثله في وقت المشيب) . ويصف مجالسها وصف من حضرها واستمتع بها ، ولكم أن ترجعوا إلى موشحته التي مطلعها : -

لبس النوروز ثوباً معلماً حيك من غزل عيون الترجس
طرزته إبر الويل بما رق من صنع الجواري الكائنس
والى أبياته التي أولها :

رفعت فوقنا الكروم سماء من عريش يحكي الزبرجد زيا

لتروا كيف يصف عبد الباقي مجالس الشراب وصفاً صادقاً جميلاً .
ويقول لنا : إنه يسمع الغناء ، ويسمعه من غلام بديع الحسن رخم
الصوت ، لا يحجم عن أن يقول لنا : إنه يدعى (أحمد) ، ونحن
بدورنا لا نحجم كذلك عن أن نقول : إن (أحمد) هذا هو ، أحمد
ابن الخلفة الذي كان معروفاً في أيامه بجودة الغناء ووفرة الأدب .
وعندي أنه لو لم يكن لعبد الباقي في الغزل إلا قوله فيه :

تغنى فأغنى أحمد بغنائه عن الناي والقانون إذ ردد اللحن
ولم أر شاد لا وعينه مثله بحسن وحس يملأ العين والأذنا
وقوله فيه أيضاً :

بوني أغنّ يغنيني فيطربني ما روقت فيه أفكار من الغزل
فكلما كرر الانشاد قلت له : لا فضّ فوك بغير اللثم والقبل
لكفاه ذلك إحساناً وإبداعاً في هذا الباب من الشعر . فليست
أعرف في غزل القرن التاسع عشر كله أروع ولا أجمل ولا أصدق
من هذه الأبيات الأربعة .

أما في القسم الاجتماعي من شعره فعبد الباقي يسف أحياناً ،
فيحدثنا مرة عن إطلاق عذار أخيه ، وتارة عن إطلاق عذار
عبد الله نجل أبي الثناء الألوسي . ولكنه يحدّ في أحيان كثيرة ،
فيرسم لنا صوراً صادقة لكثير من الشؤون الاجتماعية السائدة في

عصره ، فمن ذلك أنه يصف لنا في أرجوزة مطولة مدّ خطوط
التغراف على عهد السلطان عبدالمجيد وما نجم عن ذلك من تقريب
المسافات وربط أجزاء المملكة بعضها ببعض . ويحدثنا في أبيات أن
الوالي والمشير محمد نجيب باشا أحب أن يكسب عطف النجفيين
فصنع لهم في الصحن الحيدري حوضاً أترعه بنوع من أنواع
المرطبات ، وفي أخرى أن ولده أحمد شكري بك هذا حذوه فزار
كربلاء سنة ١٢٦٤ هـ . في العاشر من محرم وشارك أهلها في أحزانهم
وآلامهم ، وأنشأ لهم في صحن الحسين عليه السلام حوضاً من
الكاشي البديع أترعه لهم بنوع من أنواع المرتبات كذلك ، وكتب
على جدار الحوض أبياتاً تعبر عن حزنه على الحسين وتفجعه لما
أصابه ، هي لعبد الباقي نفسه . ولعل خير ما أستطيع أن أرويه لكم
من شعر عبد الباقي في هذا الباب قوله في وصف خط التغراف :

ذو فقرات تسمع الصمّ الدعا	وكم بها من عبرة لمن وعى
نهاية الإيجاز في تقريره	وغاية الإعجاز في تميره
مسافة العام مع العامين	يقطعها كطرفه بالعين
في لحظة من مركز الخلافة	يسري فينتهي إلى الرصافة
وسيره في سائر الأقطار	الطف من طيف الخيال الساري
إن الذي أبدعه تخيلاً	(مستوجب ثنائي الجميلاً)

وقوله فيه :

لُحِطَ التآغِرافَ حُرُوفَ جَرٍ يَجِيءُ بِهَا مِنَ الْغُورِ الْبَعِيدِ
وَيَلْفِظُهَا بِغَيْرِ فَمٍ وَلَكِنْ بِالْأَسْنَةِ حَدَادٍ مِنْ حَدِيدٍ
وَإِذَا كَانَ عَبْدُ الْبَاقِي فِي الْقِسْمِ الْاجْتِمَاعِيِّ - أَوْ فِي مَا سَمِينَاهُ نَحْنُ
قِسْمًا اجْتِمَاعِيًّا - مِنْ شَعْرِهِ يَخْلُطُ الْجَدَّ بِالْهَزْلِ فَانْهَ يَجِدُ دَائِمًا فِي
الْقِسْمِ السِّيَاسِيِّ مِنْهُ : فَمَنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَحْدِثُنَا فِي قِطْعَةٍ مِنْ شَعْرِهِ عَنْ
التَّدَابِيرِ الصَّارِمَةِ الَّتِي اتَّخَذَهَا مُحَمَّدٌ نَجِيبٌ بَاشَا الْآفَافِ ذَكَرَهُ ضِدَّ
مَدِينَتِي كَرْبَلَاءَ وَالْهِنْدِيَّةِ عَامَ ١٢٦٠ هـ . وَمَا نَشَأُ عَنْ تِلْكَ التَّدَابِيرِ
مِنْ رِضْوَانِ الْأَهْلِينَ وَإِخْلَادِهِمْ إِلَى السَّكُونِ وَالطَّاعَةِ . وَيُرْوَى لَنَا فِي
قَصِيدَةٍ مَطْوَلَةٍ أَنَّ فِتْنَةً مَسْلُوحَةً قَامَتْ فِي شَهْرِ زَوَرٍ بِقَرَبِ الْمَوْصِلِ ،
وَأَنَّ مُحَمَّدَ نَجِيبٍ بَاشَا نَفْسَهُ أَخَذَ أَنْفَاسَ تِلْكَ الْفِتْنَةِ وَشَدَّتْ شَمْلَ
الْقَائِمِينَ بِهَا ، فَقَرَّوْا مِنْ وَجْهِهِ وَاعْتَصَمُوا بِالْجِبَالِ وَالْغَابَاتِ . وَيُخْبِرُنَا فِي
مَطْوَلَةٍ أُخْرَى أَنَّ إِمَارَةَ الْحَمْرَةِ الَّتِي أَلْفَاها الْمَرْحُومُ رِضَا شَاهُ بَهْلُوي
كَانَتْ تَابِعَةً لِلدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ ، وَأَنَّهَا تَمَرَّدَتْ عَلَى الدَّوْلَةِ فِي أَيَّامِ الْوَالِي
عَلِيِّ رِضَا بَاشَا ، فَخَزَّ هَذَا لَهَا جَيْشًا عَرْمَرَمًا تَتَقَدَّمُهُ الْعَسَاكِرُ النَّظَامِيَّةُ
وَيَشْتَرِكُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الْقَبَائِلِ ، وَضَرَبَهَا ضَرْبَةً قَاضِيَةً أَدَّتْ إِلَى هَزِيمَةٍ
أَمِيرِهَا الشَّيْخِ جَابِرٍ هَزِيمَةٍ مَنكَرَةٍ وَقَتْلَ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنْ رِجَالِهِ وَاسْتِغْلَاءِ
الْحَمْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ عَلَى مَقَادِيرٍ كَثِيرَةٍ جَدًّا مِنْ ذَخَائِرِهِ وَأَمْوَالِهِ ، وَانْتَهَتْ

بتسليم الشيخ جابر نفسه في الكويت، وتوطيد دعائم السلطنة العثمانية
في تلك الأصقاع. وعبد الباقي لا يقف من هذه الحوادث موقف
المتفرج الذي يكتفي بسرد الأخبار ورواية الوقائع، ولكنه يناقش
ويجادل وينقض ويبرم، وهو في هذا كله طبعاً لسان حال الحكومة
التي هو موظف فيها. وتساءلوني أن أنشدكم شيئاً من شعر
عبد الباقي السياسي، اسمعوا قوله في ملحمة الحمرة:

فتحنا بحمد الله حصن الحمرة فأضحت بتسخير الآله مدمرة
على ساقها قامت الكعب (١) قيامة

فزلت —هم أقدامهم متعثره
فلن تغن عنهم مانعات حصونهم من الله شيئاً في القضايا المقدرة
غدوا طعمة لل سيف إلا أفلهم قد اتخذوا من شط كارون مقبره
يعد —هم طوراً وبجزر مرة

كسرب غرائق (٢) عن الورد مصدره
ومن جث القتلى إذا شاء معبراً عليهم جميع الجيش مهد معبره
على حافتيه كم قتل مجندل وفي جانيه كم جباه معفره ١

(١) كعب: هي أكبر عشائر الشيخ جابر أمير الحمرة.

(٢) الغرائق: جمع غرنوق وهو طائر أبيض أو أسود من طيور الماء.

فكارون يحكي النهر وان وهذه الـ بخوارج والغازي الغضنفر حيدر
مدافنا كم اطلعت من بروجها عليهم شمساً بالعذاب مكوره
وكم مركب صعب الناء مراسه (١)

وشاهقة في الماء جاءت مسخره
تري الحور مقصوراتها في خيامنا كأقمار تم في الدجنة مسفره
ومن قاصرات الطرف في كل كلمه

بفضل إزار من غفاف مؤزره
وعادت عقيب العفو كل خريده إلى أهلها وهي الحصان المخدره
وجابر في حصن الكويت قد التجي

إلينا وقاد الصافنات المضمرة
وقد شملته من عليّ مراحم وخلمة نخر فيه كمل مفخره
وماذا يقال عن شعر عبد الباقي في وصف الطبيعة؟

الواقع أنه قليل جداً ولكنه نفيس كل النفاسة، وحسي أن
أروي لكم قوله في وصف دجلة وقد أشرق عليها القمر:

مذ رام ناظري إلى الـ كرخ عبوراً وأحب
مدّ سنابلها إلى بدر عليّ دجلة جسراً من ذهب

(١) مراسه : (بكسر الميم) شدته .

وقوله في المنظر نفسه :

كأن ضوءَ البدر في دجلة حين يشرق
والموج في أثنائه منه العباب يحقق
قراضة من ذهب طفا عليها الزيق

سيداتي وسادتي :

لم يبق لدي من الوقت ما يمكنني فيه أن أحدثكم عن شعر عبد الباقي
الديني فأرجي ذلك إلى الأسبوع القادم

الخميس ١ / ٣ / ١٩٢٥



عبد الباقي العمري

— آثاره أيضا —

سيداتي وسادتي :

حدثكم في الأسبوع الماضي عن ما أسميته « شعر عبد الباقي الزمعي » ، وأحاول الليلة أن أحدثكم عن شعره الديني . وهذا كثير إلى الغاية ، ونحن إذا استثنينا منه قصيدة في إقامة ناعورة تحت مقام النبي يونس عليه السلام وأخرى في مدح الشيخ محي الدين العربي كان الباقي كله في مدح النبي وآله الأطهار ورثائهم .

وقد لا يخلو من فائدة أن تنبه الأفكار إلى أن عبد الباقي جمع القسم الأكبر من هذه المدائح وتلك المراثي سنة ١٢٧٠ هـ في ديوان صغير صدره بقصيدة رنانة تقع في ١٥٨ بيتاً مطلعها :

هذا الكتاب الملتقى والمجتبى من نعت أهل البيت أصحاب العبا
وأسماء « الباقيات الصالحات » ونشره على الناس ، فكان لنشره ذلك
الصدى العظيم الذي أشرنا إليه في حديث سابق . ولكن ، أهذه
المدائح وتلك المراثي دينية بحتة ، أم هي ذات صبغة أخرى

علاوة على تغلغلها الشديد في الدين ؟؟ ..

الواقع أنها مقتصرة على الدين إلا في صفحات قليلة تعرض فيها الشاعر للسياسة أهمها بائته التي تقدم مطلعها ، في هذه القصيدة يحمل عبد الباقي على بني أمية حملة شعواء ، فيحملهم تبعة جعل الخلافة الإسلامية إرثية بعد أن كانت انتخابية ، واستبدادية بعد أن كانت شورية ، ومادية بعد أن كانت روحية ، ويعرض لقضية التحكيم فيضع على كواهلهم غلظة أبي موسى الأشعري المعروفة ، ثم يستطرد إلى فاجعة كربلاء فيصفها وصفاً صادقا مؤثراً ويحاسب الأمويين فيما ارتكبوا في تلك المأساة حساباً لا هوادة فيه ولا رحمة ، ويقطع بتفكير يزيد ، ولكن على شرط أن « يصح ما قال للغراب لما نعب » . وهو يشير بذلك إلى الرواية القائلة : إن يزيد لما بشر بقتل الحسين وأهل بيته سمع غراباً ينعب على سطح قصره فقال مرتجلاً :

لما بدت تلك الرؤوس وأشرقت تلك الشمس على ربي جيرون
نعب الغراب فقلت : صحح أولاً تصح

فلقد قضيت من النبي ديوني

وفي إمكانكم أن تتبينوا مبلغ صرامة عبد الباقي وشدة في موقفه من بني أمية من هذين البيتين اللذين أقتطفهما لكم من تلك القصيدة :

قال رحمه الله :

واحرباً يا آل حرب منكم يا آل حرب منكم وا حرباً
لكم وفيكم وعليكم وبكم ما لو شرحناه فضحنا الكتاب
وشيء آخر لا بد من الإشارة إليه وهو أن رثاء عبد الباقي لآل
البيت في جملته أشبه بالمديح ، أي أنه بارد من حيث العواطف
والانفعالات ، لا تحس في ثناياه تلك الحسرات اللاذعة والعبرات
الغزيرة الحارة التي تحسها في ثنايا رثاء حيدر لهم . وليس هذا تقصيراً
من عبد الباقي ، ولكن هذه هي طريقته في الرثاء ، ولا أدل على
ذلك من أنه فقد العلامة أبا الشاء الألو سي ، وكان من أخلص
أصدقائه وأسمى إخوانه مكانة في نفسه ، فبكاه بمراثي كثيرة لم يستطع
أن يعبر في مرثية واحدة منها عن حزن عميق ولوعة صادقة ، ولا
حنين على عبد الباقي إذا قصر في هذا الضرب من الشعر . فقد علمتم
أنه رجل مترف هادئ البال هانئ العيش لا ينفذ الحزن إلى قلبه ،
ولا يتغلغل إلى قرارة نفسه ، هذا إلى أنه ليس ضرورياً أن يبرر
الشاعر الحميد في كل نوع من أنواع القريض ، وقد خلا ديوان
الأخطل - وهو هو - من الرثاء ، إلا من أربعة أبيات في رثاء ولي
نعمته يزيد بن معاوية لا قيمة لها مطلقاً . على أن لعبد الباقي مقطوعات
في الرثاء لا يصح أن تهمل لاشتغالها على كل صفة من صفات

الثناء الجيد ، أهمها في ما أظن قوله مخاطباً نهر الفرات وراثياً
أبا الشهداء :

بعداً لشطك يا فرات فرّ لا تحلو فئاؤك لا هني ولا مري
أيسوغ لي منك الورود وعندك قد

صدر الامام سليل ساقى الكون ؟
فأما مديحه الديني فانه نفيس كل النفاسة - معنى دقيق ، ولفظ
مختار ، وعبارة بليغة منسجمة ، وزخرفة بديعية لا يظهر عليها التكلف
في كثير من الأحيان .

وتسألوني : ألعبد الباقي في مديحه الديني طريقة خاصة ؟
وأجيب : نعم ، إن له طريقة خاصة ، تلخص في تعداد مناقب
المدوح وفضائله وتصوير مكانته في نفوس أنصاره ومحبيه ووصف
مراقده في بعض الأحيان وصفاً رائعاً جميلاً ، ولكم أن ترجعوا إلى
تأنيته التي يمدح بها النبي ﷺ والتي مطلعها :

تخيرك الله من آدم وآدم لولاك لم يُخلق

وعينيه التي يمدح بها الامام علياً عليه السلام والتي مطلعها :
أنت العلي الذي فوق السما رفعا يطن مكة وسط البيت إذ وُضعا
ورأيتك التي يمدح بها الشيخ محي الدين العربي والتي مطلعها :
شام برقاً من الشّام استناراً يملأ الخافقين نوراً وناراً

أقول لكم أن ترجعوا إلى هذه القصائد وأمثالها لتروا كيف ينفذ
عبد الباقي طريقته الخاصة في مدح الديني تنفيذاً كاملاً دقيقاً. أما
أنا فأكتفي بأن أنشدكم مختارات من وصفه الديني الرائع ، اسمعوا
قوله في وصف قبة الامام علي عليه السلام :

قبة المرتضى عليّ تعالى	شأنها عن موازن وعديل
من نضار صيغت بغير نظير	في مثال منزه عن مثل
فوقها كالاكليل لاح هلال	رمقته السهي بطرف كليل
هي كهف النجاة طور المناجا	ة شمال العفاة مأوى الدخيل
هي غمد لذي فقار بطين	من سيوف الله العلي صقيل
هي غاب ثوى به أسد الـ	علي بصدر أشرف غيل
ذاك لث أردى العدا بزئير	وحسام أبادهم بصليل

كورة لليعسوب مازج صرف الشهيد منها أطايب الزنجيل (١)
أفرغتها يد المفاخر من بر المصالي في قالب التبجيل
صبغتها بالنور أيدي التجلي بقدامي من خافقي جبرئيل
هي في الليل مثلها في نهـار وبوقت الضحى كوقت الاصيل
قابلتها الدور بالثم ليلـاً وشموس النهار بالتقيل
صحنها كالقنديل يزهر صفاء وهي تحكي ذبالة القنديل

(١) اليعسوب : أمير النحل ، شبه الشاعر به الامام علياً عليه السلام .

يا خليلي والخليل المواسي منكما من يحب نفع الخليل
عللاني بذكر من حل فيها إن قلبي يطيب بالتعليل
وقوله في ناعورة نصبت في مقام النبي يونس بدينوى :

وقد أدارت على قطب العلايده

ناعورة ينقضي في دورها الأمد (١)

لا تدرك العين أطرافاً لها أبداً فالرأس مع ذنب بالدور متحد
من البطون ظهور في تقابها من غير فاصلة تبدو ففتقد
لها الدلاء بروج وهي منطقة أو سبعة بدراري الأفق تنضد
تسبح الله في سر وفي علن وما لتسيبها حصر ولا عدد
فيهم تصلي بمحراب القلب وما تخر راكعة إلا وقد سجدوا
تدق دائرة أيدي النسيم على أعضادهافيزول الكرب والكمد
وكل دلوله نوء يسح حياً إذا استهل بودق يخصب البلد
وقبل أن أختم هذا الحديث ، أود أن ألاحظ أن ديوان
عبد الباقي ، لم يحفظ لنا اسمه وشعره من الضياع خصب وإنما حفظ
لنا أسماء شعراء عديدين وحمل إلينا مثلاً لا بأس بها من أشعارهم ،
منهم : علي بن أبي الفضائل العمري ، وقد ذكر في ديوان عبد الباقي

(١) الضمير في (يده) عائد إلى الوالي علي رضا باشا في بيت سابق .

بسبب تخميس هذا تخميساً مضاعفاً قصيدة بديعة له هذا بعضها :
 طرة النهر سرحتها النسمم وعلت منبر الفصون الحماهم
 ساجلتها بلابل الدوح حتى شق ورد الربى جيوب الكمام
 ما ترى الشرق سل مرهف فجر قد تعرى براحة الأفق قائم
 فاختلس فرصة الزمان بروض يضحك الزهر عن بكاء الغمام
 وتنبه لساعة الأتس واغنم صفوة العيش واطرح كل لائم
 ومنهم أحمد عزة باشا العمري أيضاً ، وقد ورد ذكره في ديوان
 عمه عبد الباقي بسبب شكر الأخير في قطعة من الشعر شاعراً نجفياً
 قرض موشحاً طريفاً لأحمد عزة باشا ، وقد أثبت ناشر ديوان
 عبد الباقي هذا الموشح استتماماً للفائدة . وأنا بدوري أروي لكم مثلاً
 منه استتماماً للفائدة أيضاً ، قال أحمد عزة باشا :

من لصب كلما هبت صبا هب من رقدته في فرع

* * *

وإذا عن له برق أضأ

ومضه يحكي الحسام المنتضى

سعر الاحشاء من نار الغضى

وإذا ما زنده الواري خبا أججته زفرة في أضلي

ومنهم الشيخ موسى شريف النجفي ، وقد ورد ذكره في ديوان

عبد الباقي بسبب معارضة هذا قصيدة نفيسة له أثبتتها الناشر إلى
جنب قصيدة عبد الباقي ، أنشدكم أكثرها لأنه من نفيس الشعر
ومختاره . قال الشيخ موسى :

هب الصبا إن هب أو تنفسا أخفى من الصب الغنى نفسا
أليس إن هب يهب حاملا ربا التي أورت بقلبي قبسا
كفى بتلك منة ولو بها جر عني الشوق ممرات ألحى
وبالحى لي عادة لو أنهـا تمنحو علي ما شكوت أبؤسا
منحتها صفو الهوى فلم تزل تمنحني عمداً تباريح الأنس
يا سائلي والصب لم يأس على حياته ما دام مفقود الأنا (١)
تسأل عن صنع الهوى بواق لم يبق منه الشوق إلا نقسا
لا تسألني وسل البيض عسى تنليك عما بين جنبي عسى
ما أنا من أهل الهوى إن لم أكن

أديم ترشـاف الشفاء لـعسا
ولا أنا قتل الحاظ المهى إن كنت لم أزع الجفون النعسا
نفسى القدا لشادن إن جئته مبتسما أبغى رضاه عبسا
فهب أسـأت في الهوى فما على
طلق الحميا لو عفاعن من أسا ٣

(١) الأنس : جمع أسوة ، وهي ما يتأسى به الحزين .

قسا عليّ قلبه واحربا واحربا عليّ قلبه قسا
وقد عارض عبد الباقي هذه السينية النفيسة بسينية نفيسة أيضاً،
يقول في مطلعها :

صبح وصال الحب قد تنفسا من بعد ما ليل الصدود عسعسا
يعجبني منها قوله :

والصبح لو لقت على أوداجه تلك العقاص السود ما تنفسا
وقوله متخلصاً من الغزل إلى مدح صديقه الشيخ موسى :

تسعرت في خده النار التي منها استعار فبكر موسى قبسا
جزى الله عبد الباقي أحسن الجزاء، فقد بذل كل ما في وسعه
لإعلاء كلمة الأدب وكان سبباً في نشره بعد وفاته كما كان سبباً في
ازدهاره ونموه في أيام حياته مـ

الخميس ١٩٤٥/٢/٨



أبو نؤاس القرن التاسع عشر

— أو —

عبد الغفار الآخرس

— حياته وأخلاقه —

موضوع حديثنا في هذه الليلة - سيداتي وسادتي - شاعر ظريف يشبه أبا نؤاس في أمور كثيرة ، يشبهه في ظرفه وفكاهته ، ويشبهه في عبثه ومجونه ، ويشبهه في كلفه الشديد بالخر وكثرة وصفه لها وجودته ، ويشبهه في غلاميته أيضاً . هذا الشاعر الماجن الظريف الذي يمكننا أن نعهده بحق أبا نؤاس القرن التاسع عشر هو عبد الغفار المعروف بالآخرس . وقد كان عبد الغفار هذا وعبد الباقي العمري - الذي تقدم الكلام عنه - فرسي رهان ، كما كان حيدر والحبوبي كذلك ، وقد ساوى بينهما الكواز الكبير رحمه الله ونخر عليهما حيث قال :

أخرست آخرس بغدادٍ وناطقةً ما وما تركتُ لباقي الشعر من باقي

وتتوقعون طبعاً أن أسوق ترجمته في هذا الحديث ، ولكن
يؤسفني أن أقول لكم إنه لا ترجمة للرجل ، فإن ناشر ديوانه المرحوم
أحمد عزة باشا الفاروقي الذي ورد ذكره في حديث الأسبوع الماضي
لم يكتب عن حياته في صدر ديوانه إلا كلمة وجيزة إلى الغاية
قال فيها : إنه علوي الأصل ، وإنه ولد في الموصل سنة ١٢٢١ هـ ،
ونشأ ببغداد ، وتقل في أنحاء العراق ، وإنه حلب أشر الزمن
فعرف خيريه وشره وذائق حلوه ومره ، ولما الوزير داود باشا أرسله
إلى الهند بغية معالجة لسانه من لكمة فيه سمي من أجلها (الأخرس) ،
فقال له الطبيب : إنه على استعداد لمعالجته ، ولكنه مضطر لاخباره
أن كلاماً من شفائه وموته محتمل ، فأجاب : « لا أبيع بعضي بكلي »
ورجع . وتوفي سنة ١٢٩٠ هـ في البصرة ، فشيعت جنازته تشييعاً
حافلاً ودفن في مقبرة الحسن البصري رحمه الله . ويضيف أحمد عزة
باشا إلى ما تقدم أن المترجم كان حسن العقيدة ، ساكناً بجانب الكرخ ،
وأنه ترك عدة أولاد لم يكن لأحد منهم فضل أو أدب . وأتم
ترون أن هذه الكلمة بعيد كل البعد عن أن تصور لنا حياة أديب
نابه عاش سبعين سنة وجالس كبار الحكام وعاشر عدداً غير يسير
من العلماء والأدباء والشعراء ووجرت له مع كثير منهم نكت مستماحة
ونوادر مستظرفة .

ولكن : هذا هو كل ما يقوله لنا أحمد عزة باشا عن الرجل ،
وليس في إمكاننا أن نضيف إليه شيئاً ، إلا أننا قد لا نعجز عن رسم
صورة صحيحة أو شبه صحيحة لصفات المترجم وأخلاقه معتمدين
في ذلك على شعره .

كان صاحبنا رحمه الله حادّ الذكاء نافذ الفطنة ، سريع الخاطر ،
وفياً لأخوانه كل الوفاء ، ظريف النكتة حلو النادرة ، إلا أنه ما جن
عابث ، مسرف في إرضاء شهواته ولذاته ، هجاء خبيث اللسان ، مرّ
الهجاء ، مقذع فيه أيّما إقذاع .

كان رحمه الله ذات يوم في حضرة الوزير داود باشا ، ورفعت
إلى الوزير عريضة فسلمها إليه وطلب منه أن يخبره بما فيها قولاً
لا كتابة - ومعلوم أن الباشا أراد مداعبته لعجزه عن الكلام - فقال
مرتجلاً هذين البيتين ، يعتذر بهما عن تنفيذ رغبة الباشا :

فديتك ، لا ترجو لنطقي ^(١) تكلماً فإنّ يراعي عن لساني يترجم
غرقت ببحر من نوالك سيدي فكيف غريق عائم يتكلم ؟
وظاهر أن ارتجاله هذين البيتين في الموقف الآنف ذكره دليل
فاهض ليس فقط على سرعة خاطره بل وعلى حدة ذكائه ونفاذ فطنته ،

(١) لا معنى لقوله : « لا ترجو لنطقي تكلماً » وأكبر ظني أنه قال :
« لا ترجو لدي تكلماً » ولكن الرواة والنساخ حرقوا كلامه .

لأن البيت الثاني يحتوي على معنى جيد مبتكر ، ووروده بهذه
السرعة على ذهن المترجم دليل قوي كل القوة على ما له من خصب
القرينة ونفاذ الفطنة .

أما وفاؤه لآخوانه ولمن أحسن إليه من عطاء الرجال فقد ظهر
في مناسبات عدة . منها أن أديباً وجيهاً بغدادياً اسمه عمر رمضان
كان صديقاً له ، إلا أنه تغير عليه وانقطعت صلته به ، ولبي عمر نداء
ربه وصلته بعبد الغفار مقطوعة ، إلا أن هذا لم يمنع صاحبنا من أن
يتفجع لفقده ويحزن لموته ويشيد بفضله وأدبه بقصيدة عامرة
يقول فيها :

فتى كان يصميني الردى في حياته فلما توفي كان أدهى مصائبى
فتى ظلت أبكى منه حياً وميتاً أصبت على الحالين منه بصائب
رعت له من صحبة كل واجب ولو كان حياً ما رعى بعض واجبي
ويقول فيها منوهاً بفضل الفقيد :

فتى كان فينا حاضراً كل نكبة فغاب ولكن ذكره غير غائب
تذكرني آثاره بفعاله فأبكي عليها بالدموع السواكب
صبور على البلوى غيور إذا انتحى جميل السجايا الشمم جم المناقب
أدل من هذا على وفاء عبد الغفار تمسكه بصداقة داود باشا في أيام
نكبته وإرساله إليه من بغداد مدحة رقيقة يعرب فيها عن ولائه له

وشوقه إليه ، ويحن إلى أيام ولايته متمنياً أن تعود إلى وادي
الوافدين مرة أخرى ، وهو لا يرجو من وراء ذلك أية فائدة .
ولايكم مثلاً من هذه المدحة الرقيقة :

ولاني على خصب الزمان وجدبه إليك وإن شط المزار لأهرع
ولو أنني وفقت للخير أصبحت نياقي بأرض الروم تخدي وتسرع
إلى مالك ما عن مكارمه غنى وغير ندى كفيه لا أتوقع
فألم أقدام الوزير التي لها إلى غاية الغايات ممشى ومهيع
وأثني عليه بالذي هو أهله وأنشد ما قد قلت فيه ويسمع
وتسألوني عن موقف المترجم من صديقه وزميله عبد الباقي
العمري ، فأقول لكم : إنه مظهر رائع من مظاهر المودة الخالصة
والأخوة الصادقة ، فقد كان عبد الغفار يقرض العمري وينوه بفضله
وأدبه في كل مناسبة : فعل معه ذلك عند تخميسه همزية البوصيري
وفعل معه ذلك عند نشره ديوان « الباقيات الصالحات » ، وفعل معه
ذلك عند إعادة تعيينه نائباً لوالي بغداد سنة ١٢٧٥ هـ . ويعجبني أن
أقتطف لكم شيئاً من قصيدته التي هنأه فيها بعودته إلى هذا المنصب .
قال الآخرس :

أروح أجر الذيل أسحب فضله ولاني لأذيل الفخار لساحب
بمن لم يقم في الأكرمين مقامه ولا ناب عنه في الحقيقة نائب

فقد وجدت بغداد والناس راحة وقد أتعبتها قبل ذلك المتاعب
وإن قلت ما جاء العراق ولا نرى نظيراً له فينا فما أما كاذب
ومن مزاياء عبد الغفار خفة طبعه وأريحية روحه ، وأدل شعره
على هذه الناحية من خلقه قصيدتان ، إحداهما رائية والأخرى
قافية مازح فيها صديقين له كانا ينادمانه ويعاقرانه ويشاطرانه لهوه
ولعبه وعيبه ومجونه ، ولكنهما تابا ونسكا وكفّا عن إتيان المنكرات
والموبقات ، وقطعة بائية كتب بها إلى صديق له يسأله خيراً ، وهاكم
مثلاً من عتابه لأحد صديقيه التائبين . قال :

وقالوا : إن (قدوري) تردى رداء الناسك البرّ الصدوق
فآونة يصلي في فريق وآونة يسبح في فريق
وأخبرني ثقات الناس عنه بأن لا زال في كرب وضيق
فكاد الشوق يحملني إليه فيستشفي مشوق من مشوق
ولكني كتبت له كتاباً كما كتب الشفيق إلى الشفيق
أعزّره على ترك الحمى — وأهديه إلى بأس الطريق
أقول له - وبعض النصيح غش - بما بيني وبينك من حقوق
وثوقك بالعذاب نهاك عنها وعفو الله أولى بالوثوق
تنادي بالطعام بلا شراب كما نهق الحمار على العليق !
وما هذا الذي عوضت عنها ؟ وهل يعني الحديث عن العتيق ؟

فلا طابت أوقات لصاحـ رعى أم الخبائث بالعقوق
وهي طويلة ، وفي هذا القدر منها كفاية ، على أن بعضها مما
لا يمكن إirاده . أما أبياته التي استهدى بها أحد أصدقائه خمرًا فاني
أرويهما لكم كلها لما فيها من ظرف ولطف قال :

جميل الصنيع بأهل الأدب	بقيت لنا في الهنا والطرب
أعندك علم بأزب الهموم	على خاطر المرء مثل الجرب ؟
ولا من دواء لأدوائها	ولا برء منها — أ كينت العنب
وحشر مع الغانيات الحسان	إذا حشر المرء مع من أحب
ولاني فقير إلى قهوة	ومن لي بها مثل ذوب الذهب
تقوي العظام وتشفي السقام	وتذهب عن شاربها النصب
فيا من ودادي له ثابت	ومالي عن حبه منقلب
صراحتي ما بها — قطرة	فقل عند ذلك يا للعجب !
وأنت ملكت نصاب الشراب	فأين الزكاة ؟ — وهذا رجب ؟

سيداتني وسادتي :

أظن أن عبد الغفار يصف حياته الخليعة الماخنة بهذه الأبيات
وما سبقها من عتاب صديقه التائب أبلغ وصف وأحسنه ، فأكتفي
بهذا الوصف للدلالة على مكان المجون من طبعه وغلبة العيب على حياته .

أما هجاؤه فإنه قاس كل القسوة شديد كل الشدة. وقد نخر ذات
مرة بأنه (أهجي من جرير). ولعل أقسى كلمة له في الهجاء
رائيته التي يهجو بها الشيخ عبد الله علوش «أحدرؤساء حلقات
الذكر ببغداد» فليراجعها من أراد.

سيداتي وسادتي :

هذا ما استطعت أن أتبينه من أخلاق الرجل في ثنايا شعره .

أما شعره ذاته فإنه سيكون موضوع حديثنا القادم إن شاء الله

الخميس ١٥ / ٣ / ١٩٤٥



أبو نؤاس القرني التاسع عشر

- أو -

عبد الغفار الآخرس

شعره

سيداتني وسادتي :

للآخرس شعر كثير لم يجمع في ديوانه إلا بمضيه ، وإلى ذلك
يشير أحمد عزة باشا في كلمته التي صدر بها الديوان . ولكن في ما
وصلنا منه كفاية ، لأنه من الكثرة بحيث يملأ ديواناً ضخماً يتألف
من بضع وسبعين وأربعمائة صفحة . وهذا الذي وصلنا منه يحتوي
على كل باب من أبواب الشعر القديم ، من غزل ومديح ورناء ونحر
وهجاء ووصف . وما أريد أن أحدثكم عن ما فيه من هجاء ، لأنه
هجاء لا فن فيه ، ولا أريد كذلك أن أحدثكم عن ما فيه من نحر
ووصف ، لأن نخره ووصفه من التفاهة والقلة بحيث لا يستوفقان
نظر الباحث ، ولكنني سأحدثكم عن ما فيه من غزل ومديح ورناء ،

وهذه الأبواب الثلاثة هي خير أبوابه في ما أعلم . فأما غزله فهو
عبارة عن خواطر مكررة ومعاني مألوفة مصبوبة في قوالب متوسطة:
وقفة على طفل ، وحنين وراء ركب ضاعن ، وشوق إلى حبيب كله
فتنة وجمال ، أو مجلس طرب تقطب فيه الحمر . ويسم الزهر وتتناغى
العيدان ويتناجى الندمان ، أو كفاح في معركة غرام يدمى فيها فؤاد
العاشق المقهور مرة بسيف اللحظ وتارة برمح القد . . وإليك مثلاً
من هذا الغزل ، قل عبد الغفار :

لم أنس ، لانسيت ليالينا التي كان السرور يعودها يتجدد
والربيع مبتسم الأفاح تعجباً منها وبانات النقي تتأود
لو أبصرت عيناك جامد كأسنا لرأيت كيف يذاب فيها المسجد
في روضة سقيت أفويق الحيا فالبان يرقص والحمام يغرد
تملي من الأوراق في ألحانها ما ليس يحسنه هنالك معبد
يحكي سقيط الطل في أرجائها درراً على أغصانها تنضد
يا دارنا سحبت عليك ذيولها

وظفء تبرق - ما سقتك - وترعد

هل أنت راجعة كما شاء الهوى

والعيش أطيب ما يكون وأرغد ؟

وقال يصف مجلس طرب :

خذ بالمسرة واغم لذة الطرب وزوج ابن سماء بابنة العنب
واشرب على نغم الأوتار صافية مذابة في لجين الكأس من ذهب
ولا تضع فرصة جاد الزمان بها ساعات أنسك بين الجد واللعب
أما ترى الروض قد حاك مطارفه

أيدي الربيع وجادتها (١) يد السحب ؟
والورد قد ظهرت بالحسن شوكته

وخضبت وجنتاه من دم كذب
والراح منعشة الأرواح إن مزجت

صاغ المزاج لها تاجاً من الحب
وإن بدت وظلام الليل معتكر رمت شياطين هم المرء بالشهب
داوي بها كل ما تشكوه من وصب

ففي المدامة ما يشفي من الوصب
وقال واصفاً معركة غرام :-

وظني دعتي للحروب لحاظه وهيات من تلك اللحاظ خلاص
تصدى لحرب المستهم - ام وماله

سوى اللحظ سهم والنقاب دلاص

(١) لو قال : (ووشتها) بدل قوله (وجادتها) لاستقام البيت .

فلما أوجت الطرف أدميتُ خده وأدى فؤادي، والجروح قصاص

* * *

وأما مديحه فانه منسوج على منوال غزله من حيث الاعادة والتكرار : كرم فياض ، وبسالة خارقة ، وعطف على المسكين ، ورأي حصيف ، وطبع كله أريحية وظرف . . . إلى آخر ما هنالك مما كرره ألوف الشعراء في مدح كرام الناس ولثامهم على السواء مراراً لا تحصى ، إلا أنه - أعني مديح المترجم - يصور لنا في بعض صفحاته حياة عصره السياسية والادارية تصويراً لا بأس به. وبذلك يصبح خليقاً بالعناية جديراً بالدرس ، فهذه قصيدة يمدح بها عبدالغفار زعيماً من زعماء المنتفك اسمه (صالح) تشرح لنا ما كانت عليه قبائل الجنوب من نزاع وخصومة وتنافس وإراقة للدماء وإزهاق للنفوس في غير فائدة ولا مبرر ، وهذه أخرى تصف لنا إخضاع قبائل نجد على يد ممثلي الدولة العثمانية في العراق ونجاح هؤلاء في مد رواق سلطة الأستانة على تلك البقعة من الأرض ، وهذه ثالثة تعطينا معلومات كافية عن ضرب المشير محمد نجيب باشا كربلاء سنة ١٢٦٠ هـ ، فتقول لنا : إن سكان كربلاء كانوا يأبون الخضوع للدولة العثمانية ، وإن الولاة الذين سبقوا نجيب باشا كانوا يتحاشون الفتك بهم وإخضاعهم بالقوة رعاية لمنزلة كربلاء الدينية .

لألا أن نجيب باشا أبى أن يتبع هذه السياسة ، فأرسل إلى أهل
كربلاء يأمرهم بنزع السلاح وإلقاء أنفسهم في أحضان الدولة
كرعايا مخلصين ، ولكنهم رفضوا الاصفاء لأوامره ، فأملهم شهراً
كاملاً يدرسون فيه موقفهم ويقررون مصيرهم بأنفسهم ، وأنذرهم
سوء العاقبة إذا هم أصروا على سياستهم السابقة ، وانقضى الشهر
الممنوح لهم ، ولم يطرأ أي تبدل على موقفهم ، فعندها ضربهم المشير
العثماني ضربة قاضية وأباح مدينتهم لعسكره ، فأعمل هذا في رقابهم
السيف ، وجأوا إلى الضريح المقدس يستغيثونه ويستنجدونه فكانت
حرمة الضريح تعصمهم من القتل ما داموا داخل الحرم ، فاذا
خرجوا منه عاد الجيش العثماني إلى حصدهم بالسيوف والمدافع ،
وهكذا إلى أن رأى المشير العثماني أنه سفك من الدماء ما يكفي
لتسكين غضبه وإرواء غلته .

وهذه رابعة تذكر لنا تعيين ناصر باشا ^(١) والياً على البصرة
وتهديته الحالة فيها عندما عبثت بها أيدي الأشرار وغلبت عليها
الفوضى والاضطراب ، وهاكم طرفاً من هذه القصيدة التي يخيل إليّ

(١) لا يعين الديوان هوية ناصر باشا هذا بصورة مضبوطة ، ولكن
يغلب على ظننا أنه ناصر باشا السعدون وفي القصيدة من القرائن ما يكفي
لتأييد هذا الظن .

أنها من أحسن مديح عبد الغفار وأدله على حياة عصره السياسية
والادارية قال :

محوت بسيف سطوتك الفساد بحكم قد آرحت به العباد
دخلت البصرة الفيحاء صبيحاً ونار الشر تتقدد اتقادا
وقد عبثت يد الأشرار فيها وطل فسادهم فيها وزادا
خطوب ماضى منهن خطب بطارق ليلـة إلا وعادا
وكم هدرت دماء من أناس وأموال لهم تقدت نقادا
ولما ساءت الأحوال فيهم ولا نفع الحفاظ ولا أفادا
وبات الناس في وجل عظيم يروع السمع منهم والقوادا
دعيت لكشف هذا الضر عنهم ولا يدعى سواك ولا ينادى

* * *

وأما رثاؤه فانه وسط في الغالب ، إلا أنه يصدره - أحيانا -
بنظرات فلسفية رائعة ينحو فيها نحو أبي العلاء وابن السبل البغدادي
في ذم الدنيا والدعوة إلى عدم الركون إليها والافتتان بها ، والقول
بأن الحياة عبء على كاهل الانسان ومحنة له ، لو قدرت له النجاة
منها لكان في ذلك له الخير كل الخير . وإنه لطريف حقاً أن يذهب
عبد الغفار الذي سمعتم شعره في الدعوة إلى الاستمتاع بالحياة
والإهتمام بالذات والشهوات هذا المذهب في ذم الدنيا والدعوة إلى

اطراحها وعدم الاكتراث بها . ومن نفيس شعره في هذا الباب
قوله في صدر قصيدته التي بكى بها صديقه عمر رمضان :

وجود الفتى نفس الحمام لنفسه فلولا لم يسلك سبيل المعاطب
وتسعى به أنفاسه لحمامه وكم أصبح المطلوب يسعى لطالب !
كأننا من الآجال وهي كواسر من الأسد الضرغام بين المخالب
وقوله في صدر قصيدة يرثي بها أحد سرة البصرة :

نؤمل أن يطول بنا انشاء	ونظم بالبقاء ولا بقاء
وتغرينا المطامع بالأمانى	وما يجري القضاء كأنشاء
نسر بما نساء به ونشقى	ومن عجب نسر بما نساء
ونضحك آمنين ولو عقلنا	لحق لنا التغابن والبكاء
إلى م يصدنا لعب ولهو	عن العظة التي فيها ارعوا ؟
وتنذرنا المنون ونحن صم	إذا ما أسمع الصم النداء ؟
ظهرنا للوجود وكل شيء	له بدء - لعمر - وانتهاء
لئن ذهبت أوائلنا ذهاباً	فأولنا وآخرنا - واء
نودع كل آونة حبيباً	يعز على مفارقة العزاء
تسير به المنايا لا المطايا	إلى حيث السعادة والشقاء
ولو يفدى فديناه ولكن	أسير الموت ليس له فداء
مضت أحبابنا عنا سراعاً	إلى الأخرى وما نحن البطاء

وما قلنا وقد ساروا خفافاً إلى أين السرى ، ومتى اللقاء ؟
ولو نبكي دماً حزناً عليهم لما استوفى حقوقهم البكاء
متى تصفوا لنا الدنيا فنصفوا ونحن - كما ترى - طين وماء ؟
فهذا السقم ليس له طيب وهذا الداء ليس له دواء

* * *

سيداتى وسادتى :

هذا ما رأيت أن أحدثكم به عن شعر عبد الغفار الأخرس
رحمه الله ، وأرجو أن أكون قد أحطتكم خبراً بأهم جوانبه
وأخصب نواحيه

الخميس ٢٢ / ٣ / ١٩٤٥

—((☆))—

خليفة ابن الفارض في القرن التاسع عشر

أو

الشيخ محمد - أو الشيخ حمادي نوح

— حياته وشعره —

سيداتي وسادتي :

حدثكم في الأسبوعين الماضيين ، عن شاعر ماجن ظريف ،
كان من الحق أن نعدّه أبا نواس القرن التاسع عشر ، وأود أن
أحدثكم الليلة عن شاعر ناسك تقيّ ، قد لا يكون من الاسراف في
شيء أن نعدّه خليفة ابن الفارض في القرن التاسع عشر ، وهو كذلك ،
أولاً لنسكه وتقاه ، وثانياً لأنه سبحانه الله وقّده ومجده بشعره .
ولئن كنا نجد في ديوان الجبوبي خطرات قليلة في التصوف منتثرة
هنا وهناك ، وفي ديوان عبد الباقي خطرات مثلها أو أقل منها ، إننا
نجد في ديوان صاحبنا — هذه الليلة — باباً واسعاً عنوانه
(العرفانيات) .

هذا الشاعر الذي عبد الله بشعره وسبّحه وقّده ومجده ، والذي

لا نرى بأساً في أن نعدّه خليفة ابن الفارض في القرن التاسع عشر هو الشيخ محمد بن سلمان بن نوح الغريبي الكعبي ، الذي كانت تسميه العامة على سبيل التصغير (الشيخ حمادي) ، وقد غلب عليه هذا الاسم المصغر حتى دعت به الخاصة ولم يكن يستنكره أو يأنف منه . ولد صاحبنا في أواخر العقد الثالث من القرن الثالث عشر للهجرة على وجه التقريب في الحلة . وفيها نشأ ودرس وتأدب وقرض الشعر . وكان وثيق الصلة بآل قزوين ، عظيم القدر عندهم ، كبير العلاقة بالامام السيد حسن الشيرازي الذي ترك النجف في أواسط القرن الماضي لسبب لا يتسع لذكره المقام إلى سامراء ، فكانت هذه بفضل هجرته إليها مركزاً مهماً من مراكز الثقافة العربية الإسلامية في العراق مدة حياته . وكان - أعني المترجم - يختلف من حين لآخر إلى أمراء المحمرة وهم زعماء قبيلته ، ويمتدحهم ويأخذ جوائزهم ، وكان كذلك صديقاً حميماً لآل الرشتي في كربلاء ، وله فيهم مدائح عديدة ، ولهم عنده فواضل كثيرة . وقد صنفت مدائحه وتهانيه ومراثيه إلى (قزوينيات) و (شيرازيات) و (أهوازيات) و (رشتيات) ، وهناك باب خاص بالمفردات . وكان - رحمه الله - جليل القدر ، رفيع المنزلة ، محترماً عند أدباء عصره ، يكبرونه ، ويقدمونه ، ويحتملون له ، وأقول : يحتملون له ، لأنه لم يكن يحفل بشعر أحد

منهم عدا السيد حيدر ، فانه كان يحله ويحترمه ويعترف بجودة شعره ونفاسته .

أخبرني أستاذي العلامة المغفور له السيد محمد القزويني أنه عوفي من مرض ، فبعث إليه الشيخ جواد شبيب - رحمه الله - من النجف بقصيدة رنانة يهئته فيها ، مطلعها :

بقاء الدهر أن لك البقاء فعش لم تلق طول الدهر داء
وتليت القصيدة في مجلس حافل ، وكان لها وقع عظيم ، وكان المترجم حاضراً فلم ينبس ببنت شفة . وسأله أستاذنا - رحمه الله - رأيه فيها ، فما زاد على أن قال ما معناه : « إن الرجل لم يدخر وسعاً » . ومن هنا تتبين مقدار ثقته بنفسه ، أو قل شدة إعجابه بشعره ، فقد كان معجباً به إلى درجة لا يرضى له معها استحسان أو اسط الناس .

أخبرني شاهد عيان ثقة أنه شهد شيخاً متوسطاً في مواهبه وفي ثقافته يستحسن قصيدة المترجم في رثاء السيد جعفر القزويني استحساناً شديداً ، وكان المترجم ينشدها بنفسه ، لأنه لم يكن يعمد لإنشاد شعره إلى أحد ، فقطع الانشاد وقال للشيخ بلهجة كلها سخرية وهزاء : « أحق ما تقول ..؟! .. أرضيت عن القصيدة ..؟! » . إلا أنه كان معجباً بالمتنبى ، يروي شعره ، ويستشهد بحكمه ، ويفضله على شعراء العرب قاطبة .

أخبرني أديب أنه تلا عليه قطعة من شعره ، وزعم أنها للمتنبي
وأنه عثر عليها في مخطوط قديم وسأله رأيه فيها ، فقال له : « متنبى ..! »
ولم يزد على ذلك ، وألح الأديب في الاستفسار عن قيمة القطعة فما
زاد المترجم على أن كرر جوابه . وعندما ينس محذثي من الحصول
على كلمة إطراء من المترجم للقطعة ، قال له : « أستاذ ، إن هذه
القطعة لي .. » فضحك ضحكة عالية وقال له : « سبحان الله ، لقد
لاحظت أنها على جانب كبير من الركاقة » . ومن نوادره أنه كان
ذات يوم يتلو سورة هود ، فلما وصل إلى قوله تعالى : « وقيل
يا أرض ابلي مائك ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ،
واستوت على الجودي » ، وقيل بعداً للقوم الظالمين » أطبق المصحف ،
وضرب يداً بيد وصاح : « يا للبلاغة » .

وكان كثير الحفظ للغة : سأله ذات يوم أحد أقاربه عن
القاموس ، فأشار إلى صدره وقال له : « هذا هو القاموس ، سل عما
تريد » : وقد أثرت سعة حفظه لمفردات اللغة على شعره فكثير فيه
الغريب وغلب عليه الغموض وقلت روايته بين الناس . وقد نبه إلى
ذلك فقال : « إن عليه أن يؤدي واجبه وليس عليه أن يفهم
الناس ! » .

وكان رجل نسيك وورع وملاح ، عف اللسان ، لم يهيج أحداً

مدة حياته، كما أنه لم يتفضل إلا نادراً، وغزله القليل بعيد كل البعد،
بالطبع، عن المجون والتهتك وما إليهما.

وتوفي - رحمه الله - في الحلة لأيام خلون من صفر سنة ١٣٢٥ هـ
فشيعت جنازته إلى النجف تشييعاً حافلاً. وجلس العلامة السيد
محمد القزويني لقبول التعزية بوفاته ثلاثة أيام في مسجده، وتسابق
الشعراء إلى رثائه. ويؤسفني أنه لا يحضرني من رثائه سوى بيت
واحد هو مطلع قصيدة الحاج مهدي الفلوجي - رحمه الله - وهو:

حق يا قبر أن تضاهي النجوم فيك قد أودعوا البليغ الحكيم
أما شعره فأنا لا أريد أن أفعل به ما فعلته بشعر الجبوبي وحيدر
وغيرهما، أي اني لا أريد أن أدرسه، وسبب ذلك أني أعجز عن
فهم الكثير منه، وأنني لا أملك من الوقت ما يمكنني من المكوف
عليه وإطالة التأمل فيه بغية فتح كنوزه وحل وموزه، ولذلك فاني
أكتفي بأن أروي لكم مختارات منه. وأظن أني لا أبالغ كثيراً ولا
قليلاً إذا قلت لكم: إن هذه المختارات التي أقتطفها لكم من ديوانه
هي من أنفس الشعر وأجوده. اسمعوا قوله في تقديس الله وتسبيحه:

شمر الوهم أن ينال ثناكا نخبا دون شارقات علاكا
خرق الغيب فالتوى الوهم صال قبس النور من سناء بهاكا
لمع أرسلت لروع المعنى عبراً تجذب الخلود أنهماكا

أغرّت المستهام حتى انتضته حجب الغيب لا يطيق حراكا
بك يا حيرة البصائر ضلت فكّر منك حاولت إدراكا
حاولت كنه ذي الجلال ولكن عبدت في دجا الضلال عداكا
استظل التوحيد كهفاً منيعاً وأرى قادتي شمس هداكا
في بني فاطم وفضل أبيهم وهدي جدم عقلت ولاكا
وقوله مادحاً آل سليمان وهم رهط الشاعر الكبير السيد حيدر :

آل سليمان الذين أدرعوا صدق المزايادون إعلان الكذب
المانعين الضيم أوليائهم والموردين الخضم تيار العطب
صيد النهار في محافل العملا وخشم الأسحار في ليل رجب
وقوله مادحاً السيد صالح ثاني أنجال الامام السيد مهدي
القزويني من قصيدة هناؤه فيها بعوده من الحج :

يا حصي الحرتين تنفخ بالشيء ح وما كنت تفترين سموما
جارك المغدق الروى يتوالى ففضى ينبت الصخور الجميما
وقوله في ختام هذه القصيدة مستطيلاً بشعره وبمدوحه على
أبي تمام في قصيدته التي هناؤها محمد بن يوسف الثغري بعودته من
الحج والتي مطلعها :

« إن عهداً لو تعلمان ذمياً أن تناماً عن ليالي أو تنياماً »
يا ابن أوس ويا ابن يوسف قوما أوجب العهد بهجة أن تقوموا

وانظروا عهدكم ينادى عليه (إن عهداً لو تعلمان ذمياً)
وقوله في رثاء السيد جعفر كبير أنجال الامام السيد مهدي
القرويني:

في التراب خدك أُمسى وهو منعفر

أُم استسر بجنب المرتضى القمر؟ (١)

يا جعفر بن معز الدين لو عصفت فينا العواصف لا تبقي ولا تذر
كنا فداك وما كنا فداك إذا سيق القدا وتخطى شخصك القدر
ما حل قبرك إلا الخادر المحصر ولا انطوى فيه إلا الصارم الذكر
وقوله في آخرها مخاطباً إخوة الفقيد:

بني المعز وكل منكم علم بجنبه الفضل مجموع ومنحصر
إني جئت بمولى لم أجد بدلاً من شخصه ولا نتم كلكم غرر
لم يغن عن أحد منكم علا أحد وكلكم منه كل الفضل منتشر
أشتم من كل شهيم منكم أرباباً به تفرد منكم أطيب ذفر
مثل الفواكه كل فيه لذته الماء ماء ولما يستوي الثمر
وقوله راثياً والدهم الجليل، وقد توفي عائداً من بيت الله الحرام
ونعي برقياً إلى العراق:

(١) يشير هذا البيت إلى أن الفقيد دفن بجوار قبر جده الامام علي
عليه السلام.

أيّعين مقلتي السحاب الهامي مُقل الغمام عليكَ غير دواي
 نرت القلوب فصكّت المقل التي علقاً جرين مع القلوب هواي
 بك يستجير الدين من ضيم العدا «يا مستضيم الدين أين الحامي؟» (١)
 بكر النعيّ فزجّ تلّغرافه كالسهم يسمر أضلع الاسلام
 خبر يدكدك في العراق جباله فتزول من دهش جبال الشام
 بالأمس قد لمت جبال تهامة ألقاً بواضح وجهك البسام
 فاسود لامعها بشك هواتف صدعت به مسودة الأعلام

* * *

رحم الله الشيخ محمد نوح . . فلقد كان ناسكاً تقيّاً ، وشاعراً
 بليغاً ، وعالماً من أكبر علماء اللغة وأغزرهم حفظاً

الخميس ٢٩ / ٣ / ١٩٤٥

(١) تضمن المترجم هذا الشطر بعد أن حرفته تحريفاً بسيطاً ، وهو هكذا
 في مطلع قصيدة لمييار :
 يا مستضيم الملك أين الحامي ؟ ! يا جدد ما فعل السحاب الهامي ؟ !



السيد ابراهيم الطباطبائي حياته وأخلاقه

سيداتي وسادتي :

حدثكم في الأسبوع الماضي عن شاعر كبير الامام باللغة ، كثير
الحفظ لمفرداتها ، شديد التأثير بهذا الحفظ . وأود أن أحدثكم في هذه
الليلة عن شاعر آخر من هذا القليل . وأسرع فأقول لكم : إن
الشاعر الذي حدثكم عنه قبل أسبوع ، والشاعر الذي أحدثكم عنه في
هذه الليلة ، يختلفان في نواحي أخرى كثيرة . يختلفان
في نظرتهم إلى الحياة ، ويختلفان في نظرتهم إلى الدين ،
ويختلفان في نظرتهم إلى كثير من فنون الشعر . ولكنهما
يتفقان في هذه الظاهرة - ظاهرة حفظ غريب اللغة والتأثر بهذا
الحفظ . والشاعر الذي أحدثكم عنه في هذا المساء هو السيد ابراهيم
بن العلامة السيد حسين بن الفقيه الجليل السيد رضا بن الامام السيد
مهدي الطباطبائي الملقب ببحر العلوم . وما أظن أن بينكم من يجهل
مكانة هذا الامام ومنزلته العلمية الدينية السامية في العراق ، وفي كثير
من الأقطار الاسلامية الأخرى .

ولد صاحبنا في النجف الأشرف سنة ١٢٤٨ هـ. ونشأ حيث ولد .
 وكان والده شاعراً كما كان فقيهاً ، ويغلب على الظن أنه تخرج عليه
 وأخذ عنه ، لأننا لا نعرف له أستاذاً في العلم أو الأدب . وما نظن
 أنه كان صحفياً يكتب بالأخذ عن الكتب وبالتأثر عن طريق المخالطة
 والمعايشة ، لأنه يقول : « إن الأديب لشروط بتأديب ! » . ولكن
 لأن كنا لا نعرف أساتذته ومخرجه معرفة حقيقية ، فإننا نعرف أهم من
 تخرج عليه وأخذ عنه ، فقد تعلمذ عليه شاعر من أكبر شعراء العرب
 في هذا القرن ، هو الشيخ عبد المحسن الكاظمي رحمه الله . وبيان ذلك
 أن المترجم مرض مرضاً عضالاً أعيا الأطباء في النجف بسبب
 حزنه الشديد على وفاة عمه الفقيه الكبير السيد علي صاحب « البرهان
 القاطع » ، الذي كان يحبه حباً جماً ويقربه تقريباً شديداً ، فقصد
 الكاظمية سنة ١٣٠٤ هـ ، رغبة في الانتفاع بمناخ دجلة واعتماداً على
 استشارة أطباء بغداد ، ومكث بها سنتين تركتا في نفسه أجمل
 الانطباعات ، وفي شعره أدورع الآثار .

وانتهز الشيخ عبد المحسن الكاظمي فرصة وجود المترجم في
 الكاظمية ، فلزمه وتأثر به وأخذ عنه . ويقول الأستاذ الشرقي في
 كلمته التي صدر بها ديوان المترجم الذي أشرف على طبعه عام
 ١٣٣٢ هـ : إن أكثر ما حاكى به الشيخ عبد المحسن أستاذه هو « طول

النفس وسرعة البديهة ، والذهاب بالشعر لمذهب العرب الأولين .
وتتلمذ عليه أيضاً الشيخ محمد السماوي أحد أعلام الأدب القديم في
هذه الديار .

وتوفي صاحبنا رحمه الله في النجف عام ١٣١٩ هـ . وقد امتاز
بخلال حميدة وصفات طيبة أهمها حبه لأولاده وذوي قرباه حباً
يقارب العبادة واعتزازه بالعروبة وسرعة خاطره إلى درجة لا يكاد
يصدقها العقل ، وقوة حافظته التي تتناسب وسرعة خاطره المدهشة ،
وخفة طبعه التي خلقت منه صورة مصغرة لعمر بن أبي ربيعة من
حيث حبه للجمال وافتتانه به وتحدثه عنه . فقد مر بكم أنه مرض
مرضاً كاد يودي بحياته بسبب حزنه الشديد على عمه ، وأحيطكم
الآن علماً بأنه كتب إلى ابنه محمد قصيدة ، أقل ما يقال فيها إنها
تعرب عن مثل غرام جميل بيثينة . وسأشددكم قسماً كبيراً منها عند
الكلام عن غزله . وكتب إليه وإلى أخيه حسن هذه الأبيات التي
هي إلى كلام العشاق أقرب منها إلى كلام الآباء ، قال :

لم آل صبراً عنك يا حسن الظبا وعن الأغن محمد الغريد
أبعدتما عني فصوح مرلي عوداً بحمدك ليورق عودي
ما أتما إلا كقرطي غادة يتذبذبان على خدود الخود
أو درتي صدف تعلقتا حلً في جيد عاطلة السوالف رود

وأما وضوء الأبيضين لا تهما قرا سعودي في الليالي السود
لأبني لا يجدي التعلل عنكما بابن الغمام ولا ابنة العنقود
ومما يجب التنويه به في هذا المقام أنه فقد حفيذة له عمرها خمسة
عشر شهراً فرثاها بأبيات قال فيها إنه لا يقع بصره على أبيها حتى
يجش بالبكاء والنحيب :

لغادرت جداً لا يرى لك من أب على حالة إلا تلقاه ناحبا
هذه هي عواطف المترجم نحو أولاده وأحفاده وسائر أهل بيته.
أما عواطفه نحو بني قومه فأننا نستطيع أن نبينها من هذه الأبيات
التي عاتب بها فاضلاً بلغه عنه أنه ذكر العرب بما لا يناسب فضلهم
وشرفهم ، قال :

نقلوا عن أخي المكارم نقلا ما أرى أن يصح حاشا وكلا
كيف من صح أصله عربياً يجحد العرب والمكارم أصلاً ؟
إنما العرب في القديم طراز أينما حل بالنضار محلى
فأنتم ترون أنه مؤمن بالعروبة كل الإيمان ، يفخر بها ويدافع
عنها ويفضّل الليل منها والاساءة إليها ، وقد كان هذا منه يوم لم تكن
الدعوة القومية ولا سيما في محيطه شيئاً مذكوراً . وتسألوني عن
سرعة خاطره ، فأقول لكم إن الأستاذ الشرقي يؤكد في مقدمة
ديوانه أنه ربما ارتجل القصيدة التي تتألف من مئة بيت في مجلس

واحد ، وهو شي لا يكاد يصدقه عقل ، إلا أنه لا مجال للشك فيه ،
فقد توفرت الأدلة القاطعة على أن تلميذه الشيخ عبد المحسن الكاظمي
كان يرتجل القصيدة التي تتألف عن مئة بيت ومن خمسين ومئة بيت
وفيها شيء غير قليل من غرر الشعر وعيون في مجلس واحد ، وقد
تحدثت عن قدرة عبد المحسن الكاظمي العجيبة على الارتجال في
حديث مطول أذعته من هذه المحطة بتاريخ ٨ أغسطس سنة ١٩٤٠
وهو حلقة من سلسلة أحاديث ، خصصت بها عبد المحسن الكاظمي
وأدبه نشرتها جريدة العراق في حينها كلها ، فليراجعها من أراد .

وأعود إلى المترجم ، فأقول لكم : إنه أوتي من قوة الحفظ
ما ينسجم وحضور بديته كل الانسجام ، وحسبكم دليلاً على ذلك
أنه أملى شعره كله على ولده السيد حسن من حفظه كأنه فكر بكل
بيت من أبياته طويلاً ، وعني به عناية شديدة ، حتى رسخ في
ذاكرته واستقر في ذهنه ، مع أنه كان يرتجله ارتجالاً كلما دعت
الحاجة إليه .

هذا ، إلى أنه كان رقيق الطبع ، خفيف الروح ، تأسره الصبابة ،
وتستهويه الملاحاة ، دون أن ينتهي به ذلك إلى مجون أو فسق ،
وأكبر الظن أن الدين هو الذي كان يملك عنان نفسه ، ويكبح جهاج

شهوته ويجعل حبه خالصاً بريئاً وغزله طاهراً عفيفاً لا يضر بكرامة
ولا يسيء إلى سمعة ، وقد كان شباب الأدباء الذين يتخرجون عليه
ويأخذون عنه في طليعة من يخصصهم بحبه الطاهر وغزله البرى .

وقد أنسيت أن أقول لكم إنه كان حميد الصلة باخوانه ، يصلهم
على القرب ، ويشتاقيهم على البعد ، ويخلص لهم في الحالين على
السواء ، ويشاركهم في السراء والضراء - ولا أدل على ذلك من هذه
التهاني الحسان ، والمراثي الرقاق ، التي يقولها فيهم تلبية لنداء
الصداقة ، وتوطيداً لأواصر الإخاء المتبادل بينه وبينهم ، وهو من
هذه الناحية يشبه الحبوبى كرم خلقٍ وصدق مودة ، وإن لم يكن
يشبهه سعة مال وحسن حال . وما أقول إنه كان فقيراً معدماً ، ولكنه
لم يكن غنياً دون أدنى ريب ، بل إنه عرف الفاقة وذاق مرارة الفقر
ونسب ذلك إلى الأدب ، فبرم به وبما ينشأ عنه من نضوب رزق
وفراغ جيب :

لقد قسم الله رزق الورى	وقتر بالرزق أقساميه
فما زلت أشكره حامداً	وأقتل بالصبر آماليه
وهل نافعي أنني شاعر	تضر وتنفسع أشعاريه ؟
أديباً ، وتدركني حرفة الـ	أديب ، فتعسا لآدائيه !

سيداتي وسادتي :

لقد كان ما وصفنا به الرجل حتى الآن حسناً كله ، حتى الغزل
بشباب الأدباء ، فانه كان طاهراً بريئاً ، فلنجاول أن نجد فيه موطن
ضعف . وموطن الضعف الذي أعرفه فيه هو شدة الغضب : أنشدت
له ذات يوم قصيدة في محفل من محافل النجف ، وكان السيد جعفر
- الذي سأحدثكم عنه بعد بضعة أسابيع - حاضراً ، وهو يومئذ
شاب ، فلم يستحسن القصيدة ، وعقب عليها بقوله مازحاً :

ألا من يقتل البق ؟ فان البق آذاني !

لقد طنطن في القلب فصمت منه آذاني !

وبلغ البيتان مسامع السيد إبراهيم ، خلف لئن لقي السيد جعفر
ليوسعه ضرباً . ولم يكن من العسير على السيد إبراهيم أن يلتقي
بجعفر فقد التقى به في يوم من الأيام على حين غرة ولم يشعر المسكين
جعفر إلا ويد السيد إبراهيم على كتفه فقطن إلى الخطر المحدث به
وأسعفته البديهة فارتجل البيتين التاليين يلتمس بهما عفو السيد
إبراهيم وصفحه وهما :

رأيت إبراهيم رؤياً بها أضحي كإسماعيلها جعفر
ها أنذا جئتكم مستسلماً يا أبت افعـل بي ما تؤمر

فهدأ غضب السيد إبراهيم ، وصفح عن السيد جعفر ، ولولا
هذان البيتان لذاق الأخير وبال أمره على يد المترجم .

سيداتي وسادتي :

هذا هو مجمل القول في حياة السيد إبراهيم وأخلاقه ، أما شعره
فأرجو أن أحدثكم عنه في وقت قريب مـ

الخميس ٥ / ٤ / ١٩٤٥



السيم ابراهيم الطباطبائي

— غزله —

سيداتي وسادتي :

عالج شاعر بني طباطبا كل نوع من أنواع القريض ، فشذب
ونفر ، وتشوق إلى الاخوان ومدح ، ورثى ، ووصف ، وقال الحكم
واللواعظ ، وأجاد في هذا كله إجابة غير قليلة .

وأنا محدثكم في هذه الليلة عن غزله ، وهو كثير جداً ، وأكثره قائم
بذاته ، وفي صدور مدائح وتهانيه شيء غير قليل منه أيضاً . وقد
قلت لكم عند الكلام عن أخلاق الرجل : إن خفة طبعه خلقت منه
صورة مصغرة لعمر بن أبي ربيعة ، وأقول لكم الآن : إنني لم
أفترض ذلك افتراضاً ولم أتخيله تخيلاً ، وإنما استقيته من شعره الذي
حفظ لنا أسماء كثير ممن سحروا لبه وتيموا قلبه ونهوا خياله
وشحذوا قريحته . فهذه قطعة تصف لنا محاسن فتى وسيم الطلعة
جميل القسمات يدعى (عباساً) ، وهو بسام ضحوك الوجه مع الناس
جميعاً سوى المترجم . فانه معه « عباس قطوب » ، وهذه قصيدة - بل

قصائد عديدة - تصور لنا جمال شاب أديب غض الشباب سمح
الوجه حلو الحديث يدعى (محمداً) ، وهذه أبيات ترسم لنا صورة
ناطقه لفتى فارسي أنيق الهندام رشيق القوام عذب الكلام . . .
وهكذا . ؟ ، ولكن لا بد لنا - ونحن نقول عن السيد إبراهيم - أن
نلاحظ أن غزله لم يكن يُسَمَّى إلي سمعة أحد ، لأنه لا يدل بحال من
الأحوال على شيء يسمى ربة ولا يُشير إلى قصد يمكن أن يستقيم
أو يستحسن ، إذ كل ما هناك تقدير للجمال وإطراء للصباحة مقرونان
بعنفة تامة لا يرتاب بها أحد من الناس . وشأن السيد إبراهيم في
هذا شأن عمر بن أبي ربيعة ، فانه تغزل بأكرم عقائل قريش ،
كفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، ولبابة بنت عبد الله بن عباس ،
والثريا بنت علي بن عبد الله أحد سراة بني أمية . إلا أن غزله لم
يُسمَّى إلى سمعة واحدة منهم ولم يغضب أزواجهن أو آباءهن أو أحداً
من ذوي قرباهن . ومن ذا الذي يحاسب السيد إبراهيم في تغزله
بمن يقع تحت بصره من حسان الوجوه وظراف الشمايل ولطاف
القدود ، بعد ما تغزل بابنه محمد وحنَّ إلى قطف الورد من خده ،
وهضر القضيبي من قدّه ، وشتم العبير من جمعه ، وتحدث عنه
حديث الحب المهجور عن الحبيب النافر الهاجر ؟ اسمعوا قوله فيه :
من لي بضم رشيق قدك وبلم ورد رياض خدك ؟

إني إذا هبّ النسيم
 وأقابل الريح القبو
 أصبو إذا سرت الصبا
 وأعود أرقب عودها
 أبني هل لمشاهد
 ويدوق لي عذاباً مُسا
 قسماً بقـدك صادقاً
 إني - وما لي الحبيب
 ما خنت عهدك في الهوى
 صبّ ألوب كعاطش
 لقدحت بين جوانحي
 بنعيم وصلك داوئي
 أنت الطبيب لعلتي
 أبعدت عني منجداً
 أنت الأمير بحسنه
 حزت الجمال جميعه
 ما مثل قولك أو كفـه
 هم أشمّ منه نسيم وردك
 ل تمر عابثة بجـدك
 حمالة تفحات رندك
 متأرجاً من عود نذك
 يشتار^(١) لي من أري شهدك؟
 غام من شهى رصاب بردك؟
 وألّتي قسماً بقـدك
 بوردهم - لهـج بوردك
 لا والهوى وقديم عهدك
 حلالته عن عذب وردك
 ناراً ذكت بأوار زندك
 عذبتني بأليم صدك
 فلعلتي برء بعودك
 روى الغمام ربوع نجدك
 ما الحسن إلا بعض جندك
 بجميعه في ضمن فردك
 لك أو كهزلك أو كجـدك

(١) يشتار: يحني .

ولقد نثرت مدامي نسفاً كثرُ جنان عقداك
والآن ، وقد رويت لكم - سيداتي وسادتي - غزل هذه
القصيدة الرائعة ، يخيل إلي أنه من المفيد أن أستطرد فأروي لكم
بقيتها ، لأنها تتضمن نصائح غالية وعواطف أبوية عجيبة ،
وهذه هي :

أحمد لم أقض - لا	ومحمد - فرضاً لمدك
ما ود مثلي والد	ولداً أطاع كمثل ودك
نبئت عنك محامداً	ميسورها يقضي برشدك
كن عبد جدك واعلم	نّ بأنني عبد لجدك
حلاك مرهقه الصنيه	مع أفاض جوهره بحدك
قد فاض منه - فرنده	وطغى فرقرق من فرندك
أنظر إلى حسن الخطا	ب ولا تسوّه بقبح ردك
واعلم بأنني جاهد	لك بالدعا فاجهد بجهدك
علي - وبرقي مخّاب -	أسقى الحيامن برق رعدك
نجمي ونجمك قارباً	أن يُقرنا في برج سعدك

والآن أحب أن أقف عند هذه المرحلة من الحديث لأقول
لكم إن الكاظمي لم يشبه الطباطبائي في (طول نفسه وسرعة بديهته
والرجوع بالشعر إلى مذهب العرب الأولين) فحسب ولكنه يشبهه

في التشبيب بأولاده أيضاً ، فإن له في الرباب قصيدة رائعة مطلعها :
 رباب اعدلي إن الدلال له قدر ولا تعذلي مضناك إن لم يكن عذر
 تحدث فيها عن ابنته حديثاً كله لوعة وغرام وصباية . وأعود إلى
 المترجم فأقول : إن غزله بشباب الأدباء يجمع بين التشبيب والاطراء
 على نمط عجيب ، فيدنا هو يتحدث عن العيون النجل والقُدود الهيف
 والوجوه المشرقة التي تفيض شباباً وجمالاً ، إذا هو يتحدث عن
 المعاني الدقيقة والألفاظ الرقيقة والعبارة المتينة المنسجمة وما إلى ذلك ،
 وإليك من هذا النسيب الغريب في بابه قوله :

وبي من ظباء القاع من أرض توضح
 غزالاً سماوياً سبي البدر أتلعا
 تخايل يزهو بين عينيه كوكب

يشق به جناحاً من الليل أدرعا (١)
 ومستصحباً طبعاً يسير مع الصبا كأن الصبا صب به قد توأما
 أساور منه عاطي الجيد تالعا يسوم كائناً (٢) الرمل حين تطلعا
 يخالس منه الطرف عينين ترمي بطرفين وسنانين ريعاً وروعا
 يصيخ إليه السمع حتى إذا ارتوى رجعت به رياح بالعود ممرعا

(١) أدرع : أسود .

(٢) الأيم : الحية البيضاء اللطيفة .

فيا ساكب الأشواق شدواً ومنظراً

ويا مسكر العشاق مرأى ومسمعا

وصالك ، واستدرك فؤاد متيم تقطع أوقد كاد أن يتقطعا

ويا لأميّ اليوم فيه ضلالة فان شئنا لوما وإن شئنا دعا

فتى نقتني منه ربح بليلة

نشقت شذاها عاصب الأنف أروعا

ورب القوافي السائرات كأنما أعادهم عاداً وأتبع تبعها

إذا أنشدت وسط الندي تحيرت

كواشح بالأنياب تنهش إصبعها

له السابقات الغرغارت وأنجدت فعزت وقوعا في البلاد وموقعا

سعى للمعالي قبل شدّ نطاقه فخل ذراها يافع السن مذسعى .

لعوب بألباب الرجال ولم يكن

حوى أو حوى في العمر عشراً وأربعاً

رعى حفظ أسباب الوفاء طبيعة وآخر مكلف رعاها تطبعا

أودعه والعين عبرى كأنما أودع شطر القلب غدوة ودعا

فيا مزعم الترحال هل لك عودة

تمود بها ؟ فالصبر بعمدك أزماً ؟

خليلي^(١) أنت القلب ما بين أضلعي

فلا غرو إذ أخني على القلب أضلعا

تبوأ من أفلاده لك موضعاً ترفع لكن زاد فيك ترفعا^(٢)

ترعت لك النفس الحبيبة راغباً ، بعيشك هل أبقيت للعيش منزعا؟!

سيداتى وسادتي :

لقد وصفت هذا النسيب بأنه غريب في بابه ، وأظن أنكم

تشاركوني الآن في هذه الملاحظة ، فنحن لا نجد في دواوين كثير

من الشعراء - إن لم أقل في دواوين الشعراء كافة - نسيباً مديحاً

أو مديحاً نسيباً كهذا ، يصور لنا الحبيب على أنه شاعر خل ،

أو الشاعر الفحل على أنه غلام فائق الجمال رائق الشباب ، يفتن الناس

بجماله طوراً ، وبفضله وأدبه تارة ، ويستهوهم بشعره حيناً وبسجره

حيناً آخر . ولكن غرائب السيد إبراهيم كثيرة وهذه واحدة منها .

وشيء آخر أحب أن ألفت أنظاركم إليه ، وهو ورود كلمة

(توضح) على أنها مسرح للغزال الذي يغازله الشاعر في ما رويت لكم

من نسيبه الصادق ، وورود كلمة (الجزع) على أنه دار لحبيبه في

ما لم أرو لكم من نسيبه . والذي أستنتجه من ورود هاتين الكلمتين

(١) في العراقيات (محمد ... إلخ) .

(٢) لا وجود لهذا البيت في الديوان وقد أخذناه عن العراقيات .

في هذه القصيدة التي لا نزاع في أنها مثل حي من النسبب الصادق
 أن المترجم لا يذكر أسماء هذه الأماكن في شعره تقليداً لمن سبقه
 من الشعراء ، وأنها لم تكن في كلامه ألفاظاً مئمة لا تعني شيئاً ، وإنما
 هي عنده كلمات رمزية. فهو يقول (توضح) ولكنه يعني النجف ، ويذكر
 (الجزع) ولكنه يريد السماوة ، ويحن إلى (الحقيق) ولكنه يريد
 دجلة أو الفرات أو هما معاً . وعلى هذا تهبط نسبة النسبب التقليدي
 في ديوان الشاعر إلى درجة قريبة جداً من الصفر . وكم كنت أود
 أن أنشدكم مثلاً آخر من غزله الرقيق ونسببه المطبوع ، ولكن
 أظن أن الوقت لم يعد يسمح بذلك ، فأستودعكم الله وإلى اللقاء

الخميس ١٢ / ٤ / ١٩٤٥



السيد إبراهيم الطباطبائي

شعره على الأجمال

كان حديثنا في الأسبوع الماضي - سيداتي وسادتي - خاصاً بفزل
السيد إبراهيم لمكان هذا من ديوانه ، أما في هذه الليلة فسأحدثكم
عن فنون مختلفة من شعره : سأحدثكم عن إخوانياته وعن وصفه
وعن رثائه ، وعن حكمه وأمثاله أيضاً .

وغني عن البيان أنني لا أستطيع أن ألم بكل باب من هذه
الأبواب إلا إلمامة قصيرة ، ولكن لا بأس ، فديوان الرجل مطبوع ،
وفي إمكان كل منكم أن يرجع إليه إذا أراد التوسع في الاطلاع على
كل باب من أبوابه . والآن لنبدأ حديثنا بالكلام عن إخوانياته .
وهذه عبارة عن قصائد ومقطوعات كتب بها المترجم إلى أصدقائه
وأودائه يتشوق لهم مرة ويستعطفهم تارة ويعاتبهم حيناً ويمدحهم
حيناً آخر . وينبغي أن نلاحظ أنه لا يمدحهم إلا نادراً . وهذه
المجموعة من شعر السيد إبراهيم قيمة كبيرة لأنها تدلنا على مبلغ وفائه
لاخوانه ، ولأنها تدلنا على مبلغ عرفانه للجميل ، ولأنها تدلنا على شدة

تعلقه - أو قل شدة كلفة - بفريق من هؤلاء الذين يخصهم بهذه
 الرسائل البليغة، ولأنها تكشف النقاب عن نواحي من حياته لا يعرف
 الناس عنها شيئاً، فلولا نونية كتب بها إلى صديق في بغداد
 أو الكاظمية - لا أدري، لأن اسمه غير مذكور في الديوان - لما
 عرفنا أي شيء عن الفرص السعيدة التي تهيأت له في بغداد، ولما
 ترشح لنا أي شيء عن الساعات الجميلة التي قضاها على ضفاف دجلة،
 ولكنه حدثنا عنها في هذه النونية بما لا مزيد عليه من الصراحة
 والاخلاص، فنشكر له صراحته وإخلاصه، كما أننا نقدر له براعته
 في الوصف وقدرته العجيبة على التصوير.

وما أريد أن أصف لكم حياة الرجل في بغداد ولا أن أشرحها
 كثيراً ولا قليلاً، ولكني أروي لكم الجانب الذي يعني من القصيدة
 التي تقدمت لها الإشارة، ولكم أن تستنبطوا منها ما تشاءون وأن
 تستنجوا منها ما تريدون، قال:

أخي هــل راجع ليل فينظمنا بشط دجلة نظم المقد إخوانا
 بتنا على البدر حيث النجم يرمقنا بطرفه في ضمير الليل ندمانا
 بمجلس مشرف الأطراف مرتفع عالٍ تطول به الجلاس كيوانا
 يا حي دجلة والجرفان قد طفحنا

فيضاً يسيل على الرضراض عقيانا

نسرّح اللحظ في مجرى سبائكها فيصدر الطرف دون الورد حيرانا
لو كنت تطلبنا والملقى كتب لما طلبت حياة دون لقيانا
مطرّ حين على الأتقاء من سهر نثني الممارق أنقاء وكثبانا
يجشوننا الغمض والأشواق تنهضنا

للهو حيناً وللأطراب أحياناً
نهب نبندر اللذات ما عرضت مثني فمثنى ووحداً فوحداناً
يضمنا الشوق ضمّ البرد لابسهُ حتى تلبس أقصانا بأداناً
يلف بعضاً على بعض نسيم صباً كما يلف على الأغصان أغصاناً
حتى إذا الكلب أخفى من عقيرته والطير غرّد والناعور غناناً
قننا وقلم رهيف القـدّ أهيفه

كسلان يسحب فوق الأرض أرداناً
يمشي اختيالاً كما يمشي النزيف، وقد

مالت بهـامته الأقداح، نشواناً
لا يملك الخطو إلا أن ترجيه كما ترجي صحاة الشرب سكراناً
وعقرب الصّدغ دبّت فوق وجنته

والفرع ينساب فوق المتنّ ثعباناً
مضت بتلك الليالي الصالحات لنا نوى شطون تمدّ الهجر أشطاناً (١)

(١) هكذا في العراقيات وفي الديوان (تمد البحر).

أحببنا إن تهن فيكم وسائلنا
 فأنما العيش ما كنا وما كانا
 تركت في النجف الأعلى لمحببتكم
 بالآهل أهلاً وبالأوطان أوطاناً
 عوصتموني عن أهلي وعن وطني

* * *

والآن ، أعرفتم كيف قضى السيد إبراهيم أيامه في الكاظمية وفي بغداد ؟ أعرفتم نوع الحياة التي كان يحياها على ضفاف دجلة ؟ إذا عرفتم ذلك فلتجاوزوه إلى المرحلة الثانية من هذا الحديث ، وهي الكلام عن وصفه ، وهذا قليل لسوء الحظ ، ولكنه طريف حقاً . وطريقة المترجم فيه هي أنه يستعرض ما يلتفت نظره من أداة أو حال أو منظر فيصفه وصفاً موجزاً مرة ، ومسهباً تارة ، ولكنه بليغ رائع على كل حال . وقد رأيتم أنه فعل ذلك في وصفه دجلة وفي وصف مجلسه على شاطئها ، وترون الآن أنه فعل ذلك أيضاً في وصفه ساعة المصحن الحيدري وفي وصفه محجة الترام ، فاني منشدكم هاتين القطعتين الجميلتين من وصفه ، قال يصف الساعة :

كنا نراع إذا ما الساعة اقتربت إذ قال قائلنا للساعة اقتربي
 نصني لونة صافي الطاس إن قرعت

إصفاء ذي طرب يصفي إلى طرب

نراقب الوقت منها كل آونة يا حب مرتقب منها لمرتقب
تدعو إلى الصلوات الخمس مؤذنة فتقتضي أرباباً ناهيك من أرب
تفيد من أتم نفعاً ومن كتب والفيض من أتم يقضى ومن كتب
فضل تساوى به الداني القريب مع الـ

منائي البعيد فكل بالحباء حي
عاضت عن الشمس قانوناً يبين لنا وقتاً فوقتاً، إذا غابت، ولم تغب
وطاردت في دجا الليل البهيم، سرى،

عطارد النجم بين الأنجم الشهب
كأنما قطب هذا الكون منتصب فيها تدور به الأيام في الحقب
وقال يصف الترام :

كل صنع مصور في الوجود هو صنع المصور الموجود
غير أن الافرنج تعمل فكراً بجاري التصويب والتصعيد
فكأن الأشكال ألقت إليها قبل كون الأشياء بالاقليد
فتحوا مقفلاتها بعقول قد ترقّت لعالم التجريد
قل هم، لا تقس بهم من عداهم بفنون من مبدى ومعيد
المحيطون بالكواكب أيضاً وأولو الزيج في الليالي السود
كل آن لهم وكل زمان في الجديدين خلق فكر جديد
كيف تنقاد قلعة من حديد؟ أو حديد ينساب فوق حديد؟

أبدلوها من الصعيد حديداً
سبحت في النحاس سبجاً طويلاً
لم تحدد وجه الثرى بخدود
قيدوا موضع الخلاخل منها
وحصان تقحت كحصان
أسرعت تطلب اختها بعنق
لم تخن عهد تربها بوعود
جعلوا مجمع اللقاء اقترافاً
فالوراء القريب غير قريب
فاغتلت صهوة الحديد الحديد
كسفين جرت بماء صديد
وهي إذ ذاك آية الأخدود
بقيود فأطلقت بالقيود
أو كفحل عود من البدن عيد
لعناق وضم جيد لجيد
وهي إذ ذاك لا تني بالوعود
بحدود فلم تقف بحدود
والأمم البعيد غير بعيد

* * *

فما أشك في أن المثال الأول نقل لأسماعكم رنات الساعة العظيمة
التي تدوي في الفضاء وتسمع من مسافات بعيدة ، وتمثل لكم تطلمع
الأبصار إليها واستشارة الناس لها واعتمادهم عليها في تصريف أوقاتهم
وأداء صلواتهم ، وأن المثال الثاني رسم لكم صورة متحركة لعربات
الترام وقد اكتظت بالركاب والتقت في مفترق الطرق ، هذه ذاهبة
وتلك آية .

وما أريد أن أطيل الوقوف عند رثاء السيد إبراهيم ، لأنه
- على ما أزعم - في الدرجة الثانية ، بل الثالثة من شعره . وليس

ضرورياً أن يبرز الشاعر الحميد في كل نوع من أنواع القريض ،
 وقد برز السيد إبراهيم في الغزل وفي مراسلات الاخوان ، ولا
 بأس عليه إذا هو لم يبرز في مضمار الرثاء . ولي في رثائه كلمة وجيزة
 أقولها لكم على كل حال . ففي زعمي أن رثاءه رقيق مؤثر ولكنه
 لا يخلو من مبالغات كان يقرها العصر . وفي بعض صفحاته خطرات
 فلسفية حسنة وقف فيها الشاعر موقف الحكيم المتدبر ، فوصف الدنيا
 بما هي أهله من غدر ومكر وغرور ، ودعا أبناءها إلى الزهد بها
 والاعراض عنها ، ومن جيد رثائه قوله في رثاء زميله وصديقه
 السيد حيدر : -

لقد غلب الجرح أن يستطب فمن أين أدمل فيك الجراحا ؟
 أرح ، فلفيرك هذا الروح برحت ولست أطيق البراحا
 وناع نعي منك مملومة رداحاً تصادم أخرى رداحا
 وكبشاً يهيج كفحل الضراب نناطح فيه القروم نطاحا
 وما صاح ناعيك في بقعة من الأرض إلا وضجت صياحا
 أحيدر زاراً بغيل القريض عسى أن تغض الكلاب النباحا
 وذكرهم وخز ذلك اللسان يهتز أيضاً وسمراً رماحا
 وللسيد إبراهيم حكم وخواطر في الحياة والاجتماع والأخلاق

تستحق أن تجري على كل شفة ولسان وأن تسري في الناس سير
الأمثال ، أروي لكم منها قوله :

ما كل من صحب الإخوان جربهم
وكل من طلب الآداب أحرزها
ولا يعرف الخل إلا بعد تجريب
إن الأديب لمشروط بتأديب
وقوله :-

لسنّب العقارب لا لسبق عداوة
وقوله :-
إن العقارب لسنّب من ذاتها

إذا الدهر أصلح من جانب
وقوله في نفس القصيدة :

أرى الموت أقرب من حاجب
وقوله :-
لعين وعين إلى حاجب

وما السيف إلا للرجال قلادة
ولا أريد أن أختتم هذا الحديث دون أن أقدم عليه قوله في
وصف النجف على عهد الدولة العثمانية :

بلد به يرشى علانية والمرثى هو حاكم البلد
رحم الله السيد إبراهيم ، فلقد كان من أخصب شعراء عصره
خيالاً وأحدم شعوراً وأرقهم إحساساً ، وربما كان أسرعهم بديهة
على الإطلاق

الخميس ١٩ / ٤ / ١٩٤٥

السيد جعفر الحلي حياته وأخلاقه

سيداتي وسادتي :

وعدتكم قبل أسابيع أن أتحدث إليكم عن السيد جعفر الحلي أحد كبار شعرائنا في القرن المنصرم، وها أنا منجز لكم ذلك الوعد .

ينتمي السيد جعفر إلى بيت علم وأدب ، ينتمي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام . فقد كان والده السيد حمد من كبار تلامذة العلامة السيد مهدي القزويني ، وكان إخوته علي وفاضل وصالح كلهم فقهاء أفاضل . وقد اجتمعت سنة ١٩٢١ في النجف بأخيه السيد صالح - رحمه الله - فوجدته على جانب كبير من سداد الرأي ودقة الملاحظة وفصاحة اللسان ، كما أنني وقفت على مؤلف في الفقه يقع في عدة مجلدات ضخمة اسمه (الضياء اللامع) لأخيه السيد علي . وقد ولد - أي المترجم - في ١٥ شعبان من سنة ١٢٧٧ هـ في قرية من قرى الحلة الجنوبية اسمها « السادة » وقد سميت كذلك لأن أكثر من يسكنها من العلويين الذين هاجروا إليها من الحجاز منذ

قرون عديدة طلباً للانزواء في هذه البقعة النائية من الأرض ،
 وفراراً من الاضطهاد ، وقضى صاحبنا سني حياته الأولى في هذه
 القرية . فلما راهق أو كاد أرسل إلى النجف حيث يقيم إخوته ،
 ليدرس كما درسوا ويتعلم كما تعلموا . وقد درس علوم العربية والدين
 على أساتذة لم يسمّ ناشر ديوانه منهم أحداً . إلا أننا نستنتج من
 شعره أنه درس على الشيخ محمد الشرياني أحد كبار فقهاء الامامية
 في عصره ، وفي هذا دليل ناهض على سعة معارفه الدينية . ولم يكن
 انكبابه على الدرس ليشغله عن الأدب وخاصة عن قرض الشعر
 الذي كان يقوله بمهارة فائقة وسهولة تامة . وعندما تبين له أنه شاعر
 موهوب ، رأى أن يستغل موهبته هذه وأن يتكسب بشعره نزولاً
 على حكم الضرورة ، فقد كان مملقاً شديداً الفاقة ، فمدح طائفة من
 الملوك والأمراء والعظماء بينهم السلطان عبدالحميد وبعض أشراف
 مكة وآل الرشيد في حائل وأمراء الحمرة . وقد وجد بين هؤلاء
 من يحفل بمدحهم ويمجّب بشعره ويبادلهم عواطف الصداقة والمودة
 ويهبه الجوائز السنية . وأكبر من فعل معه ذلك آل الرشيد الذين
 قال عنهم في إحدى قصائده « إنهم خزان رزقه » . بل إن بعضهم
 - وهو من أشراف مكة كما يقول الديوان - ذهب في محاسنته
 والثقة به إلى حد إدخاله في السياسة ومفاتيحه في إعلان ثورة مسلحة

على حكومة الأستانة . وبذلك تخبرنا قصيدة المترجم أروي لكم
أكثرها لدلالاتها على صلة العراقيين بالبيت الهاشمي من الناحية
السياسية قبل أن يثب الحسين بن علي - رحمه الله - وثبته الخالدة ،
ولدالاتها من جهة أخرى على اهتمام أمراء هذا البيت بموقف العراقيين
من سياستهم نحو السلطنة العثمانية منذ زمن بعيد ، قال المترجم :

أنشر لواءك مؤيداً منصوراً	حيّ الآله لواءك المنشوراً
واقصد بخيلك يمنة أو يسرة	الله جارك لا ترى محذوراً
يا ابن النبي محمد وسميه	طابت حجورك أولاً وأخيراً
— أعطاك ربك بسطة في دينه	فأنهض وطهر أرضه تطهيراً
— أو ليس سيفك ذو الفقار بهظماً	لا يستقي إلا الدم المهدوراً ؟
— يا وارث العلياء من آبائه	ما زال ذكرك بيننا منشوراً
— وصل العراق كتابكم فتملكت	فرحاً وأصبح من بها مسروراً
فمكأنها قبل الكتاب ونشره	كانت ظلاماً فاستحالت نوراً
— كم سيد لك بالعراق يود أن	يلقاك لو كان اللقا مقدوراً
وأما ويض ظباك - وهي حرية	أن يحلفوا قسماً بها مبروراً -
— لو لم تقم بمجدود مكة حارساً	ما حجب شخص بيتها المعموراً
الله أذهب عنكم الرجس الذي	يخشى وطهر بيتكم تطهيراً

فواضح أن القصيدة جواب على رسالة ، وأن الرسالة تتضمن

رغبةً بإعلان ثورة، وسؤالاً عما تلقاه هذه الثورة من تحييد وتأيد من العراقيين عامة والعلميين منهم خاصة . وواضح كذلك أن المترجم يمجذ هذه الحركة كل التحييد ويؤيدها كل التأيد، ومن هنا يتبين لخصراتكم أن السيد جعفر لم يكن تائهاً في بيداء الأحلام ولا هائماً في وادي الخيال عندما يمني نفسه خوض غمار الكفاح وركوب الأهوال ومنازلة الأبطال طلباً بثار آبائه وأجداده ورغبة في المجد أو الموت.

من لي يوم وغى يشب ضرامه

ويشيب فود (١) الطفل منه فيهرم ؟ !

يلقي العجاج به الجران (٢) كأنه ليل وأطراف الأسننة أنجم
فمسي أنال من الترات مواضياً تسدي عليهم الدهور وتلحم
أو موة بين الصفوف أحبا هي دين معشري الذين تقدموا

* * *

وإنما هي شذشنة من أخزم .. هي نزة العلويين الصادقة إلى الكفاح تلك النزة التي امتازوا بها طوال عصور التاريخ الاسلامي الذي كتبوا جزءاً غير يسير منه بدمائهم ودماء أنصارهم وأشياعهم .

(١) الفود : مفرق الرأس .

(٢) الجران : مقدم العنق ، وهو مستعمل هنا مجازاً .

وتوفي السيد جعفر بتاريخ ٨ شعبان سنة ١٣١٥ هـ ودفن بقرب
ضريح والده في النجف الأشرف .

أما صفاته - رحمه الله - فأهمها : علو الهمة وخفة الروح وسرعة
الخاطر والاندفاع أو التهور . فأما علو همة فحسبنا دليلاً عليه ارتفاعه
بنفسه من منزلة شيخ خامل مملق من شيوخ النجف الذين يعدون
بالألوف إلى منزلة شاعر كبير له محبوبه وله مریدوه من أولي الحول
والطول في شبه جزيرة العرب وغيرها . وأما خفة روحه فلا أدل
عليها من شعره الهزلي الكثير ، ومن هذا أبياته اللطيفة التي يهني بها
صديقاً له تزوج أرملة أو مطلقة عمرها أربعون سنة والتي يقول
فيها واصفاً عروس صاحبه :

مرت عليها أربعون حجة فهي إذن كالصارم الجرب

وهو يسلي صاحبه في هذه الايات عن سن زوجته مرة بأن الله
قدّم ذكر الثيبات على الأبكار في آية من آيات كتابه الحكيم ، وتارة
بأن لفظ العجوز محبّب إلى السمع جميل الوقع في النفس لأنه من أسماء
الحرّة ، وحيناً لأن خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها أعزّ أزواج
النبي عنده وأحبهن إليه مع أنه تزوجها وقد اكتهلت . ويختتم أبياته
مشيراً إلى أن هذه الكهلة المجرّبة ثلاثة أزواج صاحبه بقوله :

بك الأثافي كملت ثلاثة ففقر بها كل مرجل المنصب

ومنه ، أي من شعره الهزلي ، هذه الشنية التي يرثي بها عشاء
دُعي إليه إلا أن القط سطا عليه فلم يدع منه شيئاً والتي يقول
في أولها :-

وا أسفا على المشا مطبقاً مكشمشا

قد ظفر الهرّ به فنال منه ما يشا

ومنه هذان البيتان اللذان يداعب بهما أستاذة الشرياني وهما :
للشرياني أصحاب وتلمذة تجمعوا فرقا من هاهنا وهنا
ما فيهم من له بالعلم معرفة يكفيك أفضل كل الحاضرين أنا
وأخبار الرجل الدالة على سرعة خاطره كثيرة ، وقد مرّ بكم
بعضها عند الكلام عن أخلاق السيد إبراهيم الطباطبائي ، وأروي
لكم منها الآن ما ورد في ديوانه من أنه كان ذات يوم على الفرات
وجاعة منهم أخوه السيد علي يتذاكرون في بعض المسائل الفقهية .
وبيناهم كذلك إذ نهض السيد علي فزعا مرعوباً ، فسأله عن
ما ألمّ به فأجاب بأن حية صعدت إلى حجره ، فقال المترجم
على الفور :-

لا تحسبوا حية الارض التي التصقت

في حجر سيدنا رامت به فزعا

لكنها من صنوف الجن قد سمعت بالوحي يتلى لجأته لتستعلا

وناشر ديوانه - وهو رجل ثقة يعرفه معرفة شخصية كاملة - يؤكد
في كلمته التي صدر بها ديوانه أنه كان يقول الشعر بسهولة عجيبة ،
وأنه كان يستخدمه في الجليل والتافه من أغراضه لشدة تمكنه منه
وأن هذا كان سبباً في ضياع الكثير من شعره .

بقي أن أحدثكم عن ما سميتُه اندفاعاً أو تهوراً عنده ، وهذا
ظاهر في عدة حوادث جرت له ، منها تعليقه على إحدى قصائد
السيد إبراهيم الطباطبائي بما يكره ، وقد مر هذا بكم ، ومنها تعليقه
على مرثية السيد حيدر للعلامة السيد مهدي القزويني بشطرٍ من
عروض القصيدة ورويها لا يمكن إirاده . وقد بلغ هذا التعليق
مسامع السيد حيدر فأغضبه وأحفظه كثيراً ، وأفضى إلى توتر شديد
بين يتي حيدر وجعفر دام زمناً غير يسير . ولولا أنني أعلم أن
ذكر هذه الحادثة لا يفضي الآن إلى ضرر كثير ولا قليل لما ذكرتها .
سيداتي وسادتي :

هذا ما يمكنني أن أقوله لكم عن سمات السيد جعفر وصفاته .
أما شعره ف سأحدثكم عنه في الأسبوع القادم .

الخميس ٢٦ / ٤ / ١٩٤٥

السيد جعفر الحلي

— شعر ٨ —

سيداتي وسادتي :

حدثكم في الأسبوع الماضي عن حياة السيد جعفر الحلي وأخلاقه ، وأودّ أن أحدثكم الليلة عن شعره ، وهذا كثير ، وقد صناع جزء غير يسير منه في حياة صاحبه بسبب عدم اعتناؤه به ، ولكنه جمع ما أعجبه منه في ديوانٍ أسماه (سحر بابل وسجع البلايل) طبع في مطبعة العرفان بصيدا سنة ١٣٣١ هـ .

وأنا أحدثكم هذه الليلة عن ما يحتوي عليه هذا الديوان من مختلف ضروب الشعر . وأول ما أتناول بالحديث غزله ، وأكثر ما لصاحبنا في هذا الباب تمهيد لمداخجه وتهانيه ، وله غير ذلك مقطوعات قليلة منسوجة على منوال الكثرة الكبرى من مقدمات مداخجه وتهانيه . وما أظن أن هذا الغزل خاؤ من الأحاسيس والعواطف الغرامية أو ما يجري مجراها ، فأكبر الظن أن هذه الأبيات :
وردت بآني لا أفارق شخصه ولكنما الأليم تجري على العكس

ولي - كأنما نامت عيوني - فزعة

لذكراه، أخشى أن تذوب لها نفسي (١)

ومن كان مجنوناً لذكر حبيبته فياسين لم تنفع ولا آية الكرسي
- نقشة محب مهجور قد برّح به الحب فأقضى مضجعه وحرمه لذيق
رقاه . وليس من شك في أن هذا البيت :

لفظ اسمه حسن يحيا الفؤاد به كأنما اتخذوه من معانيه

يشير إلى إنسان وهبه الله نعمة الحسن يدعى (حسناً) ، وقد لا
أخطئ إذا لاحظت أن هذا الانسان نفسه هو المعنى بقول المترجم :

حسن الدلال يمنع إحسانه سمح الحدود وما لديه سماح

إلا أن الكثرة الكبرى من غزل صاحبنا تحمل طابع الغزل

التقليدي ، فحبيبه غزال في لفتته ونظراته ، وبدر في سيمائه وطلعته ،

و « لأم عذاره لأم تعليل » لأنها أعلت محبة المسكين . وخصره

« خفيف طبع مبتلى بثقل » ..

أما هو « فقلبه مأسور » إلا أن « دمه طليق » وقد « سال ،

فقال الناس سال العقيق » . وهو يبكي بكاء يعقوب على حبيبته الذي

أعاد على الناس عهد يوسف وجماله الرائع البارع .. وهكذا .. ولكن

يخيل إلي أن هذا النسيب على ما فيه من معاني مكررة وخواطر

(١) في الديوان (ذكراك) وربما كان الصحيح ما أثبتناه .

مبتذلة وتشابيه واستعارات مألوفة جدير بأن يقرأ لسلامة أدائه
ولطف خياله وصفاء ديباجته ، اسمعوا هذه الآيات :

آرام وجرة لا يدون قتلهم	وأسيرهم لم يرج فيه سراح
لما رأيت أكتفهم محمرة	أيقنت أن دي بن مطاح
بشراك يا من ذاق برد ثغورهم !	أعرفت ما روح الهوى والراح ؟
ونعمت يا من شم طيب خدودهم !	أرأيت كيف الورد والتفاح ؟
لي فيهم الرشأ المخادع في الهوى	ضدان فيه سلاسة وجراح
لا تحسبن لآلئاً في خده	لكنه عرق الحيا الرشاح
حسن الدلال ممنع إحسانه	سمح الخدود وما لديه سماح
ووراء مبسمه لقلبي راحة	أشفى بها ولثاته الأقذار
يا أيها الرشأ الأتيلع جیده	لك في الحشاشة مرتع ومراح
قدحت خدودك في فؤادي جذوة	

والورد خير صنوفه القـداح

وأضيق ذرعاً من خلاخلك التي	ضاققت على ساقيك وهي فساح
ماذا يعيب بك النصوح ؟ ثكلته	حاشاك بل غشتني النصاح
يا يوسف الحسن البديع جماله	لي مثل يعقوب عليك نياح
لا ينكر الخالون فيك فضيحتي	إن الغرام لأهله فضاح

فما أشك في أنكم تستطرون هذه الآيات وتمذوقون ما فيها
من لطف وعذوبة وجمال ورقة ، وإن لم يكن فيها ما يدل دلالة قاطعة
على أنها من ذلك الغزل الصادق الذي نقرأه في ديوان جميل بن معمر
أو في ديوان ابن زيدون ، ومثل هذا كثير في غزل الرجل .

أما مديحه فانه مظهر من مظاهر ذكائه الوقاد ، ذلك لأنه ينسج
لكل ممدوح حلة الشفاء والاطراء التي تناسبه ، ويطرزها بالألوان التي
تعجبه وتروقه . ولكن لوناً واحداً لا بد من إضفائه على هذه الحلل
جميعاً ، هذا اللون هو صداقة المترجم لممدوحيه قاطبة - إذا استثنينا
منهم السلطان عبد الحميد - فانه أحد رعاياه المخلصين لا أكثر ولا أقل
ولكنه صديق لكل من عداه من ممدوحيه : هو صديق الشريف
عون أمير مكة ، وصديق آل الرشيد أمراء حائل القدماء ، وصديق
الشيخ خزعل أمير الحمرة سابقاً ، وصديق غيرهم من ممدوحيه . وهو
يتحدث عن هذه الصداقة بحذق ولباقة ، فيقول للشريف عون
أمير مكة مثلاً :

لا تعجين كيف أصفيت الوداد لي

وإنما بين داريننا نوى قذف

لأن القلوب لأجناد مجنّدة بأمر خالقها تجري وتأثلف

فما تعارف منها فهو متفق وما تناكر منها فهو مختلف

ويقول للشيخ خزعل أمير المحمرة وابن الشيخ جابر :
يا أمير عليك حق مودةٍ هي كالأخاء وإن تنأى المولد
فأبوك محمود المآثر جابر الـ مولى وووالدي النبي محمد
ثم يعقب على هذه الملاحظة الطريقة بهذا البيت الخالد :

الحب للرجل البعيد مقرب والبغض للرحم القريب مبعّد
وبهذه الطريقة وأمثالها يفهم السيد جعفر ممدوحه أنه صديق
لهم وأن عليهم أن يقفوا منه موقف الصديق من الصديق لا موقف
الممدوح من الشاعر المتكسب الذي يقدم المدحة وينتظر الجائزة .

وتسألوني عن مديحه للسلطان عبد الحميد، ما نوعه ؟ وما قيمته ؟
فأقول لكم : إنه في جملة إطراء فارغ، وتمجيد كاذب، رمى فيه الشاعر
للحصول على راتب ضئيل من السلطان عبد الحميد . وقد سمعت أنه
حصل على هذا الراتب في أواخر أيامه ولكنه لم يتمتع به . بيد أنني
لا أود أن أترك هذه المرحلة من الحديث دون أن أروي لكم ثلاثة
أبيات كتب بها السيد جعفر إلى السلطان عبد الحميد مع حبة أرز
مكتوبة عليها سورة الاخلاص ، لأن هذه الابيات الثلاثة أنفس
مديح المترجم للسلطان المذكور كله فيما أزعم ، وهذه هي :

يا من له ذلت جبابرة العدا وأطاعه داني الورى والقاصي

لك بيعة في عنق كل موحد
ما إن تزول ولات حين مناص
وجميع حبات القلوب كحبة
وفدت عليك بسورة الاخلاص

* * *

أما وصف السيد جعفر فإنه قليل جداً ، ولكنه طريف حقاً ،
ولعل أروع ماله في الوصف هذه الأبيات التي يصف بها الساعة قال :

وأفرنجية قد آتتني برقص فيه شائبة الغناء
تعلمني وليس لها لسان وتخبرني بأخبار السماء
فكم لامستها من غير عشق فتستر وجهها لا عن حياء
تسير الدهر أجمعه حيناً ولم تتعد حاشية الرداء
لها قتر وليس له ضياء وهل قتر يفيد بلا ضياء
عقاربها تدب بكل فصل وليس تكن حتى في الشتاء

* * *

ومثل نصيب السيد جعفر من الوصف في القلة والجودة ، نصيبه
من الحكم والأمثال ، فإنها قليلة جداً في ديوانه ، ولكن يكفيه أن له
فيها هذه القطعة الرائعة :-

جاز الاساءة بالاحسان إن صدرت من امرئ زلة تدعو إلى الغضب
سجية النخل ، من يضربه في حجر جازاه عن ضربه بالبسر والرطب
كذلك الصدف البحري ، إن فلقوا أعلاه كفأهم باللؤلؤ الرطب

وله حكم وأمثال أخرى قليلة متناثرة في مدائحهم ومراثيه ،
أروي لكم منها قوله :

ولا عجب أن يحرم المال عاقل ويرزقه من ليس تحصي معايبه
فكم عارض يجري على الصخر مأوه
ويهوي بأرض تنبت الشيخ حاصبه !

وقوله من أخرى :

كل إلى آدم بالأصل نسبته لكننا هم الأشخاص تختلف
كالنبت في بعضه شوك يعاب به وبعضه ورده يجنى ويقتطف

سيداتي وسادتي : بهذه الحكم الرائعة أختتم حديثي الليلة عن
السيد جعفر ، على أن استأنف الكلام عنه بعد أسبوع إن شاء الله
الخميس ١٩٤٥/٥/٣



السيرة جعفر

- شعرة أيضاً -

أما في هذه الليلة - سيداتي وسادتي - فأحدثكم عن نحر السيد جعفر وراثته وأسرع فأقول لكم : إنه لا يقول القصائد المطولة في الفخر كما يفعل أبو فراس الحمداني والشريف الرضي وغيرهما من شعراء الفخر ، ولكنه يقول استطراداً أو تمهيداً لبعض أغراضه ، وأكثر ما يفعل هذا في قصائده التي يرثي بها شهداء الطف ، فكان ذكرى أولئك الشهداء الذين كرهوا الذل ، وأنفوا من الضيم ، وجادوا بنفوسهم الزكية ودمائهم الطاهرة في سبيل الحق والكرامة ، توقف بين جوانحه شعلة خامدة ، وتبعث في قرارة نفسه شعوراً كامنأهدأ بحكم الظروف والأحوال ، إلا أنه لا يحس وقع تلك المأساة الهائلة حتى يتحفز ويتوثب ، ويملاً صدره حماسة ونفسه نشاطاً ، وشعره نفراً رائعاً قوياً . ومما هو جدير بالذكر أن الرجل جاد في نخره كل الجدة ، وله فيه رأي ثابت أصيل يؤمن به كل الإيمان ويخلص له

كل الاخلاص ، ويود لو أتيحت له الفرصة لينفذه تنفيذاً كاملاً
دقيقاً ، فهو يكشفك بأن « رئاسة الدين » ثوب فصل له ولا بناء
عمه العلويين ، وأنه إذا كان الناس قد لبسوا اليوم هذا الثوب فهم
إنما يلبسونه عارية ، والعارية مردودة لمن عاجلاً وإن آجلاً :

رئاسة الدين لنا فصلت أبرادها والناس عنها قصارت
إن يلبسوها اليوم عاريةً ففي غدٍ سوف يرد المعار
وهو يشرح لك وجهة نظره هذه في مكان آخر فيقول لك :
إن « أباه محمداً .. صلى الله عليه وسلم - سيد الكل » ، وعلى هذا
يجب أن تكون لأولاده سيادة الكل أيضاً :

وأبونا محمد سيد الكل وأجدر بولده أن يسودوا
نعم ، إن الأيام تحول الآن بين أبنائه وبين التمتع بهذا الحق ،
ولكن السيف كفيل برفع هذه الظلامة ورد الحق إلى أهله ، وقد
علمتم من رائيته التي كتب بها إلى أحد أشراف مكة أنه لا يعبت
ولا يمزح ولا يهيم في وادي الخيال عندما يتحدث عن حق الهاشميين
في الحكم وضرورة استرداد هذا الحق عن طريق السيف . وتسألوني
أن أروي لكم مثلاً من نخره هذا الذي ينذر به الناس يوماً عبوساً
ويعني نفسه إحدى اثنتين هما الأخذ بثأر آبائه وأجداده أو الموت في
ظلال السيوف ، اسمعوا قوله في صدر قصيدة يرثي بها أبا الشهداء :

ألا لاسقت كني عطاش العواسل
 وإن أنا لم أوقد لظى الحرب بالظبا
 تفرسن في المرضعات مهابة
 لمحن على وجهي حماية ضيغم
 فأقتادها بالهاشميين ضمراً
 إذا صيح بالثار في سهواتها
 تخال نعاى تحت أسدٍ ضراغم
 وماهي إلا الخيل تحت البواسل
 زقن إلى الهيجاز فيف الأجادل
 وإذا أنا لم أهض بشار الأوائل
 فلا رجعت باسمي حداة القوافل
 فما حدثهن الظنوف بياطل
 وجراة مقدام وسطوة باسل
 يجن فيملأن القلا بالصواهل
 وقفن إلى الهيجاز فيف الأجادل
 وماهي إلا الخيل تحت البواسل

وقوله في صدر قصيدة أخرى يرثي بها أبا الشهداء أيضاً :

في طلب العز يهون القنا
 ولا يروم العز إلا أنا
 لم يسترح في دهره كاسل
 وإنما الراحة بعد العنا
 لا بد لي في العمر من وقفة
 بين الظبا البيض وسمر القنا
 ستعرف الأعداء وجهي إذا
 نفع القطاميات قد ضمنا
 لا عشت إن لم أستدر للوغي
 رحي سوى الهامات لم تطحننا
 وأنتضيها في وجوه العدا
 بارقة إما لهم أو لنا
 ملوت حتم في رقاب الورى
 يحترم المرء نأى أو دنا
 والعار كل العار موت الفتى
 من غير أن يطعن أو يطمنا

* * *

أنتقل بكم الآن إلى رثائه ، وهذا كثير ، ومن الممكن أن يقسم

أقساماً ثلاثة ، قيل أحدها تلبية لنداء الصداقة وقياماً بواجب
المجاملة ، وثانيها أملاً بالحصول على الجائزة ، وثالثها ترفهاً عن النفس
وتعيراً عن عاطفة حقيقة ولوعة صداقة وطلباً لما عند الله من أجر
و ثواب . وليس من شك في أن رثاء القسمين الأول والثاني عبارة
عن مجموعة معاني مكررة وأفكار معادة وخواطر مألوفة لا يخلو
بعضها من غلو وإسراف ، إلا أنه فصيح اللفظ جميل الأسلوب
تقي الديباجة ، وهو لهذا يستحق أن يقرأ ويستحق أن يروى .
ولا يخلو القسم الثالث من إعادة وتقليد ومبالغة ، إلا أنه يحتوي على
نفثات صداقة كل الصديق أصيلة كل الأمانة ، ولعلي لا أخطيء
إذا لاحظت أن أبلغ رثائه هذا وأصدق نونيته التي رثى بها الأمام
السيد حسن الشيرازي ، وقد أشرت إلى سيرة هذا الامام إشارة
موجزة عند الكلام عن الشيخ محمد أو الشيخ حمادي نوح الذي
خصصته بالحديث الخامس عشر من هذه الأحاديث ، فأقف الآن
قليلاً - إذا أذتم - عند هذا الامام لأقول لكم إنه من أبرز ، بل
أبرز ، فقهاء الامامية في الاثني عشر عاماً الأولى من القرن
الرابع عشر للهجرة ، وأبرز صفاته التي حبيته للنفوس وأكسبته
منزلة سامية جداً هو الكرم ، فقد كان ينفق كل ما يصل إلى
يده من أموال الزكاة والصدقات من العراق وفارس والهند وغيرها .

وكان الشعراء يقدون عليه في «سر من رأى» التي اتخذها مقرآله من مختلف أنحاء العراق فيسمع مدائحهم ويجزل صلتهم وبذلك كانت «سر من رأى» حاضرة الأدب على عهده كما كانت حاضرة العلم.

حدث الشيخ حمادي نوح في ديوانه قال: وفدت على الإمام الشيرازي في «سر من رأى» من الحلة، فبينما أنا ذات يوم في مجلس من مجالس «سر من رأى» إذا برسول السيد يدعوني إلى مقابلته، فلما حضرت عنده ملأ جبي نقوداً فضية وذهبية فخرجت من عنده وأنا أشبه بالأغنياء مني بالفقراء.

ومن مآثره أنه أنشأ جسراً على دجلة بقرب «سر من رأى» أنفق عليه نحواً من عشرة آلاف ليرة ذهباً، وقدمه للحكومة العثمانية، فلم تلبث هذه أن أهملته فصار في مدة قليلة من الزمن أترأ بهمد عين.

وكان عالي الهمة ماضي العزيمة قوي الشكيمة. حدث أن منحت حكومة إيران في أيامه شركة أجنبية حق احتكار التبغ في إيران، وكانت لهذه الشركة مطامع استعمارية خافها الإمام الشيرازي على إيران فلم يتردد في إصدار فتوى قضت على هذا المشروع الاستعماري قضاء مبرماً. وقد توفي رحمه الله سنة ١٣١٢ هـ، فكان لوفاته صدى أسف عظيم في كثير من الأقطار الإسلامية التي تعرف علمه.

وفضله وتكبر زهده وورعه. وُحْمَل من «سُرم رأى» إلى النجف على رقاب الناس تنقله بلدة إلى بلدة وتحمله قبيلة إلى قبيلة، وتسابق الشعراء إلى رثائه، وكان السيد جعفر في طليعة من رثائه، اسمعوا قوله فيه :

يَمْنٌ يَقِيل عَثَاراً بَعْدَكَ الزَّمَنُ ؟ وَمَنْ سِوَاكَ عَلَى الْإِسْلَامِ يَقُومُنْ ؟
يَا شَعْلَةَ الطُّورِ قَدْ طَارَ الْحَمَامُ بِهَا وَآيَةُ النُّورِ عَفَى رِسْمَهَا الزَّمَنُ
الْيَوْمَ مِنْكَ طَوَى الْإِسْلَامُ قَبْلَتَهُ فَاللَّهُ يَحْفَظُ مَنْ أَنْ يَعْبُدَ الْوَثْنَ
لَا صَاحَ بَعْدَكَ جَنْبَ لَانَ مُضْجَعِهِ

ولا رأى الصبح طرف زاره الوسن
تحرروا بك إرقالا ولو علموا
أن السكينة في تابوتهم سكنوا
مدت إلى نعشك الأيمان قاصرة
وما بالرقبات الذل والوهن
أنامل منك بالجدوى مختمة
لك ارتقت ورقاب طوقها من
يا غاديا بقلوب لا يعوج - - -

سـوى الضريح الذي استوطنته وطن
سر الهويناء ، فكم في الحي أرملة
حنت إليك وشيخ شفه الحزن !
رفقاً بأهلك - أغني الناس كله -

فهم يتاماك إن ساروا وإن قطنوا
غذيتهم بأفويق الرشاد كما
يعذي الرضيع بشدي أمه اللبن
عناقتهم سعة الغبراء حين رأوا
قبراً به وجهك الذي مرتهن

فهم بأضيّق من قبرٍ دفنت به كأنهم وهم أحياء قد دفنوا
مضيت أطهر من ماء السماء رداً إذ كل ثوبٍ من الدنيا به درن
ورحت أطيب من رُوح النسيم شذاً

تندى بنفحتك الامصار والمدن
قد كنت كالسيف لكن هاشمي شباً

يقول ما طبعته الهند واليمن
ورأيك الرمح إن ثققت معدته بهزة دق منها الاسمر اللدن
كم بت تسهر والاسلام في سنة مطاعناً عنه من لو أهملوا طعنوا
وكم حميت ثغور المسلمين وهم

ما بين أنياب خمس الأسد لو فطنوا
من للوفود التي تأتي على ثقة بأن واديك فيه العارض الهتن
يلقون في حيك الزاهي عصيهم كأنهم بمحاني أهالهم سكنوا
فينزلون على خصب إذا نزلوا ويظعنون بشكر منك إن ظعنوا
فلا يبذلك ماء الوجه مبتذل ولا بمنك تنكيد ولا من
كأن آباء أيتام الوردى تركوا لهم كنوزاً بسامراء تحترن
تسعى إليهم برزق فيه ما تعبوا كالعشب تتعب في أرزاقه المزن

سيداتي وسادتي : أظن أنكم توافقوني على أن هذه الأبيات

التي اقتطفها لكم من مرثية السيد جعفر للإمام العلوي الشيرازي
- رضوان الله عليه - على جانب كبير من قوة العاطفة وصدق
الاحساس وشدة الانفعال ، كما أنها على جانب كبير أيضاً من سعة
الخيال وعمق التفكير وجودة التصوير وبلاغة التعبير ، فيؤسفني أن
لا أستطيع أن أتحدث إليكم عن رثاء السيد جعفر بأكثر مما تحدثت
به ، وأن لا أروي لكم منه أكثر مما رويت منكم

الخميس ١٠ / ٥ / ١٩٤٥

— (☆) —

الشيخ محمد الخضري حياته وأخلاقه

سيداتي وسادتي :

إذا لم يخطيء ظني فأنا أفاخئكم في هذه الليلة بشاعر لا يخطر
لكم ، أو لا أكثركم في الأقل ، على بال ، ذلك لأنه نسي لسوء
الحظ نسياناً كاملاً وأهمل إهمالاً تاماً منذ أكثر من ستين سنة ،
مع أنه شاعر مفلق وأديب مقدّم وعالم جليل القدر ، ولكن أدركه
ما أدرك كثيراً من علماء هذه البلاد وأدبائها وشعرائها من الخمول
والاندثار . هذا الشاعر العالم الذي ما كان من الحق أن نجهله
أو نتجاهله وأن ننساه أو نتناساه طوال هذه الأعوام هو الشيخ
محسن بن الشيخ محمد الخضري المالكي . وخضري نسبة إلى الشيخ
خضر خامس أجداد المترجم الذي يلتقي عنده بالشيخ جعفر الكبير
صاحب (كشف الغطاء) في الفقه ومؤسس أسرة كاشف الغطاء
الشهيرة في النجف الأشرف . ومالكي نسبة إلى « مالك » وهي
القبيلة العراقية المعروفة . و كان ينبغي أن يكون المترجم من أوائل

شعراء هذه السلسلة لمكانته وزمنه ، لأنه زميل الجبوبي وحيدر سعة
 فضل ووفرة أدب وجودة شعر ، ولأنه أسبق الثلاثة إلى لقاء الله ،
 ولكن كان مالدني من شعره وأخباره قليلاً جداً بحيث لا يكفي
 لتكوين حديث عنه ، فرأيت أن أثير حتى تيسر المادة الكافية
 للبحث عنه . وقد يسّر الله الوقوف على شيء لا بأس به من شعره ،
 ولكن أخباره ما زال قليلة لسوء الحظ ، وتاريخ حياته لا يزال
 مبهماً غامضاً . ومما يؤسف له أن الأمل ضعيف جداً بالحصول على
 معلومات أخرى عن حياته ، لأنني استقيت ترجمته من أقرب الناس
 إليه وأعرفهم به وأشدهم حرصاً على نشر شعره وأخباره .

ولد صاحبنا في النجف الأشرف ، ومع أن الترجمة التي تفضل
 بارسالها إلي ابن أخيه الأستاذ الشيخ عبد الغني الخضري تنص على
 أنه ولد حوالي سنة ١٢٤٥ هـ فاني أميل إلى القول بأنه ولد حوالي
 سنة ١٢٣٥ هـ ، ذلك لأن أقدم كلمة نعرفها له هي هذه الأبيات التي
 يؤرخ بها قصراً بناه علي رضا باشا الوالي والقائد التركي الشهير وهي:
 بعلي كوكب السعد توقّد فاستقام الأمر والمملك تمهّد
 سعدت دار العلاء مذ حاربها وكذلك الدار تشقى ثم تسعد
 فكساها واضحاً من نوره بعدما كانت كجنح الليل أسود
 وبني من فوقها مقصورة في ذراها عندليب البشر غرد

حبذا الروض وقد طاف بها فهي كالدرّة حَفَّت في زبرجد
 وبنفسي قصرها السامي فقد جلّ أن يشبهه قصر مشيد
 لم يكن قصرًا فأرّخ : إنه هو صرح من قوارير ممرّد
 وأنت إذا حسبت تأريخ بناء هذا القصر وجدت أنه بُني سنة
 ١٢٥٦ هـ. ونحن إذا أقررنا ما تقوله الترجمة بشأن ولادة صاحبنا
 كان عمره عندما نظم هذه الأبيات أحد عشر عاماً على وجه التقريب
 وهذا مستبعد. أضف إلى ذلك أن المسألة ليست مسألة نظم شعر
 فحسب، بل إنها مسألة وقوف على الأحوال العامة واتصال بالاوساط
 الرسمية، وهذا مما لا يتيسر لعلام لم يتجاوز الحادية عشرة ولا سيما
 في ذلك العهد، ومن أجل هذا كله يغلب على ظني أن الرجل ولد
 في منتصف العقد الرابع من القرن الثالث عشر للهجرة أو في أوائله.
 ومادمت قد أشرت إلى صلة المترجم بعلي رضا باشا فلا بأس في أن
 أقول لكم إن هذا أقطعه مكافأة على أبياته الآتية الذكر أرضاً واسعة
 المساحة في قضاء الهندية تدعى (الباشية) وهذه الأرض لا تزال
 ملكاً لأولاده، وهكذا وفر علي رضا باشا للمترجم رزقه وأراحه من
 التكسب بالشعر فعاش مكفيّ المؤونة موفور الكرامة.

وقد درس صاحبنا علوم اللغة والكلام، وأصول الفقه على العلامة
 الشيخ مرتضى الأنصاري وعلى تلميذه السيد حسن الشيرازي الذي

ألمنا بتاريخ حياته إلمامة قصيرة في حديث الخميس الماضي ، وأخذ
 الفقه عن النقيين الكبيرين الشيخ مهدي كاشف الغطاء والشيخ راضي
 الشيخ محمد . ومن هنا يتبين لكم أنه كان رجل كلام وفقه علاوة على
 أنه رجل أدب ، ولكن الأخير غلب عليه للملاءمة ذوقه وموافقته
 طبعه . وكان عظيم الصلة بأبناء عمه آل كاشف الغطاء ، يشاركونهم في
 سراتهم وضرائهم ويزف إليهم عرائس شعره كلما دعت الحاجة إلى
 ذلك . هذا إلى أنه كان صديقاً حميماً لآل قزوين ، وقد رثى السيد
 جعفر كبير أنجال الامام السيد مهدي القزويني ، والسيد مهدياً
 القزويني نفسه رثاءً رقيقاً جداً . وتوفي - رحمه الله - فجأة في
 المحرم من سنة ١٣٠٢ هـ .

قلت لكم - سيداتي وسادتي - إن ما وصلنا من أخبار الرجل
 قليل جداً مع الأسف ، وأقول لكم الآن : إن هذه الأخبار القليلة
 تدل دلالة قاطعة على أنه كان سريع الخاطر حاضر البديهة خفيف
 الطبع حلو الحديث والنسكة . فمن أخباره الدالة على سرعة خاطره
 ما رويته لكم في أثناء الكلام عن حياة السيد حيدر بشأن مرثية الأخير
 للسيد جعفر القزويني . ومن قصصه الدالة على حضور بديته أن
 السيد صالحاً القزويني ثاني أنجال السيد مهدي القزويني قال له ذات
 يوم : أحدث أن نظمت شيئاً في عروض الدويدت ؟ ! فقال له :

لم أنظم فيه إلى اليوم ولا سكتي سأنظم لك الآن . وصمت لحظات ثم
أنشده هذين البيتين :

يا من أسر القواد لما ملكا حاشاك بأن يخيب من أملاك
يا مرسل جعده الذي ظللني آمنت بربك الذي أرسلك
ومن نوادره الدالة على سرعة خاطره وعلى خفة طبعه معاً
ما يروى من أنه كان ذات يوم في مجلس من مجالس النجف فدخل
رجل ثقیل الظل ضخمة الجثة يدعى (أمیناً) ، وسأل سائل عن أبي
أمين هذا فقيل له إنه يدعى (عزيز) . فقال الشيخ محسن متندراً
في الحال :

وذي سفه يقول أتى أمين فقلت البغل تدعوه أمينا؟
فقال: ابن العزيز! فقلت: كلا ، وحاشا ، ما عهدت له بنينا .
ولا كن العزيز له حمار ! فصاح القوم: يوشك أن يكونا!
ولما قد انتهى بنا الحديث إلى هزل الشيخ محسن فلأروا لكم
عنه هذه النادرة :

روي أن الأمير نصيف - أحد أمراء ربيعة - مرض فأتى
بغداد للاستشفاء ، وعلم الشيخ عباس كاشف الغطاء أمر مرضه
وقدومه بغداد فذهب إليه من النجف يعود له لوثيقة الصلة القائمة
بينهما . فكتب المترجم إلى الشيخ عباس يقول :

أحماًقاً لا كرخ من نحو الحمى كما يعود به الأمير نصيفاً
مهلاً ، فانك لم تعد ذاعلة إلا وكأت لك الحمام رديفاً
ولكن لعل ألطف شعر المترجم الهزلي وأظرفه رائيته التي وصف
بها قصة الشيخ محمد رضا كاشف الغطاء مع جاره الكردي الفقير
(بحسون) وخلاصتها أن بحسون هذا دعا الشيخ إلى تناول الطعام
في داره يوم عاشوراء ، فاعتذر الشيخ ولكن بحسون أصر ، ولدى
إصراره أفهمه الشيخ ما يأكل عادة ، فاستسهله كثيراً ولم يجد الشيخ
بداً من إجابته ، إلا أنه عاد في اليوم الثاني إلى ضيفه ملتمساً منه أن
يأمر بعض إماءه بطبخ الطعام ، لأن زوجته لا تحسن طبخه ، وأن
يأمر باعارته الأواني التي تلزمه فأجابه الشيخ إلى كل ذلك ، ولكن
حدث أن شجاراً عنيفاً دار بين إماء الشيخ وهن في بيت بحسون ،
فتبادلت اللطم واللكم وتراشقن بالأواني فتكسرت هذه كلها
أو أكثرها . وجاء الشيخ دار بحسون في الموعد المضروب فوجد
صحنها مفطى برضراض صحنونه وأوانيها بدلاً من أن يجد المائدة
الشهية منصوبة ، وقد أترعت بكل ما لذ وطاب . فوصف الشيخ محسن
الذي كان في جملة المدعويين مع الشيخ هذه الحادثة وأضاف إليها من
عنده كل ما يزيد طرافةً وغرابةً وإليكم وصفه هذا على أن

تسأحووني في ما يتخلله من بعض الألفاظ غير القصيدة التي استعملها
الشاعر مدفوعاً بدافع الهزل قال المترجم :

معاشر الناس من عربٍ ومن عجمٍ -

نصيحةٌ ، فاسمعوا نصحي وتحذيري

لا تعزموا الشيخ ، إن الشيخ مقترح

- لدى العزيمة - شرطاً غير مقدور

سلوا به جاره الكردي حين أتى إليه يعزمه في عشر عاشور

فقال: من عادتي أن لا أجيب لها ولست في ترك عاداتي بمعذور

فلم يزل جاره المسكين ملتمساً يرجو الإجابة في ذلٍ وتحقير

ولا يزال لكف الشيخ ملتماً والعين تجري بدمع غير منور

فقال بشراك ، نص دار في خلدي

- وأي نصٍ أتى في الجار مأثور ١

فلا تسؤني بألوانٍ تقدمها تريد في ذاك إعزازي وتوقيري

فأنت جاري ، فلا تسرف بمأدبة فالجار نقبل منه كل ميسور

يكفيك سبع دجاجات تقدمها ، لا يقبل الله تكليفاً بمعسور

وعنبر البوه من فيه بلغتنا ، فاسمع ، تكن خير منهي ومأمور

وفي القليل من السبزي - لو سمحت يمناك - كفت لدينا خير مشكور

فقال : أهون شيء ما أمرت به وبات ليلته في قلب مسرور

لكنه جاءه رَأْد الضحى خجلاً
 فقال: مولاي، طبخ ليس تحسنه
 أجابه الشيخ في لطف ومرحمة:
 فاذهب إلى «قدم» تكفيك كلفته،
 ومذاتي «قدما» يسعى على قدم
 قالت له: هات من سمن ومن بصل
 وهكذا حامض النومي مثلها
 والملح أربع وزنات تقوم بها،
 وفي الطغارين مما جف من حطب
 والماء ستون حملاً فيه تسوية
 واتبع ثلاثة أرتال، يطيب بها
 هذا هو القدر الكافي لحاجتنا
 فلم يزل جارها المغرور ممثلاً
 ومذقضى جارها المسكين حاجتها
 وباع ذلك المكاري الغرّ بغلته.
 وأحرز الشيخ مما كان يلزمه
 وقام ثمة للسودان معترك
 وعندها «فضة» صالت على «قدم»

يلقي عليه حياءً بالمعاذير
 أهلي، وذاك قصور غير تقصير
 للجار عندي ذمام غير مخفور
 فانها ذات معقول وتدير.
 هشت وبشت وأبدت بشر محبور
 مدين مدين، وابشر في تدابير
 فاحفظ وإياك أن تنسى مقاديري
 إذ لم أكن ذات إسراف وتبذير
 قد نجتزي، بعد تقنيط وتقير
 للأمر، من دون إجحاف وتكثير
 طعامنا، من عطورات العطاير
 يا خير جار لنا من جانب السور
 ورب جار لبيت الشيخ مغرور!
 عاث الخراب بيت منه معمور
 ولا أراه على فعل بمأجور
 مؤونة العام رزقا غير منزور.
 على الحكاكة من حول التناير
 حتى علت رأسها ضرباً بكفكير

واستعرضت «قدم» في ظهر طاوتها وجهاً «لقضة» حتى عاد كالقير
وعر بدت «خيزران» غب عولتها كأنها بقلعة صاحت بيا خور
وحين قامت على ساق عويصتهم شبه السخال وأمثال السنانير
هناك «تفاحة» سُجَّت براطمها فأعولت جزءاً إعوال خنزير
سُدت لظى الحرب بين الأم وابنتها

ضرباً على الهام أو فوق المناخير
فالله الله ، كم للصفر من زجل ! كما تمر على سوق الصنابير !
فتلك بالطوس صكّت هام جارتها

وتلك تضرب في كاسات فرفور
وهذه تنحراها بميجنة وتلك تشتد في محراث تنور
فلا ترى قط إبريقاً ومصحنةً وأنقر ياً ومصحناً غير مكسور
رضت جميع أوانهم فما تركوا على الرفوف ولا مشقاب بلور
لهني على كسر البلور حين غدت كلؤلؤ فوق وجه الأرض منشور
تشع في غسق الظلماء ناصعة فينجلي بسناها كل ديجور .
ومذأتى الشيخ يسعى بالعصا مرحاً

- كما سمى قبيله موسى إلى الطور
رأى نجوماً بصحن الدار قد نثرت فقال : جل جلال العالم النوري

إن السما أتخفت داري بهجتها ! ومادري ذاك رضر اض القوارير
 فزجر الشيخ إذ قامت قيامته بصيحة أو هممتنا نفخة الصور
 فقام يجمع شملنا غير مجتمع منها ويجبر كسراً غير مجبور
 فما انقضى الليل إلا أصبحت قدم أذانها نهب أطراف المسامير
 وذاك - لاشك - مما قد جنت يدها

عدواً على الجار بالبهتان والزور
 فقل لحافر تلك البئر مقتنصاً ! لقد وقعت بها يا حافر البير

* * *

وللشيخ محسن نوادر ونكت أخرى عديدة لا يتسع لذكرها
 المقام فالى اللقاء للكلام عن شعره الجدي والسلام عليكم و

الخميس ١٧ / ٥ / ١٩٤٥



الشيخ محسن الخصري

— شعر ٤ —

سيداتي وسادتي :

قلت لكم إن الشيخ محسن الخصري رجل فقه وكلام كما أنه رجل أدب، وإن الأدب غلب عليه لملاءمته ذوقه وموافقته طبعه، وأقول لكم الآن إن حياة الرجل العلمية لم تخل من تأثير غير محب إلينا جداً على حياته الأدبية، ذلك أنها قللت من اهتمامه بشعره فخلته على عدم تنقيحه وتهذيبه من جهة، وعلى عدم حفظه وتدوينه من جهة أخرى. ولهذا السبب تطرق الوهن إلى بعضه وغلب الضياع على أكثره. ولولا مجهود كبير تطوع ببذله ابن أخيه البار الأستاذ عبدالغني، لضاع علينا شعره كله كما ضاع شعر كثير من أمثاله. ولكن لدينا الآن بفضل المجهود الآف ذكره، طاقة لا بأس بها من شعره فيها الغزل وفيها الوصف وفيها الرثاء وفيها غير ذلك من أبواب القريض المألوفة على عهدنا. ويدور كلامنا الآن حول غزله، وأول ما يلاحظ في هذا الغزل أنه لا يشف عن غرام ولا يعبر عن حب ولا يمثل

حياة الشاعر الحقيقية إذا هو تعرض لمجالس اللهو والطرب . ولكنه
جميل اللغة حسن الأداء لطيف الأسلوب ، ومن أجل ذلك يمكن أن
يعتبر من جيد الغزل القديم وطريفه ، إليكم منه هذه الأبيات :

أكأسه من وجنتيه التها ؟ أم من دم العنقود وقد تخضبا ؟
وبالشقيق خده مذهب ؟ أم بدمي لما أطلّ اختضبا ؟
ولست أدري ، أرضاباً أحتسي في سلسبيل ثغره ؟ أم ضرباً ؟
وما دريت ، بشـذا أنفاسه ؟

أم بشـذا المسك ، ذكت ريح الصبا ؟
يسبي الظبا في لفتات جيده في لفتات جيده يسبي الظبا
فلو تراه - إذا تهادى طرباً - رأيت في برديه غصناً رطباً
ولو ترى الأكواب - حين أشرفت -

لقلت : ما رأيت إلا كوكبا
ودون أن يمزجها بريقه هيهات أن أشربها أو يشربا
والراح ما أشرق منها كوكب إلا وفي قم الندى غربا
خير من غزل الشيخ محسن وصفه الذي أعترف أن ما قرأته منه
قليل جداً ، ولكنه إن كان قليلاً في مقداره فانه من النفاسة والأصالة
يمكن ، ولو لم يكن له في الوصف إلا داليتة التي يصف بها الغزال

لكنفى . على أن هذه الدالية لا تخلو من فكاهة ودعابة ، لأنه رثى
 بها غزالاً لجارة من جاراته ، سقط من السطح فذبح ، ولم تأكل
 صاحبه شيئاً من لحمه حزناً عليه . ولكن المترجم يصف فيها ذلك
 الحيوان الجميل وحياته في القفر ورعيه البقول وما تسبغ عليه هذه
 من لطف في الفرو ، وجمال في المنظر ، وشربه الماء في السحر وإمعانه
 أثناء النهار في القفر خشية الصائدين والقانصين ، وتربص هؤلاء به
 وتقلته من أيديهم ، وحسن حيلته وخفة حركته ، إلى آخر ما هنالك ،
 وصفاً لم يسبقه إليه أحد ، وإليك مثلاً من هذه القصيدة الرائعة ، قال :

أيها الظبي كنت غير بعيد	تقضم الشيخ من بطاح زرود
تتملى الريسم والعيش غص	صفوه لا يشاب بالتنكيد
لست تنفك بين غص ورود	تهادى وبين عذب برود
وبتلك الشعاب سقياً ورعياً	طالما نلت غاية المقصود
يا لقومي لذي سوائف ^(١) يبيض	ولحاظ مثل الحبار سود
ألبسته الرياض حلة ملك	ثم زرت جيوبها بالورود
فتخطى مشي الزيف إذا ما	ميلت رأسه ابنة العنقود
وغزال أمضى من السهم روقاً	كاد يفري القلوب قبل الجلود
ما التقى والسرхан في القفر إلا	كان ذا عزة وبطش شديد

(١) السوائف : جميع سالفة ، وهي مقدم العنق .

حذراً يشرئب من غيلة القا
وإذا كاده العدو اختيلاً
لم يرد مورداً من الماء إلا
فاذا ما تغورت أنجم الليل
ومنهما: -

يا عشيق الملوك إذ كل ملك
لم يزل في طلابه ساهر اللي
فاذا ما اتنى وصفت له الخيل
حالف الكلب في هواه وعاف ال
فهو طاوي الحشا ضئيل من الجو
يتحراه في الظهيرة، لا يع
بات منه بليلة العمود
ل وحيداً وكان جم العديد
ل رأيت المليك بين الجنود
صحب واتثال هائماً في البيد
ع وصاد شرابه من صديد
رف ما الموت، مستظلاً بعود

وهي طويلة ولكن ما بقي منها جار مجرى الهزل والدعابة، فأتركه
منتقلاً بكم إلى رثاء المترجم. وهو كثير، فقد رثي صاحبنا عدداً غير
قليل من علماء عصره وأدبائه ووجهائه ممن تجمع بينه وبينهم صلة
الرحم وصلة الصداقة. والطابع الذي يمتاز به رثاؤه هو الاخلاص،
لانه لا يرثي أحداً طلباً لشكر أو طمعاً في أجر، وإنما يرثي
إطفاءً للوعة في النفس وشفاءً لغلة في الصدر. ولعلي لا أخطيء إذا
لاحظت أن أبلغ رثائه وأحسنه قصيدتان، إحداهما في رثاء السيد

جعفر القزويني المتوفى سنة ١٢٩٨ هـ ، وثانيتها في رثاء والده السيد
مهدي القزويني المتوفى سنة ١٣٠٠ هـ . اسمعوا قوله في الأولى مخاطباً
هلال الحرم الذي اقترن بوفاة الفقيد :

يا هلالاً لم تجله العين إلا طلبها وابل من الدمع طلا
سيم بالذل منك كل عزيز يوم عاد الأعز فيك الأذلا
غالك الخسف من ضئيل مشوم قد تعاليت في السماء محلا
كان أولى بك الحضيض ولو كنه ت به عاد صاغراً بك ذلا
لك كالصل تقفة يند أني ما توسمت في وجارك رملا
ولئن كنت في بياضك كالأين هم فهاعدت في الأسود خلا ،
يا ترى العين قد أعدك قوساً فهو يرمي حشا الهدى منك نبلا ؟
فلك السوء طالعا من هلال عابت في الاسلام طرداً وشلا
وقوله فيها مخاطب الفقيد :
يا غياث الصريح لم يلف إلا صخرة أن عندها ثم ولي
برئت ذمة الوفا من خليل لك يسلو شمائلاً ليس تسلي
وقوله في الثانية :

بمن صات ناعيك؟ هلا دري؟! بفرق العلا وبفيه الثرى
لقد غسلوك بماء السما وقد كنت من مائه أطهرا
وقبرك إما سواد العيون وإما سويدا الحشالا الثرى

ومما أحب أن ألم به في هذا الحديث مطارحات أدبية لطيفة دارت بين الشيخ محسن وبين السيد محمد ثالث أنجال السيد مهدي القزويني سنة ١٢٩٨ هـ . فقد اجتاح النجف في تلك السنة طاعون جارف هرب منه كل من استطاع الهرب إلى المناطق الآمنة المجاورة وعاش كثير من الناس تحت الخيام . وكان الشيخ محسن في جملة الهاربين من الطاعون ، ولكن السيد محمداً القزويني - رحمه الله - أثر البقاء في النجف فكان خير عون للفقراء الذين لم يتيسروا لهم الفرار من وجه الطاعون ، يهيء الطعام والدواء لمرضاهم والأكفان والقبور لموتاهم ويعول أراملهم ويتألمهم . وقد دارت بينه وبين الشيخ محسن بهذه المناسبة رسائل طريفة بعضها منظوم وبعضها مشثور ، أقطف لكم بعضها في ما يلي - قال القزويني يخاطب الشيخ محسن :

لو تراني يوم قد فر الألى عن حمى المولى قبلاً فقيلاً
مفرداً أسلمه أصحابه رأيت القوم يوم ابن عقيل (١) ؟
فاذا أنكرتني أبصرتني معلماً أرقل قدام الرعيل
فعلى هذا أصلي ، وعلى ذاك من أصحابك الترب أهيل
ولذا أدعو : هلموا كفناً ولذا أهتف : يا هل من « غسيل » ؟

(١) يشير إلى تفرق أهل الكوفة عن مسلم بن عقيل رسول الحسين رضي الله عنه إليهم .

دونكم فاتخذوا مرضعة
لرضيع وطعاماً لعليل
لرأت عينك ما سر الحشا
ولعانت على البر تقى
وقال الشيخ محسن يجميه :

أنت يا من شهد المجد له
وإذا ما ثقت معضلة
وإذا جفت أفويق الحيا
وإذا ما قصرت أيدي الورى
وإذا ضاق بهم رحب الفضا
ومقيماً في ثنيات الحمى
راسخاً كالطود لا يقلقه
يا غليلي من جوى وقفته
غرضاً للنبل إذ يرهبه
أبداً ما ضل عن نهج الهدى
فهو إما ناقل أقدامه
حسبك الله وقد فر الأولى
حدجوا العيس فما أمرها
أنه فى المجد معدوم المثل
فهو الناهض بالحمل الثقيل
خلف الغيث لدى العام المحيل
لملم فهو ذو الباع الطويل
وسعت همته كل قويل
عند ما أزمعت القوم الرحيل
رهج أو ينثي الطود مهيل
وهي من قلب الهدى تشفى الغليل
كل شههم رابط الجأش نبيل
حين حاد القوم عن قصد السبيل
خلف ميت أو لاطعام لليل
لم يقل قائلهم: صبراً جميل
ساعة السير - وجيفاً وذميل 11

فتنة ضل الأدلاء بها والعذير الله إن ضل الدليل
فتوكلت عليه قائلاً: حسبي الله ويا نعم الوكيل.

سيداتي وسادتي:

بهذا ينتهي الكلام عن الشيخ محسن الخصري، وينتهي أيضاً
هذا القسم من بحثنا عن نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر.
أقول ينتهي هذا القسم ولا أقول ينتهي هذا البحث، لأنني لم أفرغ بعد
من التحدث عن أدبنا في القرن المنصرم. وكل ما في الأمر أنني لا أجد
الآن متسعاً من الوقت لمواصلة التحدث عنه. فأستأذنكم في الوقوف
عند هذه المرحلة من الحديث، على أن أعود إليكم بعد فترة وجيزة
من الزمن إن شاء الله.

الخميس ٢٤ / ٥ / ١٩٤٥



الشاعر العباسي

— أو —

الشيخ عباس النجفي

— حياته وصفاته —

سيداتي وسادتي :

أعود إليكم في هذا المساء بعد انقطاع دام تسعة أسابيع لاستأنف الكلام عن نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر . ويدور حديثنا في هذه الليلة حول شاعر خفيف الطبع رقيق الشعور خصب الخيال تقي الديباجة ، وليس هذا فقط ، بل إنه صبيح الوجه جميل الصوت حسن الغناء أيضاً . هذا الشاعر الذي وهبه الله كل هذه الخلال الطيبة والمزايا الرفيعة هو الشيخ عباس المعروف بالنجفي .

ولد صاحبنا سنة ١٢٤٤ للهجرة ببغداد . وانتقل به أبوه الشيخ علي الذي كان من أولي التقوى واليسار إلى النجف الأشرف سنة ١٢٤٧ للهجرة . ولا تذكر المصادر التي نزوي عنها هذه الترجمة سبباً لذلك الانتقال ، ولكن يخيّل إليّ أنه ناشئ عن سببين - أحدهما

رغبة الشيخ بمجاورة قبر الامام علي عليه السلام وثانيهما عزمه على
 تربية ابنه تربية علمية أدبية صحيحة ، وهذه لا تتيسر على عهده
 - وفي رأيه دون أدنى ريب - إلا في النجف . وقد حصل ابنه فعلاً
 على هذه التربية ، وحصل عليها بصورة تدعو إلى الدهشة وتبعث على
 الإعجاب ، فقد حذق العربية وبرع في فنونها ونظم الشعر ونبغ فيه
 وأصبح من ذوي المكانة المرموقة بين أدباء عصره ولما يبلغ سن الرشد .
 ومما يؤسف له أننا لا نعرف أحداً من أساتذته الذين درس عليهم
 العربية وأخذ عنهم الأدب ، إلا أننا نعرف أستاذه الذي درس عليه
 الفقه والكلام وما لهما من علوم الدين ، وهو العلامة السيد حسين
 الطباطبائي والد السيد إبراهيم الطباطبائي الشاعر الذي سبق أن
 حدثكم عنه . وكان صاحبنا مخلصاً لأستاذه كل الاخلاص ، كما كان
 هذا معجباً به كل الإعجاب ، ومن المفيد أن نلاحظ أن المترجم
 مدائح عديدة بليغة في أستاذه هذا ، أروي لكم منها هذين البيتين
 اللذين قالهما عندما رلیم على شدة إخلاصه له وكثرة ملازمته
 إياه ، قال : -

نفسي فداء سيّد حبّه أعدته ذخرّاً لدى النشاطين
 لا أغروا إن صرت فداءً له فاني العباس وهو الحسين
 وقد غبرا على هذا حيناً من الزمن . إلا أن الظروف شاءت أن

تتطور العلاقة الودية السليمة التي تربط أحدهما بالآخر تطوراً
عجيباً وأن يكتشفها الغموض والابهام حتى تصبح موضوعاً قصصياً
طريفاً تحمل عليه الأقاصيص وتنسج حوله الأساطير، وبيان ذلك
أن المترجم أحب إحدى كرائم أستاذه، ولم يكتمه أمر هذا الحب،
بل إنه كاشفه فيه وطلب إليه أن يزوجه. وعلى هذا يدلنا هذان
البيتان اللذان كتب بهما إلى أستاذه، قال:

يا أيها المولى الذي فاق الورى بماثر ومفاخر لا توصف
أشكو إليك هوى حبيب ظالم عرف الهوى لكنه لا ينصف
وفي هذه المرحلة من علاقة التلميذ بأستاذه تتضارب الأقوال
لتضارباً عجيباً وتتناقض الأخبار تناقضاً غريباً، فقد قيل إن
الأستاذ أبى أن يزوجه تلميذه لأن منزلته لم تكن تسمح بذلك،
وهذه هي رواية «العراقيات». وقيل إن الأستاذ لبى طلب تلميذه
وجمع بينه وبين حبيبته فعاشا مدة من الزمن عيشة زوجية سعيدة،
وهذه هي رواية «الدرر البهية»، وهو كتاب مخطوط لأديب من
آل بحر العلوم عني بسيرة الشيخ عباس وشعره وقصة غرامه وزواجه
عناية خاصة. وقيل إن الأستاذ كان على استعداد لتلبية طلب تلميذه
إلا أن ابنه الأربعة - وبينهم السيد إبراهيم الشاعر المعروف -
أقنوا من هذه المصاهرة، فأهانوا المترجم وضربوه ضرباً مبرحاً

لحملة على الكف عن طلب يد شقيقتهم ، فلما اتصل بالدهم خبر
اعتدائهم عليه حزن لذلك حزناً شديداً وعدّ عملهم فضيحة لا مجال
للتخلص من عارها إلا بالخروج من النجف . فهدأه كبار البلد
والتسوا منه أن يعدل عن هذه الفكرة ، ولكنهم أشاروا على أولاده
بمغادرة النجف مؤقتاً ، فغادروها إلى جهات مختلفة . وتضيف هذه
الرواية إلى ما تقدم أن السبب الحقيقي الذي دفع أبناء السيد حسين
إلى الاعتداء على الشاعر هو أن والدهم كان قد تزوج شقيقته ، وأن
هذه حظيت عنده حظوةً باعدت بينه وبينهم (١) . فأرادوا أن
ينتقموا منها باهانة أخيها وضربه والحيولة بينه وبين شقيقتهم ؛ وقد
أخذت هذه الرواية لي عن أديب من آل بحر العلوم . ولكن لنطرح
هذه الأخبار المتناقضة جانباً ، ولنسأل شعر المترجم عن الحقيقة ،
فاننا نعلم منه أن حب الشاعر لابنة أستاذه خلق له المتاعب وعرضه
لشيء من المذلة والهوان :

أست بكم أكابد كل هولٍ وأحمل في هواكم كل هون ؟
ونعلم منه أيضاً أن هذا الحب كان في أول أمره متبادلاً ،

(١) في ما بقي لنا من شعر الشيخ عباس قصيدة بهتت بها أستاذه السيد
حسين بمناسبة اقترانه بشقيقته مطلعها :

منحتك من بعد الصدود وصالها وأتتك تسحب في الدجا أذيالها

إلا أن الفتاة عدلت عن المضي في سبيل حبها إلى النهاية لأنها أدركت
ما ينشأ عن ذلك من الأخطار :

بنفسي من وفيت لها وخانت وأين أخو الوفاء من الخؤون؟
وكنت أظن أن لكم وفاءً لقد خابت - لعمر أبي - ظنوني
ونعلم منه كذلك أن زواج الشاعر بحبيبته كان متعذراً ، لأن
أهلها لا يعتبرونه كفواً لها :-

وإن يك دونها شرفي فاني لأحسب هامة العيوق دوني
فمن مثلي يوم غي وجود ؟ وأي فتى له حسبي وديني ؟
ويتبين لكم - يا حضرات السيدات والسادة - من هذا أن
رواية « الدرر البهية » القائلة بزواج المترجم وظفره بالحياة الهنيئة
السعيدة مكذوبة تماماً ، وأن الروايتين الأولى والثالثة لا تخلوان
من الدلالة على بعض الواقع .

وتوفي الشيخ عباس - رحمه الله - سنة ١٢٧٤ للهجرة ولما
يتجاوز الثلاثين من عمره .

سيداتي وسادتي : هذه هي حياة الشيخ عباس الشاعر العاشق
وتلك هي قصة غرامه على الأجمال . أما صفاته فإن المصادر التي أخذنا
عنها أخباره لا تعرف عنها شيئاً . إلا أن صديقه الحميم عبد الباقي
العمري يلقى عليها ضوءاً كافياً في قصائده ومقطوعاته التي كان يقولها

فيه متغزلاً به ومادحاً له في وقت واحد . وعلى هذه القصائد وتلك
المقطوعات كان اعتمادنا في ما قررناه في صدر هذا الحديث من أن
المرجم كان جميل الصورة رخم الصوت حسن الغناء ، وعلى هذا
المصدر أيضاً نعتمد في ما نقرره الآن من أنه كان آية في الذكاء
ومثلاً في النبوغ المبكر ، ومن أنه لم يكن يتحاشى شرب الخمر ،
وليكلم البرهان على ذلك من شعر عبد الباقي . قال العمري .

سـمـيَّ عم النبي	وابن الوصي عليَّ
عباس من راح يسعى	على صراط سـوي
حيّ ، فأحي قلوباً	إذ جاء من خير حيّ
وقد تروى أوامى	منه بعذب رويّ
تراه بالفضل شيخاً	والسن سن الصبيّ
يزري بثر ونظم	بالمترضى والرضيّ
فان جهلت علاه	سل عنه أهل الغريّ
يشجي إذا ما تفنى	بالشعر قلب الشجيّ
وينثني بقـوام	يميس كالسمهريّ
واليته فأراني	هواه فضـل الوليّ
من راح يشري هواه	يديع رشداً بغيّ

وقال من قصيدة في المترجم :

لي الله من ذي منطق أعجز الوري وألسنة الافصاح عنه غدت لكننا
« حبيب » إذا أنشأ ، « صريع » إذا انتشى ،

« بديع » إذا وشى « غريض » إذا غنى (١)

ومفتقر « مغني البديع » للفظه يعلم في إعرابه معبد اللحن
ترعرع في حجر النجابة وانتى من المجد قبل المهدي متخذاً حضناً
بلاغته قبل البلوغ قد انتهت إلى غاية ، سل عن بدايته منّا
تسامى على الأقران فهو أجلاهم وأكبرهم عقلاً وأصغرهم منّا
وأكثرهم فضلاً وأفرطهم ذكاً وأنقدهم فكراً وأشجذهم ذهنًا
فواضح أن المثال الأول ينص على أن المترجم نبغ في سن مبكرة
جداً ، وأنه كان وسيم الطلعة جميل القسمات رخيم الصوت حسن
الغناء جم الفضل غزير الأدب عذب البيان عالي المنزلة ، وأن المثال
الثاني يؤيد أكثر ما ورد في المثال الأول ، ويضيف إليه أن الشاعر
كان يعربد أحياناً عريدة مسلم بن الوليد . وقد أشار عبد الباقي إلى
وسامة المترجم وإلى غرامه بحبيته في صدر هذه النونية ، فقال :

(١) المراد بحبيب : أبو تمام حبيب بن أوس . وبصريع : صريع الغواني
مسلم بن الوليد . وببديع : بديع الزمان الهمداني . وبغريض :
الغريض المغني المشهور .

بروحى غريراً ، بالرصافة قلبه ، لدى ظمية لمياء خلفه رهنا
وقال به بالكرخ علم أهله فنون جنون ، وهو في غيرهم جناً
له في الهوى العذري عذر إذا لوى

لبان اللوى عطفاً وحن إلى المغنى
أنشجيه سمعدى والرباب ، ولأنه يحاول أن يقضي اللبانة من لبني ؟
فأكبر الظن أن العاشق المعشوق والمحـب المحبوب الذي تصفه
هذه الأبيات إنما هو الشيخ عباس نفسه ، لأن هذا الوصف لا ينطبق
إلا عليه ولا يصح إلا فيه .

وتسألوني عن ما انتهت إليه علاقة الشيخ عباس بعبد الباقي ،
فأقول لكم إنها انتهت إلى الفتور فلا نعدم . ذلك لأننا لا نرى
الشيخ عباساً بين مقرضي الباقيات الصالحات التي ظهرت سنة ١٢٧٠
للهجرة وقرظها معظم شعراء العراق ، ولأننا لا نرى في ديوان
عبد الباقي رثاءً للشيخ عباس الذي توفي قبله بنحو من أربعة أعوام .
بقي أن أحدثكم عن شعر الشيخ عباس وهذا ما سأفعله في الأسبوع
القادم إن شاء الله

الخميس ٢ / ٨ / ١٩٤٥

الشاعر العاشق

— أو —

الشيخ عباس النجفي

— شعره —

سيداتي وسادتي :

حدثكم في الأسبوع الماضي عن حياة الشاعر العاشق الشيخ عباس النجفي وصفاته ، وأحدثكم الليلة عن شعره . وما وصلنا من هذا قليل لسوء الحظ ، ولكن ليست العبرة بالكم ، إنما العبرة بالنوع . وشعر الشيخ عباس من هذه الناحية كبير القيمة ، جزيل الفائدة ، خليق بأن يقرأ ، وخليق بأن يروى . ولكم أن تقولوا : وما مصدر قيمته ؟ وماذا فيه من عناصر الجمال التي تغري بقراءته وروايته ؟ وفي الجواب عن ذلك أقول : إن أهم ما فيه أصالته ، وهذه تتجلى في نواحي عديدة من شعر الرجل ، أولها غزله بحبيبته التي سحرت له وقيمت قلبه ، ثانياً حنينه إلى بغداد التي يظهر أنه قضى فيها أياماً كلها لذة وسرور ، ثالثاً وصفه ببعض مجالس اللهو والطرب التي كان يختلف

إليها من حين لآخر - إذا صدقنا شهادة عبد الباقي في هذا الصدد ،
وما أظنها إلا صادقة - رابعها نخره الذي ينوه فيه بفضله وأدبه
ويشيد بعلمه ورجاحة عقله وفصاحة لسانه ، وأنا عندما أصف نخره
هذا بالأصالة أستثني بالطبع نخره الذي يتشدد فيه بقدرته على الجلاد
والطراد وشجاعته في ميادين القتال والنضال . فليس من شك في أن
نخره هذا محض ادعاء ، ولن أروي لكم منه شيئاً ، كما أنني لا أريد
أن أروي لكم شيئاً من مديحه وما يجري مجراه من كلامه الذي
لا ألمس فيه أصالة ولا صدقاً . وهاكم ما أختار لكم من شعره الذي
أحس فيه الأصالة والمس في طياته الصدق والاخلاص . قال يتشوق
إلى بغداد ويصف مجالسه فيها ويتغزل ببعض حسانها ويطري
أخلاقه :-

تذكرت بالزوراء عهداً تقدما فسالت دموعي عند ذكراه عندما
وكم لي على الزوراء حسرة مفرم !

وهل حسرة تغني على البعد مفرم ؟ !

ومنها :

لعل زماناً بالرصافة عائد وهل نافع قولي لعل وليتما ؟ !
سقاها الحيا ، ما كان أطيبها لنا ! ...

وما كان أهنأ العيش فيها ، وأنعم ! ...

ونسلم في أرجائها نفس الصبيا

يضوع أريج المسك من حيث نسما

فيا طالما دهري بها كان مشرقاً وإن هو أمسى بعدها اليوم مظلماً

ليالي بتنا لا نراقب عندها رقيقاً ولا نخشى وشاةً ولوما

يدير علينا الراح ساق تخاله إذا لاح والأقداح، بدرأ وأنجما

أغر أعار البدر والشمس طلعةً وأعطى المها والبرق لحظاً ومبسم

رشاً علم الغصن التثني قوامه وهاروت فن السحر منه تعلم

رقيق الحواشي يكلم اللحظ خده ويؤلمه مر الصبا إن تسما

إذا ما شدا أنساك ألحان معبد ومزمار داود إذا ما ترنما

ألا من عذيري من غريب أعارني سقاماً، بلى والحب إن صح أسقاماً؟

تبجني فأصمى من فؤادي صميمه غزال على قتلي ألح مصمما

يرى في الهوى قتلي لديه محلا ووصلي - ليهن الشامتين - محرما

فيا لفؤاد غادرته يد الهوى للحظ عيون العين نهياً مقسما

ومن ذالاً جفان على السهد عودت وحاربها طيب الكرى أن تهوما

ومنها :

جهلت الهوى يا مي - لو تعلمينه - عذرت أختا البلوى ولت الملوما

ولو ذقت منه بعض ما ذقته لما عذلت ، وأيقنت الملامة مأتما

ألم تعلمي أنني - وإن جئت آخرآ - إذا عد أهل الحب كنت المقدما

أما والهوى العذري حلقة صادق يبر إذا آلى يميناً وأقسما
لئن خاني في الحب من لا أخونه فودي له هيات أن يتصرما
أُسَام مثلي وهو للود حافظ ؟ كفى المرء ذلاً أن يود ويسأما
لما الله دهرًا لو أصابت يلماً^(١) حوادثه يوماً له مدت يلماً
يغالب مني أغلباً لبس تنشي عزائمه أو ينشي الليث محجبا
أيحسبني أرضى بعيش مذم ؟ وما الموت إلا أن أعيش مذمما
ولي نفس حرٍ لورأت أن ريهما يشاب بضيم لاستمرت على الظما
وهنا ترتفع حماسة الشيخ عباس إلى درجة تذكرنا معها حماسة
ابن كلثوم وعنترة العبسي . وقد وعدتكم أن أعفيكم من نخره الذي
هو من هذا القبيل لأنه - في ما أزعم - كلام فارغ ، فأبر بوعدي
لكم . ولكن الشيخ عباس يعود إلى الاعتدال بعض الشيء بعد أن
يشور هذه الثورة الصاخبة فيعقب على حماسته تلك بكلام قد لا يستكثر
على مثله ، وها هو :

لي الله كم لي وقفة بعد وقفة مع الدهر ردت ساعد الدهر أجذما
على أنها الأيام - لا دررها - إذا منحتك الشهد دافته علقما
وقال متغزلاً من قصيدة :

يا خليلي والهوى خلياني إن مثلي على الهوى لا يلام

(١) يالم : اسم جبل في الحجاز .

واسعداني على البكا ، نجفوني
 لست أصغي لا والهوى لمدول
 يا حبيباً قتلي لديه مباح
 منك شمس الضحى استمدت سناها
 لي قلب يغوى بحبك ، مهما
 يعذب اللوم فيك وهو عذاب
 وقال يتشوق إلى بغداد :

يؤرقني في الدوح نوح حمامة
 ويقلقني ذكر الرصافة كلما
 وقال متغزلاً :

بأبي أنت ، إن تسل عن مغنا
 أنت أدللتني ، وكنت عزيزاً ،
 وقال متغزلاً :

إلى مَ تسر وجدك وهو بادٍ ؟
 وتحفي فرط حبك خوف واش ؟
 ولولا الحب لم تك مستهاماً
 وإن فاحت على الأغصان ورق
 تحن لها وإن لحّت اللواحي
 وتلهج بالسلو وأنت صب ؟
 وهل يخفى لأهل الحب حب ؟
 على خديك للعبرات سكب
 يحن إلى الرصافة منك قلب
 وتذكرها وإن غضبوا فتصبوا

نعم شب الهوى بمحشاك ناراً
تشب ومنزل الأحياب دان
أجل ، بان التجلد يوم بانوا
فلي من لاعج الزفرات زاد
وبين القلب والأشجان سلم
وليس هوى المها إلا عذاباً
وقال متغزلاً أيضاً :

فلقد كان بها العيش رغيداً
أنجز الدهر لنا فيها وعوداً !
وسحبنا للهوى فيها بروداً !
من عميدٍ ، واله القلب عميداً !
فعدا يسمي على الرغم مسوداً !
أخجلت عين المها عيناً وجيداً
جرحت الحاظنا منها الحدوداً
بأفاعٍ أرسلتهن جموداً
من لحاظٍ توردهن الحنف الأسوداً
جحدت ودي ولم ترع العهوداً
كنت من وجنتها أجني الوروداً

حبذا العيش بجرعاء الحمى
لا عدا الغيث رباها ، فلكم
ولكم فيها قضينا وطراً
يارعى الله الدمى ، كم غادرت
ولكم قاد هواها سيداً
وبنفسى غادة مهما رنت
جرحت الحاظها الأحشاء مذ
رصدت كنز لثالي ثغرها
وحمت ورد لماها بظبياً
يارعاها الله من غادرة
منعت جفني الكرى من بعدما

ما الذي ضرك لو عدت فتى
وتعطفت على ذي أرق
جدت بالنفس وضنت باللقا
يا زولا بزود ، وهم
قد مضت يمضاً ليالينا بكم
كنت قبل البين أشكو صدكم
هل لأيام النوى أن تنقضي؟
أوقد البين بقلبي جذوة
ناشدوا ريح الصبا عن كفي
شدة ما كادت من يوم النوى
أنا ذاك الصب والعاني الذي
حدث عن نهج الهوى (١) يا مي إن

عدّ أيام اللقا يا مي عيدا؟
لم تذق بعدك عيناه الهجودا؟
فبفيض الدمع يا عيني جودا
بحمى القلب وإن حلوا زودا
فقدت بعدكم الأيام سودا
ثم بنتم فتمنيت الصدودا
ولأيام تقضت أن تعودا؟
كلما هبت صباً زادت وقودا
إنها كانت لأشواقي بريدا
إنه كان على قلبي شديدا
بهواكم لم يزل صباً عميدا
حدث عن نهج الهوى (١) يا مي إن

وإذا ما أخلق النأي الهوى
لم يدع بينكم لي جلدأ
بي من الأشجان ما لو أنه
لو طلبتم لي مزبداً في الهوى

أنا حاولت عن الحب محيدا
فغرامي ليس ينفك جديدا
ولقد كنت على الدهر جليدا
بالجبال الشم كادت أن تميدا
ما وجدتم فوق ما في مزبدا

(١) هكذا يروى ، وربما كان الصحيح « هدى » أو « وفا » .

وأخيراً هاكم هذه القصيدة التي لا أغلي إذا قات لكم إني
لا أعرف لجميل بن معمر شيخ المحبين قصيدة أحفل منها بالعواطف
الصادقة وأغنى بالأحاسيس والمشاعر الرقيقة ، قال المترجم :

عديني ، وامطلي وعدي ، عديني	وديني بالصباية ، فهي ديني
ومني ، قبل بينك ، بالأمانى	فان منيتي في أن تبيني
سلي شهب الكواكب عن سهادي	وعن عدي الكواكب فأسأليني
صلي دنفاً بحبك ، أوقفته	نواك على شفا جرف المنون
أما وهوى ملكيت به فؤادي	وليس وراء ذلك من يمين
لأنت أعز من نفسي عليها	ولست أرى لنفسي من قرين
أما لنواكم أمد فيقضى ،	إذا لم تقض عندكم ديوني ؟ !
وكنت أظن أن لكم وفاء ...	لقد خابت - لعمر أبي - ظنوني
هبوني أن لي ذنباً - ومالي	سوى كلني بكم ذنب - هبوني
ألست بكم أكابد كل هول	وأحمل في هواكم كل هون ؟ !
أصون هواكم ، والدمع يهمني	دماً ، فيبوح بالسرى المصون
وتعذلي العواذل إذ تراني	أكفكف عارض الدمع الهتون
أعاذتي ، دعي عذلي ، وذوقي	بهم ما ذقتُه ، ثم اعذليني
يميناً لا سلوهم يميناً	وشأت إن سلوهم يميني
إذا ما الليل جن بكيت شجواً	وطارحت الحمام في الفصون

ولو أبقت لي الزفرات صوتاً
 لأنفس من وفيت لها وخانت
 أضن على النسيم يهب وهنا
 وإن يك دونها شرفي فاني
 ومن مثلي يوم وغى وجودي
 وأي فتى له حسي وديني؟
 لأسكت السواجم بالحنين
 وأين أخو الوفاء من الخؤون
 بريها ، وما أنا بالضنين
 لأحسب هامة العيوق دوني
 سيداتي وسادتي :

لعلكم تلاحظون أنني أكثر من إيراد الشواهد في هذا
 الحديث ، فأحب أن أقول لكم إن سبب هذا هو رغبتي في إيراد
 أكبر قدر ممكن من شعر الشيخ عباس في هذا الحديث الذي أختتم به
 الكلام عن حياته وعن شعره والسلام عليكم و

الخميس ٩ / ٨ / ١٩٢٥



أبو الثناء الألوسي نشأته وحياته

سيداتي وسادتي :

« هذا شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، هدى للناس وبينات
من الهدى والفرقان ». وقد رأيت أن أخلم على أحاديثي عن نهضة
العراق الأدبية في القرن التاسع عشر لونا ينسجم وروح هذا الشهر
المبارك إلى حدٍّ ما ، وذلك بأن أتحدث عن نفرٍ من أئمة الدين الذين
نبغوا في ذلك القرن وامتازوا بمالهم من حياة أدبية خصبة وآثار أدبية
رائعة . وقد لا تتسع المواعيد المضروبة لأحاديثي في شهر رمضان
لإذاعة جميع هذه الأحاديث الأدبية التي أؤرخ بها بعض رجال
الأدب والدين ، وفي هذه الحالة سأواصل إذاعة هذه الأحاديث
بعد انقضاء شهر رمضان ، إذ لم يحل بيني وبين ذلك حائل .
أما موضوع حديثنا في هذا المساء فهو العالم الشهير والناظم النائر
الكبير مفتي بغداد السيد محمود شهاب الدين العلوي الحسيني الموسوي
الألوسي المعروف بأبي الثناء ، تغمّده الله برضوانه .

ولد صاحبنا ببغداد في ١٤ شعبان من سنة ١٢١٧ هـ، وعني والده العالم الزاهد التقي السيد عبد الله بتربيته وتنشئته على أفضل وجه. فلقنه العربية وطرفاً من الفقه الشافعي، ثم إن ظروفًا خاصة حالت بينه وبين تدريسه وتخرجه إلى النهاية، فأخذ يطوف في مدارس بغداد باحثاً على الأستاذ الذي يلائمه ويرضي نهمه العقلي الشديد. وانتهى به الطواف إلى الفقيه الأديب الشاعر النائر علاء الدين أفندي علي الموصلي، فوجد فيه ضالته وظفر عنده بحاجته، ولزمه أربع عشرة سنة، أجازته في نهايتها في كل ما درس عليه من العلوم المعقولة والمنقولة. وكان يوم إجازته يوماً مشهوداً، أقامت فيه السيدة عاتكة - منسئة مدرسة الخاتونية التي تلقى فيها علومه - مأدبة فاخرة دعت إليها عدداً كبيراً من علماء البلد وأدبائه ووجهائه تكريماً له. وكان في جملة من حضر هذه المأدبة السري الثري المرحوم الحاج نعمان الباجه جي، الذي التمس تعيين المترجم مدرساً لمدرسته القائمة في محلة «نهر المعلى» والمعروفة الآن بمحلة «السميع أبكار»، وأجيب ملتزمه، وكان صاحبنا إلى ذلك الحين مدرساً في مدرسة خاله الحاج عبد الفتاح الراوي، وكان خاله هذا مهملًا شؤون مدرسته إهمالاً شديداً. فلما انتقل بطلبته إلى مدرسة الحاج نعمان الباجه جي - وكانت هذه جميلة البناء مجهزة بكل ما يلزم لضمان راحة الطلبة - نظم أحد

طلابه أبياتاً يصف فيها المدرسة الجديدة ويثني عليها ثناءً تُشتمُّ منه
 رائحة التعريض بالمدرسة القديمة التي كانوا فيها . وليس في هذا كله
 بأس ، إلا أن هذا الطالب نحل أبياته المشار إليها أبا الثناء نفسه ، ثم
 رواها في مجلس خاله استفزازاً له وتحريضاً له على الوقعة بابن أخته .
 وبلغ الطالب ما أراد من إثارة الفتنة ، فقد ثار ثائر الحاج عبد الفتاح
 الراوي وقامت قيامته وشنَّ على ابن أخته حرباً شعواء شائعة فيها
 أولاده وأتباعه . ومضى أقرباء أبي الثناء وأعداؤه في خصومته إلى
 حد أنهم أغروا به مفتي بغداد الحنفي والشافعي بحجة أنه هجاها
 هجاءً مرأً ، بل لمنهم ذهبوا إلى أبعد من هذا ، فأوفدوا إلى والي
 بغداد - وهو داود باشا إذ ذاك - مندوباً يقول له : إن شهاب الدين
 الألوسي سبَّ ابن حجر - أحد أئمة الشافعية - علناً في وعظ شهر
 رمضان . ولكن والي داود لم يكن من السذاجة بحيث تخفى عليه
 هذه الأكذوبة ، فنبذها نبذ النواة ، وأبقى أبا الثناء في منصبه . ومع
 ذلك لم يكن الحاج أمين الباجه جي الذي كان من عشاق أدب أبي
 الثناء وعلمه وفضله ليطمئن إلى بقاءه في مدرسة أخيه الحاج نعمان ،
 فطلب إليه أن يستقيل من التدريس فيها ، وذكر له أنه قائم بإنشاء
 مسجد ومدرسة ، وأنه سيطلب تعيينه خطيباً وواعظاً في مسجده
 ومدرساً في مدرسته ، ثم إنه وعده أن يدفع له مرتبته مدة انتظاره .

إكمال المسجد والمدرسة . وأنجز الباجه جي وعوده هذه كلها ، فحسنت
حال أبي الشناء وسمت منزلته .

وفي أوائل سنة ١٢٤٧ هـ دخل علي رضا باشا بغداد عنوةً بعد
أن قمع فتنة الوزير داود وأرسله مخفوراً إلى الأستانة ، وأساء جنوده
السلوك في بغداد فتهبوا الأموال وانهكوا الأعراض ، وطلب سكان
بغداد إلى علي رضا باشا أن يضرب على أيدي جنوده فلم يفعل ، ولم
يكن لهم بدٌّ من أن يشوروا به وبجنوده فثاروا . وكان المترجم زعيم
أهل الكرخ في هذه الحركة ، فقمع علي رضا باشا ثورة البغاددة كما
قمع ثورة داود من قبل ، وألقى القبض على المترجم وجرده من
وظائفه ، ولكنه لم يشأ أن يسلمه إلى سجن عادي يجهل قدره ويسوء
معاملته ، فسجنه عند نقيب أشراف بغداد . ومن الغريب أن هذا
كان قاسياً عليه كل القسوة شديداً في معاملته كل الشدة - إذا
صدّقنا في ذلك ما يقوله لنا أبو الشناء في مقامته الثالثة - وعندما عادت
المياه إلى مجاريها ، أفرج علي رضا باشا عن المترجم وعينه واعظاً
للحضرة القادرية . واتفق أن حضر وعظه في شهر رمضان فأعجب
بفصاحته وسعة حفظه وغزارة اطلاعه ، واستدعاه لزيارته فلبى دعوته ،
ونشأت بين الرجلين صلة ودية وثيقة . وقد وطّد أبو الشناء هذه الصلة

بشرحه (البرهان في إطاعة السلطان) وتقديمه هذا الشرح إلى علي رضا باشا الذي أجاز له عليه بتوليته أوقاف مدرسة مرجان التي لا تعطى إلا للكبير علماء البلد ، وأتبع هذا حمل السلطان على منحه رتبة تدريس الأستاذة . ومن غريب ما حدث لعلي رضا باشا مع أبي الثناء أنه ولّاه الافتاء الحنفي ببغداد مع أنه شافعي لا غبار عليه . ولكن يظهر أن الوالي كان معزماً تشجيع المترجم بكل وسيلة مستطاعة . ووردت أسئلة دينية عويصة من إيران على علماء بغداد أجاب عنها أبو الثناء فكفاهه علي رضا باشا بحمل السلطان على منحه وساماً من أرفع أوسمة الدولة . وهكذا سطع نجم أبي الثناء في سماء دولة علي رضا باشا ، وذاعت شهرته في الآفاق ، وقصده طلاب العلم من أماكن بعيدة يدرسون عليه ويأخذون عنه .

ثم دار الزمان دورته ، ونقل علي رضا باشا إلى دمشق ، وخافه في بغداد محمد نجيب باشا ، وكان هذا منجرافاً عن أبي الثناء ، فأبعده ما وسعه إيماده ، وما زال يتنكر له ويقصيه إلى أن شكاه - أي إلى الوالي - جماعة من التجار ما ينالهم من حيف وعسف على أيدي الموظفين ، فعند ذلك عمد إلى إقصاء أبي الثناء عن إفتاء بغداد وتجريده من أوقاف مدرسة مرجان عملاً بمشورة بطائفة السيئة التي أوهمته أن هذه فتنة خرقاء يقودها مفتي بغداد ، وأن عزله وتجريده من كل

ما في يده هو الوسيلة الوحيدة للقضاء على هذه الفتنة في مهدها .
 وهكذا ساءت حال أبي الشناء سوءاً شديداً وبلغ منه العسر كل مبلغ ،
 حتى باع كتبه وأثاث بيته وعاش بضمنها مدةً من الزمن . إلا أنه من
 المهم أن نلاحظ أن هذا لم يمنعه من المضي في إتمام تفسيره . وفي سنة
 ١٢٦٧ هـ عقد النية على السفر إلى الأستانة ليعمل على رفع ما لحق به
 من الظلم والجور . فسافر إليها في جمادي الآخرة من نفس السنة ،
 وقصد أول ما قصد من أولى الأمر فيها شيخ الاسلام السيد عارف
 حكمة ، وكان هذا ممتعضاً منه بسبب ما بلغه عنه من الأقوال
 المكذوبة ، فاستقبله استقبالاً فاتراً ، ولكنه استطاع بفضل ذكائه
 وحسن تصرفه أن يحمله على تغيير موقفه منه . ولم يطل الوقت حتى
 دارت بين الرجلين مناقشات ومناظرات علمية أوقفت كلاهما على
 فضل صاحبه فتفاهما وتصادقا وأجاز أحدهما الآخر . ونقل أبو الشناء
 إلى دار الضيافة السلطانية ، ثم طلب إليه أن يضع مذكرة بما أقدمه
 الأستانة رفعها إلى الصدر الأعظم ، وهو يومئذ مصطفى رشيد باشا
 الكبير . فوضع أبو الشناء هذه المذكرة وذيلها بييتين ضمتهما قول أبي
 فراس الحمداني : « لنا الصدر دون العالمين أو القبر » ، وإليك
 دينك البيتين :

قصدت من الزوراء صدرًا معظماً وقد سامني ضر وقد ساءني دهر
 فقلت لنفسي والرجاء موفر : «لنا الصدر دون العالمين أو القبر»
 ونظر الصدر الأعظم إلى مذكرة أبي الثناء بعين العطف، فحمل
 السلطان على منحه خمسة وعشرين ألف قرش أي نحواً من أربع مائة
 وخمسين ليرة عثمانية هبة عاجلة، ومثلها مرتباً سنوياً، ومنحه شيخ
 الاسلام خمسين ألف قرش من ماله الخاص، وعرض عليه قضاء
 أرض روم - إحدى ولايات الأناضول - فأباه. وهكذا حسنت حال
 أبي الثناء بعد أن بلغت منتهى السوء وأورق عوده بعد الذبول،
 وعاد إلى بغداد عودة المنتصر الظافر فسر به أهلها سروراً عظيماً وهناك
 الشعراء بقصائد عامرة. وقد دون كل ما حدث له في سفره إلى
 الأستانة في رسالة أسماها (نشوة الشمول في السفر إلى إسلامبول)
 وكل ما حدث له في عودته إلى بغداد في رسالة أسماها (نشوة المدام
 في العود إلى دار السلام). كما أنه جمع ما دار بينه وبين شيخ الاسلام
 السيد عارف حكمة من مناقشات ومناظرات علمية، وأموراً أخرى
 مفيدة حدثت له في أثناء هذه السياحة التي استغرقت واحداً وعشرين
 شهراً في سفر جليل أسماه (غرائب الاغتراب ونزهة الألباب في
 الذهاب والاقامة والاياب) على أن هذه الرحلة الموفقة لم تخل من
 حادث مؤسف تماماً - ذلك هو تعرض المترجم عند عودته إلى بغداد

لمطرٍ شديد في الزاب أدى إلى إصابته بالحمى النافضة التي ما زالت
تعاوده من حين لآخر حتى أودت بحياته في ٢٥ ذي القعدة سنة
١٢٧٠ هـ. فعز فقده على مواطنيه ورثاء الشعراء مرثي كثيرة جمعت
مع ما مدح به من الشعر في كتاب ضخيم مصدر بترجمته، اسمه (حديقة
الورود في مدائح أبي الشفاء محمود). ومن هذه المرثي مرثية رقيقة
للمرحوم عبد الغفار الأخرس مطلعها :

الله يعلم والأنا م شهد
أن الذي فقد الوري لفريد

الخميس ١٦ / ٨ / ١٩٤٥



أبو الثناء الألويسي

— كتبه —

« مقاماته »

سيداتي وسادتي :

حدثكم قبل أسبوع عن نشأة أبي الثناء الألويسي وحياته وتربيته وتعليمه ، وأودّ أن أحدثكم الليلة عن كتبه ، وهما هي مأخوذة عن « أعلام العراق » ومرتبعة حسب ترتيبه :

- ١ - « روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني » : في تسعة مجلدات ضخام ، طبع بمطبعة بولاق بمصر سنة ١٣٠١ هـ .
- ٢ - « الأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية » : « يحتوي على ثلاثين مسألة مهمة في التفسير واللغة والفقه والمقائد والكلام والمنطق والهيئة وغير ذلك ، وردت من إيران ولم يجب عنها أحد سواه . طبع في مطبعة مكتب الصنائع في القسطنطينية سنة ١٣١٢ هـ . »

- ٣ - « نهج السلامة إلى مباحث الإمامة » : « كتب منه وهو

مرئض نحو عشرين كراسة فعاجلته المنية قبل أن يتمه .
٤ - « الأجوبة العراقية عن الأسئلة اللاهوتية » : « ذب عن
أصحاب النبي البررة ، أجازره عليه السلطان محمود جائزة عظيمة ، وطبع
في المطبعة الحميدية ببغداد سنة ١٣٠١ هـ » .

٥ - « النفحات القدسية في الرد على الامامية » : لم يطبع حتى
الآن ، وربما ضاع .

٦ - « شرح البرهان في إطاعة السلطان » : « مخطوط » .

٧ - الطراز المذهب في شرح قصيدة مدح الباز الأشهب :
وهو شرح قصيدة لعبد الباقي العمري ، مطلعها :
جَلَّ سِتْرُ بِهِ الضَّرْحُ مَحْ تَجَلَّلْ إِذْ حَوَى الْفَخْرُ مَجْمَلًا وَمَفْصَلًا
طبع بمطبعة الفلاح بمصر سنة ١٣١٣ هـ .

٨ - « شرح القصيدة العينية » : في مدح الامام علي رضي الله
عنه ، وهو شرح قصيدة لعبد الباقي العمري مطلعها :
أَنْتَ الْعَلِيُّ الَّذِي فَوْقَ السَّمَاءِ رُفِعَا يَبْطُنُ مَكَّةَ وَسَطَ الْبَيْتِ إِذْ وَضِعَا
طبع على الحجر .

٩ - « الفيض الوارد على روض مرثية مولانا خالد » : « طبع
بالحرسة بالمطبعة الكستلية سنة ١٢٧٨ هـ » .

١٠ - « غرائب الاغتراب ونزهة الألباب في الذهاب والاقامة

والايب : تقدم ذكره ، وقد طبع في مطبعة الشايندر ببغداد سنة
١٣١٧ هـ .

١١ - «نشوة الشمول في السفر إلى إسلامبول» : تقدم ذكره ،
وقد طبع في مطبعة الولاية ببغداد سنة ١٢٩١ هـ .

١٢ - «نشوة المدام في العود إلى مدينة السلام» : تقدم ذكره
أيضاً ، وقد طبع في مطبعة الولاية ببغداد سنة ١٢٩٣ هـ .

١٣ - «كشف الطرّة عن الغرّة» : في اختصار درة الغواص
وشرحها ، طبع سنة ١٣٠١ هـ في المطبعة الحفنية في دمشق .

١٤ - «شهى النعم في ترجمة شيخ الاسلام وولي النعم» : والمترجم
هو العالم الجليل شيخ الاسلام عارف حكمة أفندي . وقد هذب
الأستاذ الأثري هذا الكتاب ، فحذف منه وأضاف إليه ، ونشره في
المجلد الثاني من مجلة الزهراء المصرية .

١٥ - «الفوائد السنية من الحواشي الكنبوية» : في الآداب
والمناظرة ، وهي مختصر حاشية مطبوعة جداً للكنبوي على حاشية
مير أبي الفتح . لا تزال مخطوطة .

١٠ - «دقائق التفسير» : مخطوط .

١٧ - «شجرة الأنوار ونور الأزهار» : مجموعة أنساب
لا تزال مخطوطة .

١٨ - «سفرة الزاد لسفرة الجهاد» : «طبع في مطبعة دار

السلام ببغداد سنة ١٣٣٣ هـ» .

١٩ - «بلوغ المرام من حل كلام ابن عمام» : مخطوط .

٢٠ - «شرح سلم العروج» : في المنطق «مخطوط» .

٢١ - «حاشية شرح القطر» : «في النحو» ، كتبها في صباه ولم

يتمها ، ثم جاء ابنه السيد نعمان فآتمها ، وطبعت في القدس سنة ١٣٢٠ هـ .

٢٢ - «مقامات الألويسي» : طبعت طبعة حجرية بكر بلاء

سنة ١٢٧٣ هـ .

وما أعدكم - سيداتي وسادتي - أن أحدثكم عن هذه الكتب كلها أو أكثرها ، فذلك مما لا تتسع له هذه الأحاديث . ولكني سأحدثكم عن طائفة منها ، وأخص بالكلام في هذه الليلة مقامات الرجل : وهي خمس . أوصى أبو الثناء في أولها أولاده ، وأرخ في الثانية والثالثة والرابعة أكبر جزء من حياته ، ورمز في الخامسة إلى يأسه من الناس وقنوطه من أمر الحياة وإقباله على التصوف وفنائه في ذات الله .

ولكن بماذا أوصى أبو الثناء أولاده ؟ ..

أوصاهم أن يكونوا علماء ، حلماء ، أبراراً ، أتقياء ، «يعطون من منع ، ويصلون من قطع ويعفون عن من ظلم» . وأمرهم أن يجدوا

في تحصيل العلم وأن يُحَلِّمُوا علمهم بالأدب الرفيع، كأن يحفظوا نفائس
الأشعار ويرووا طرائف الأخبار. وأوصاهم أن يحذروا الناس وأن
يحذروهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. وهو يصف لهم الناس بالنفاق
والغدر والمكر والدس، وما إلى ذلك، ويذكرهم عبادة الناس للقوة،
فيقول لهم ما مضمونه: أن من يزور السراي في بغداد لا يقل حرمة
بنظر الناس عن من يزور الكعبة، وأن الوزير - أي الوالي - بنظر
البغادة إليه لا أكثر ولا أقل. وهو يؤدبهم بآداب السلطان،
فيقول لهم: إن عليهم - إذا اقتضت ظروفهم أن يترددوا إلى مجلس
الوالي - أن يكونوا حذرين كثيري الصمت شديدي الاحتراس من
مخالفة الحاكم المطلق. ويوصي أبو التناء أولاده أيضاً أن يكونوا
يداً واحدة وأن يوقر صغيرهم كبيرهم وأن يعطف كبيرهم على صغيرهم
وأن يعدوا أخواتهم في عداد بناتهم، أما أمهم فانه يقول لهم إن
عليهم أن يحترموها ويبروا بها على علاقتها، ومن هنا يتبين أنه لم يكن
سعيداً في حياته الزوجية سعادة تامة.

أما المقامة الثانية، فان غرض أبي التناء منها قبل كل شيء شرح
ما لحق به من العنت والأذى على يد خاله وأتباعه، وعنوان المقامة
وحده دال على ما فيها كل الدلالة: «الاعوال من الأخوال».

ولكنه يتطرق إلى نشأته وتعليمه وتربيته فيلخص كل ذلك
تلخيصاً حسناً .

وأما المقامة الثالثة ، وعنوانها « قطف الزهر من روض الصبر »
فإنها مطبوعة بطابع التفاؤل ، يسم في ثناياها الأمل ، وتشيع في طياتها
الثقة ، لأن أبا الشناء كتبها ليصف فيها إقبال الدهر عليه وابتسام
الأيام له في ظل علي رضا باشا الذي اتخذهُ صديقاً حميماً ومستشاراً
أميناً ، يستعين به على حل مشاكل الإدارة والسياسة في هذا البلد
علاوة على اعتماده المطلق عليه في إدارة الشؤون العلمية والدينية .
وهو يذكر هذا ليحمل رجل الأدب والفضل على الاطمئنان لفضله ،
والثقة بأدبه ، والاعتقاد بأنه بالغ قصده ، ومدرِك أمله في يوم
من الأيام .

أما المقامة الرابعة ، فإنها عظة صادقة ينتزعها أبو الشناء من تجاربه
واختباراته ، فهو يوصي بها من يقرأه أن لا يعرفه شيء في هذه الحياة ،
لأن كل ما فيها باطل زائل . ويضرب لذلك مثلاً ما أصابه من شر
بعد خير وعسر بعد يسر ، على يد الوزير محمد نجيب باشا ، الذي حكم
العراق من سنة ١٢٥٨ هـ إلى سنة ١٢٦٧ هـ . ومن المفيد أن أقول
لكم إن معظم المعلومات التي أوردتها في ترجمة أبي الشناء مستقاة من

مقاماته الثانية والثالثة والرابعة ، لا نبي وجدتها أوثق المصادر التي
يمكن الرجوع إليها في هذا المقام .

أما المقامة الخامسة - وهي أطول مقامات أبي النشاء - فإنها
خيالية ، بطلها رجل صوفي يزور أبا النشاء في ساعة متأخرة من ذات
ليل ، وبعد أن يستغفره لمفاجأته بهذه الزيارة غير المنتظرة يحدثه
حديثاً طويلاً ، خلاصته : أن الدنيا شيء تافه ، لا يستحق ما يبذل
البشر في سبيله من جهود وما يتكبد رجاء الحصول عليه من أوصاب
وأتعاب ، وأن الخير كل الخير في درس علوم اللغة والدين والاقبال
بعد ذلك على التصوف والفناء في ذات الله .

وواضح أن ما مر بنا من تلخيص مقامات أبي النشاء يدل على
أنها تحتوي على دروس قيّمة في الحياة والاجتماع . وفي إمكانني أن
أؤكد لكم أنها تحتوي على دروس أخرى من هذا القبيل لم يتسع
الوقت للالام بها . أما أسلوب هذا السفر فانه أسلوب المقامة - سيجع
ملتزم ، ومجانسات ومطابقات ملتزمة ، وتشابيه واستعارات ملتزمة
كذلك . على أن أبرز ما في أسلوب أبي النشاء إكثاره من الاستشهاد
بالشعر ، حتى لقد خيل لي وأنا أقرأ مقامته الأولى أنني أقرأ باباً من
أبواب حماسة أبي تمام أو أبواب حماسة البحتري .

ومما هو جدير بالذكر أن بعض شواهد أبي النشاء في مقاماته

تحمل طابعه وتشفّ عن روحه حتى ليغلب على الظن أنها من نظمه ،
وسأعود إلى معالجة هذه المسألة عند الكلام عن شعره في حديث
آخر طبعاً .

سيداتى وسادتى : لم يبق لى من الوقت ما يمكنى من أن أروى
لكم شيئاً كثيراً من مقامات أبى الشاء ، فأكتفى برواية هذه النبذة
من المقامة الأولى ، وهى :

« يا بني ، ليُوَقِّرْ صغيركم كبيركم ، وليدارِ كبيركم صغيركم .
أخاك أخاك ، إن من لا أخأله كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح
يا بني ، إن مخالفتكم فى هذا أمرى ، تحزنى ، ولو كنت فى
روضة قبرى . فالله الله فى أيمكم ، من نزاع واختلاف يبعث فيكم .
يا بني ، إنى تركت لكم الله عز وجل ، فاهرعوا إليه سبحانه فى
كل ما نزل ، ولا تستكينوا من قلة المال ، ولا تظهروا لأحد سوء
الحال . وكونوا كما قال ابن حذاق العبدى :

وأكرم ما تكون على نفسى إذا ما قلّ فى الأزمات مالى
فتحسن سيرتى وأصون عرضى وتجمل عند أهل الراى حالى »
سيداتى وسادتى : هذا آخر ما يمكنى أن أقوله لكم عن مقامات
أبى الشاء ، فالى اللقاء للكلام عن آثاره الأخرى .

الخميس ٢٣ / ٨ / ١٩٤٥

أبو الثناء اللؤلؤي - كتبه في سياحته -

سيداتي وسادتي :

كانت زيارة أبي الثناء للقسطنطينية حادثاً مهماً كل الأهمية في تاريخ حياته ولا عجب فقد قطع المسافة بينها وبين بغداد في مدة تقارب الأربعة أشهر بتبديء بأوائل جمادى الآخرة وتنتهي في أواخر شهر رمضان ، وهي مدة تكفي للطواف حول العالم مراراً عديدة في هذه الأيام . وقد عرف في أثناء هذه السياحة عدداً كبيراً من العلماء والأدباء والشعراء وغيرهم ، ورأى من مشاهد الطبيعة وشؤون الاجتماع ما لم ير نظيراً له في بغداد . وكان لزاماً عليه .. وهو الحريص كل الحرص على أن يدون كل ما يلفت النظر ، بل الراغب كل الرغبة في الكتابة على أن تيسر له المادة - أن يدون كل ما عرف في هذه السياحة ويؤرخ كل ما شهد . وقد فعل ذلك في كتب ثلاثة أحدها (نشوة الشمول في السفر إلى إسلامبول) . وهو عبارة عن رسالة مطولة بعث بها من الأستانة إلى كبير أنجاله السيد بهاء الدين

رحمه الله ، ووصف فيها سفره من بغداد إلى فروع وما لقي في أثناءه
 وصفاً موجزاً أبرز ما فيه نغمته على كثرة رجال القضاء والافتاء
 والتدريس ، ووصفهم في كثير من الأحيان بما لا يسرهم . ثانياً (نشوة
 المدام في العود إلى دار السلام) وهو نظير سابقه فائدةً وإيجازاً ،
 إلا أن الأول في الذهاب والثاني في الإياب . ويظهر أن أبا الثناء
 كتب هذين الكتابين وسط مشاكل السفر ومشاغله ومشاقه وأتعبه
 ليسجل فيهما خواطره وانطباعاته قبل أن تغيب عن ذهنه ويبعد بها
 عهده ، ولذلك أوجز فيهما إيجازاً تاماً . أما ثالثها فهو (غرائب
 الاغتراب ونزهة الألباب في الذهاب والاقامة والاياب) . وقد
 كتبه عندما اطمأنت به الدار واستقرت به الحال في مدينة السلام ،
 وتأنق فيه كثيراً وصدره بترجمته وتراجم أساتذته وترجمة والده .
 وترجم فيه أيضاً لبعض من لقي من فضلاء الرجال في أثناء سياحته
 كمصطفى رشيد باشا كبير وزراء السلطان عبد المجيد ، وعبد الكريم
 عبيدي باشا والي أرضروم ، وروى ما دار بينه وبين من لقي من رجال
 العلم والأدب في أثناء سياحته من مطارحات علمية وأدبية . وتحدث
 عن بعض المدن المهمة التي زارها ومكث فيها فوصف الموصل
 وأرضروم وسامسون والأستانة ، وأفاض في الكلام عن هذه ،

فوصف رجالها ونساءها ودورها وقصورها ووسائل مواصلاتها ومادة
 بنائها وغير ذلك من أحوالها . وما من شك في أن أبا الثناء وصف لنا
 ما عرفه مباشرة وصفاً ينطبق على الحقيقة ويمثل الواقع تمثيلاً تاماً .
 إلا أنه وصف ما ذكر له كما ذكر له ، مثال ذلك : أنه وصف سكان
 الأستانة على العموم ونساءها على الخصوص وصفاً قد لا يخلو من
 مبالغة في تصوير فضائل القوم ، ولكنه روى لنا في هذا ما سمعه من
 أصدقائه وإخوانه من رجال القضاء والافتاء والتدريس ومن يجري
 مجراهم من أفاضل الناس . فما كان لأبي الثناء أن يتصل بنساء
 الأستانة كثيراً ولا قليلاً ليحدثنا عن شؤونهن على حقيقتها كما
 حدثنا عمر بن أبي ربيعة عن شؤون النساء في عصره . وما كان
 لأبي الثناء أن يتسلل إلى المقاهي والحانات وغيرها من الأماكن
 العامة التي يعرف فيها الجمهور على حقيقته ليحدثنا عن جمهور الأستانة
 بما لا يخالف الواقع . نعم ما كان لأبي الثناء أن يفعل شيئاً من هذا ،
 لأن مركزه يأبى عليه ذلك الآباء كله ولأن تقواه تأبى عليه ذلك
 الآباء كله . ولكنه سأل من حوله من أفاضل الناس عن ما لا يمكنه
 الاطلاع عليه مباشرة فوصفوه له وصفاً نقله لنا بأمانة وإخلاص .
 ومن يدري ، لعل وصف أبي الثناء أخلاق نساء الأستانة
 ورجالها صورة طبق الأصل ، وليكننا نحن أبناء هذا الزمان

لا نستطيع أن نتصور وجود جيلٍ خَيْرٍ يغلب عليه الصلاح وتشيع
فيه المروءة ويتمسك بأهداب الفضيلة تمسكاً تاماً . ومهما يكن من
شيء فإن وصف أبي الثناء الموصل والأستاذة من خير ما في «غرائب
الاغتراب» من الناحية الادبية لأن لم نقل خيره ، ولإيكم هاتين
القطعتين النفيستين من وصفه قال يصف الموصل :

« وهي عذبة الماء ، طيبة التربة والهواء . طعامها هني ، وشرابها
عصري . واسطة البلاد وسرتها ، ووجهها الصبيح وغرتها . تلد الربيع
في السنة مرتين ، فهي بين البلاد أم الربيعين . فأراضيها في فصلين
قد علا جنسها ، وتجرد من عوارض الكدر أنسها ، وهي كالعرائس
في حليها وزخارفها ، والقيان في وشيها ومطارفها ، باسطة زرايتها
وأتماطها ، ناشرة خبرها ورباطها :

كأن نسيم الريح في جنباتها نسيم حبيب أو لقاء مؤمل
... ولعمري إن من اختبر وامتنح ، حكم بأن كل روضة
بالنسبة إلى رياضها خضراء الدمن ، وأنها تنبت العلماء المحققين ، كما
تنبت الأقحوان والنسرين ، وتخرج الأخياري كما تخرج الأزهار ، وهذا
أظهر من الشمس وأقوى تحقّقاً من الأمس ، فلا حاجة إلى التطويل
بإقامة الدليل :

وليس يصحّ في الأعيان شيء . متى احتاج النهار إلى دليل ؟ »

وقال يصف الأستانة بعد مقدمة طويلة :

«... إنها بلدة موفقة الأرجاء ، رائقة الأنحاء ، وربّة رياض
أريضة ، وأهوية صحيحة مريضة . قد تغنت أطيارها ، فتمابت
طرباً أشجارها . وبكت أمطارها ، فتضاحكت أزهارها . وطاب
روح نسيمها ، فصح مزاج إقليمها . وليتك رأيت ما فيها من الرياض
الأنيقة ، والأشجار المتهدلة الوريقة ، وقد ساقط إليهم أرواح
الجنائب ، زقاق خمر السحاب ، فسقت مروجها مدام الطلّ ، فنشأ
على أزهارها حباب كالؤلؤ المنحل ، فلما رويت من الصبأ أشجارها
رنحها مع النسمات المسكية خمارها ، فتدانت ولا تداني المحبين ،
وتعانقت ولا تعانق العاشقين . يلوح من خلالها شقيق ، كأنه جمرات
من آثار حريق . ويتخللها بهار يهر ناظره ، فيرتاح إليه ناظره :
وكانت النرجس الغضبها أعين اليمين وما فيهن غمض
وجلة أمرها أنها نموذج الجنة بلامين ، فيها ما تشتهي الأنفس
وتلذ العين . وكم فيها من حبر راق حبره ، ومن إمام توجت جباه
الاسلام سيره .»

وهنا يفيض أبو الشاء في وصف سكان الأستانة فيصفهم بكلام
بليغ نقطف منه الفقر التالية :

« أطفالهم رجال ، وشبانهم أبطال ، ومشايخهم أبدال . شواهد
مناقبتهم باهرة ، ودلائل مجدهم ظاهرة :

فمن حاتم في جوده وابن مامة

ومن أحنف - إن عدّ حلم - ومن سعد

ثم يستطرق أبو الشناء إلى الثغر فتصوّر البوسفور فمدة الإقامة
فيها ، فوسائل المواصلات ، فمادة البناء الأساسية وهي الخشب وما
ينشأ عنها من كثرة القمل ونشوب الحرائق ، فأخلاق بعض الشطار
فلا يزال يتناول من في الأستانة وما فيها بالوصف حتى يصل إلى
نساءها فيصفهن بالقطعة التالية :

« وفيها من النسوان ، ما يخيل أنهن حور الجنان . . . وفيهن من
عادات نساء الأعراب ، أنهن يبرزن إلى الأزقة بمجرد نقاب . إلا
أنه ألطف من شمائلهن ، وأدعى للصبوة بهن من تمايلهن . فكانه
نسيم هم أن يتجسد ، فمارضه تو قد وجنة الخلد ، وربما يقول ظمآن
النظر إذا أتى منهل مياه خدودهن وورد ، الله أكبر ، كيف نسج
الريح على الماء زرد . وربما ينشد ، إذا ذاق نظره خمر خدها المتورد :

رق الزجاج ورقت الخمر فتشاكلا وتشابه الأمر

فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

ومعظمهن حرائر. وإن لم يحتجبن عن النواظر، فعدم الاحتجاب
عادة قديمة في عُرْب الأعراب، وهن اللواتي لا شك في عفتن،
ولله تعالى در من قال في صفتهن :

هن الحرائرُ لا ربّات أخمرة سود المحاجر لا يقرآن بالسور
وقد حققت أن منهن من لا تخرج من بيتها إلا إلى الحمام، ولا
يحوم عليها طائر نظر أهل الأزقة إلى أن تصير وكرّاً لحمام الحمام.
نعم لا يخلو غيل من واوي، وأبي بلدٍ عريض طويل ليس فيه كلب
عاوي. فالمعول عليه في رداءة البلدة وفضلها، إنما هو عند المنصف
حال غالب أهلها. وحال غالب أهل هذه البلدة في الحسن لا يطال،
وسيان في ذلك على ما علمت النساء والرجال. ويختتم أبو الشناء
وصفه المطول المستفيض للأستانة وأهلها بأبيات لشرف الدين بن
عنين يصف بها دمشق، هي قوله :

أرض إذا مرّت بها ريح الصبا حملت من الأرجاء مسكاً أذفرا
لا تسمعن حديث أرضٍ بعدها يروى، فكل الصيد في جوف الفرا
فارقها، لا عن رضى، وهجرتها لا عن قلى، ورحات لا متخيراً
سيداتى وسادتي : بهذا ينتهي الكلام عن نثر أبي الشناء. فالى

اللقاء للكلام عن شعره.

الخميس ١٩٤٥/٨/٣٠

أبو التناء الألوسي

— شعره —

سيداتي وسادتي :

رأيت في الحديثين الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من هذه السلسلة أن أبا التناء كاتب كبير على نمط بديع الزمان والحريري ، وترون الآن أنه شاعر بليغ ، إلا أنه مقل ، شأنه في ذلك شأن الفقهاء الشعراء الذين يكرسون حياتهم للفقهاء والحديث والتفسير وما إلى ذلك ، ولكنهم يقولون الشعر من حين لآخر لإرضاء حاجة في النفس واستجابة لباعث من البواعث الأدبية والمادية . على أن تترأبي التناء في مقاماته وفي كتبه التي وصف بها سياحته شعر لا يكاد ينقصه سوى الوزن ، فليس من شك في أن قوله في وصف الموصل مثلاً : « وإنها تنبت العلماء المحققين كما تنبت الأقحوان والنسرين ، وتخرج الأخابر كما تخرج الأزهار » شعر لا ينقصه سوى الوزن ، وليس من شك أيضاً في أن قوله في وصف رياض القسطنطينية : « قد تغنت أطيارها ، فتمالط طرباً أشجارها ، وبكت أمطارها ،

فتضاحكت أزهارها ، شعر لا ينقصه سوى الوزن كذلك . وعلى هذا يمكننا أن نقرر أن أبا الشناء شاعر كبير من شعراء عصره ، لأن لم يكن في منظومه في منشوره . وقد رأيت بعض أدبائنا في صدر هذا العصر يُعجبون بسعة خياله وعظم قدرته على استنباط التشابيه والاستعارات للتعبير عن انسلاخ الليل وطلوع الفجر في أحاديث رحلته ، فقد عبّر عن هذا بأكثر من مئة صورة لكل منها جملها ولكل منها روعتها ، وقد لا يخلو من فائدة أن أروي لكم مثلاً قليلة جداً من هذه التعابير للدلالة على تمكن الرجل من ناصية الكلام . قال مشيراً إلى انتهاء ليله في « أندروس » وهي قرية من قرى الأناضول : « ولما ظهر في رقعة شطرنج الليل شاه النهار ، والتقط برّخ فخره أولاً فأولاً ما كان في الرقعة من الأحجار ... » . وقال مشيراً إلى انتهاء ليله في سيواس : « ولما مالت سوارى النجوم للقروب ، ومشت الدجّة من مزيد أسفها عليها الجيوب .

وحاكي اخضرار الفجر صرحاً ممدداً وفيه لآل لم تشن بثقوب » وصوغ عشرات الصور بل مثاتها على هذا النحو دليل ناهض على سعة الخيال وخصب القريحة وعظم المقدرة على التفنن في التعبير . وقد رصّع أبو الشناء نثره بشواهد كثيرة من شعره لم يشر إليها بما يدل على أنها من نظمه زهداً بها أو بالشعر على الأجمال

- لا أدري - فقد كان إفقهاء ذلك العصر يزهدون بالشعر إلى حد ما
 نظراً لاسفاف الشعراء في كثير من الأحيان وتطرقهم إلى موضوعات
 لا يرضاها الفقه لأهلها، ونظراً لاتخاذهم الشعر وسيلة للكسب بصورة
 خاصة . وقد لاحظت وأنا أقرأ مقامات أبي التناء أنني أقرأ شعره في
 ثناء يثره لاني ألمس فيه روحه وأحس شعوره وخياله ، وليكني
 لا أستطيع الجزم بأن هذا الشعر له ، لانه ليس لدي ما يدل دلالة
 قاطعة على أنه من نظمه ، فمن ذلك هذان البيتان اللذان يقرض بهما
 أستاذاه المرحوم علاء الدين أفندي الموصللي وهما :

عباراته في النظم والنثر كلها غرائب، تصطاد القلوب بدائع
 فهن لاجياد المعاني قلائد وهن لاجناد المعالي طلائع
 فأكبر الظن أن هذين البيتين لأبي التناء لانهما يحملان نقشه
 ويمثلان لغته وأسلوبه ولانه لا ينسبهما لأحد سواه ، وليكننا
 لا نستطيع الجزم بهذا ، لأنه ليس لدينا ما يدل دلالة قاطعة على أنها
 من نظمه . ومن ذلك هذا البيت الذي يرصع به حديثه في المقامة
 الثالثة عن اجتياح الطاعون سراة الكرخ وتقدم أهله إياه لهذا
 السبب ، وهو :

خأت الديار فسدت غير مسود ومن الشقاء تفردني بالسؤدد
 فأكبر الظن أن هذا البيت له كذلك ، لانه من وحي ظروفه

والهام الحوادث التي أحاطت به . ولكننا لا نستطيع أن نجزم بهذا ،
لأنه ليس لدينا ما يدل دلالة قاطعة على أنه من نظمه . ومن ذلك هذه
الآيات التي يزین بها صدر المقامة الخامسة التي يشرح بها حاله ويتحدث
عن نفسه ، وهي :

سهرى لتنقيح العلوم ألد لي	من وصل غانية وطيب عناق
ونمائي طرباً لحل عويصة	في الدرس أبلغ من مدامة ساق
وصرير أفلامي على أوراقها	أشهى من «الدوكاه» و«العشاق»
وألد من نقر الفتاة لدفها	نقري لألقي الرمل عن أوراق
يا من يحاول بالاثماني رتبي	كم بين مستفل وآخر راق
أأيت سهران الدجا وتبته	نوماً وتبغي بعد ذاك لحاق ؟

فأكبر الظن أن هذه الآيات له لأنها تحمل طابعه ولأنها تمثل
لغته وأسلوبه ، ولأنها تعبر عن شغفه بطلب العلم ، ولأن البيت الثالث
منها يشير إلى الحنين عراقيين هما «الدوكاه» و«العشاق» ، ومسم
ذلك لا نستطيع أن نجزم بأنها له لأنه ليس لدينا ما يدل دلالة قاطعة
على أنها من نظمه . ومن ذلك هذان البيتان النفيسان اللذان يشير بهما
إلى صحبة قديمة جمعت بينه وبين المرحوم محمود أفندي العمري في
بغداد ، وهما :

وكانت بالعراق لنا ليل
 سرقناهن من أيدي الزمان
 جعلناهن تأريخ الليالي
 وعنوان المسرة والأمان
 ولكن يقال في أمر هذين البيتين ما يقال في الأمثلة السابقة .
 وهناك أمثلة عديدة من هذا القبيل نكتفي بالإشارة إليها . أما ما أريد
 أن ألفت إليه الانظار هنا فهو شعره الذي يقوم البرهان القاطع على
 أنه من نظمه مع أن أحداً من الذين ترجموا له وكتبوا عنه لم يروه
 فيما روى له من الشعر ، فمن ذلك قوله في فؤاد أفندي مستشار
 مصطفى رشيد باشا رئيس وزراء السلطان عبد الحميد :

ولما نظرت إلى المستشار وشمته عليه مدار الأمور
 هفت أنادي بقول صحيح عليه يلوح من الصدق نور
 يليق بذا الصدر هذا الفؤاد وهل غيره لائق للصدور ؟

ولنظم هذه الأبيات في فؤاد أفندي مستشار مصطفى رشيد باشا
 الصدر الأعظم سبب لا بأس بإيراده ، ذلك أن أبا الثناء قرظه ذات
 يوم بقوله « يليق بهذا الصدر هذا الفؤاد » فشاعت هذه الجملة التي
 تنطوي على تورتين لطيفتين في كلمتي « صدر » و « فؤاد » .
 واستحسنها كثير من الشعراء المعاصرين ، وضمّنوها أشعاراً لهم .
 فمن استحسنها وضمّن بها شعره الشاعر المسيحي المعروف بطرس كرامة
 الذي ضمّن بها قوله :

يا حبيذا الصدر الرشيد الذي حازت به الايام أبهى رشاد
كذا فؤاد مستشاراً له لاق لهذا الصدر هذا الفؤاد
ومن استحسنها وضمها شعراً له عبد الباقي أفندي العمري
الذي قال :

فؤاد لصدر الملك لا زال لائقاً وهل لائق للصدر غير فؤاده؟
فذاك وذا جسم وروح تلازما لخدمة ظل الله بين عباده
فلما رأى أبو الثناء استحسان الشعراء كلمته وتضمنهم إياها نظم
الآيات السالف ذكرها مضمناً إياها هذه الكلمة . وأحسب أنه كان
أحسن من أفرغ هذه الكلمة بقال شعري . ومن شعر أبي الثناء في
فؤاد أفندي المذكور يمدحه ويلتمس منه تحرير المرسوم السلطاني
القاضي بمنحه مرتباً من خزانة الدولة :
أرى دولة الاسلام شخصاً ، فرأسه

ملاذ الوري السلطان ، والصدر صدره
وأنت بلا ريب فؤاد ، وحبيذا فؤاد حوى العرفان ، لله دره
إذا ما بدا أمر مهم ، فراه هو الرأي ، والفكر المسدد فكره
فيا سيدي ، قد طال بالعبء غربة فنوا عليه أن يحزر أمره
ليغدو إلى أهليه بالخير داعياً

ويبقى لكم - ما عاش - بالمدح ذكره

ومن شعر أبي الشناء غير المعروف هذه الأبيات التي كتب بها
إلى صديقه عبد الباقي العمري في صدر رسالة :

شكراً ، فكم من فقرة لك كالغنى واتى الكريم بغير مدق
وإذا تفتق نور شعرك ناضراً فالحسن بين مرصع ومصرع
أرجلت فرسان الكلام ورضت أف راس البديع وأنت أجد مبدع
ونفشت في فص الزمان بدائعاً تزي بأثار الريح الممرع
ومن شعره غير المعروف قوله وقد كثر عليه المستجيزون من
طلاب العلم في الأستانة :

ولست بأهل أن أجاز ، فكيف أن أجيز ؟ ولكن الحقائق قد تخفى !
وأضواء فكري قد عرتها حوادث فأونة تخفى وأونة تطفأ
ولولا رجائي منكم صالح الدعا لما رسمت يمناي في مثل ذا حرفا
ومنه أبيات يجيب بها على قطعة كتب بها إليه شيخ الاسلام
عارف حكمة ، يسأله رأيه فيما يأخذه كثير من القضاة من الهدايا
والهبات نظير تمشيتهم أمور الناس . ومع أن أبيات شيخ الاسلام
ليست مما يضرب به المثل للاجادة في الشعر فاني أروها لكم على
سبيل التفهكة ، قال شيخ الاسلام :

يا بحر جود ماله ساحل يقذف بالدر علينا الثمين
ما القول فيما يأخذ حكماً لدى القضا من حجج المسلمين ؟

وصار محصول القضا عندهم
منوا بما يدفع إشكا لنا
وقال أبو الثناء بجيبه :

مولاي ما يؤخذ في عصرنا
فليس للقاضي سوى أجرة الد
ومعظم الحكام يشكوه
غاروا^(١) على مال اليتامى ضحى
إلى أمور عارها ظاهر
قد أوجبت والله أفعالهم
فما يرجح الدين منهم سوى
محرم في شرعة المسلمين
مثل ولكن من سوى القاصرين
- من خبثهم - دين النبي الأمين
فانتهبوا كل نفيس ثمين
أقارب تحريف شرع مبین
في ديننا طعناً من الملحدین
صاعقة تصعقهم أجمعين

* * *

ولسؤال شيخ الاسلام هذا وجواب أبي الثناء قيمة تأريخية ،
لأنهما يدلان دلالة واضحة على فساد ذمم القضاة وسوء حالة القضاء
في ذلك العهد . ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن شيخ الاسلام
أنشد أبا الثناء ذات يوم قوله :

إن الوزارة نعمة ، من نالها
فليشكر المولى ببسط عدالته

(١) الصحيح : « أغاروا » ، ولكن عروض البيت لا يسمح بهذا . على
أنه لو قال « سطوا » لتحاشى الخطأ دون أن يخل بالوزن .

وطلب إليه أن يجيزه ، فأجازه أبو الثناء بقوله :

وليتَّصف بأمانةٍ وبِعِفَّةٍ ولينصرن سلطانَه بصداقته

وبين أبي الثناء وبين شيخ الاسلام السيد عارف حكمة مطارحات
أخرى تبودل فيها منظوم الكلام رأيت أن أضرب عنها صفحاً لأنها
لا تحتوي على شيء يمكن أن يسمى شعراً .

ومن شعر أبي الثناء غير المعروف أبيات أدجها في قصيدة
لجده مطلعها : « أبيت ولي وجد حرارته تعلو ... » لا يمكن أن
نورد شيئاً منها لأننا لا نعرفها بالضبط . وقد خمس عبد الغفار
الأخرس هذه القصيدة ووردت في ديوانه على أنها لأبي الثناء ،
فليلاحظ .

أما شعر أبي الثناء المعروف عند الذين ترجموا له وكتبوا عنه
فهو عبارة عن ستة عشر بيتاً أهمها هذان البيتان اللذان يصف بهما
قصراً لفؤاد أفندي المستشار الآنف ذكره ، وهما :

لقد وصف الرحمن للناس جنةً فشوق من كل العباد نفوسا
وما كنت أدري أن في الأرض نحوها

إلى أن رأينا منزلاً فيك مأنوسا
وهذان البيتان اللذان يصف بهما تمثال امرأة من رخام رآه في

ذلك القصر ، وهما : -

هذه الدار يحاكي
غير أن الحور فيها
حسنها دار السلام
قد تجلت من رخام

سيداتي وسادتي :

بهذا ينتهي الكلام عن أبي الشفاء، وأرجو أن أكون قد أطلعتكم
على ما يهم من تاريخ حياته، وعلى ما يروق من شتره ونظمه،
والسلام عليكم

الخميس ٦ / ٩ / ١٩٤٥



آل قزوين

سيداتي وسادتي :

مضى شهر رمضان ، وانقضت لياليه الطيبة وأيامه المباركة ، ولم أفرغ بعد من كلامي عن أئمة الدين ، الذين امتازوا بمالهم من حياة أدبية في القرن الماضي ، فأتابع كلامي متحدثاً إليكم في هذه المرة ، عن آل قزوين . وهم الذين أشرت إليهم في أول حديث من هذه السلسلة ، وقلت لكم ما مضمونه : إنهم من أعظم أسر العراق العلمية قدراً ، وأجلها شأنًا ، وأبعدها شهرة ، وأبلغها أثرًا على سير الحركة الأدبية في وادي الرافدين . وأعود الآن للتحدث عنهم ، فأقول لكم إنهم رهط من أبناء الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام ، لجأوا في غابر الزمن إلى قزوين ، إحدى مدن فارس ، إلا أنهم عادوا فنزلوا العراق في أواسط القرن الثاني عشر للهجرة ، أي منذ قرنين وبعض قرن . وكانوا في فارس أرباب علم وزعامة دينية ، فصاروا في العراق أرباب علم وزعامة دينية وأدب جم وثرأ عظيم وجاه عريض ، حذق الفقه منهم نحو من عشرة فقهاء أبرزهم وأكبرهم شأنًا السيد باقر

الكبير الذي كان من جلالته القدر وعظم المنزلة الدينية بحيث تروى
 عنه الكرامات ، والسيد مهدي صاحب التأليف الكثيرة والتصانيف
 الجليلة . وقرض الشعر منهم نحو هذا العدد . وأبرز شعرائهم السيد
 صالح ثنائي أنجال الامام السيد مهدي ، وابنه السيد أحمد الوارد
 ذكره وكثير من شعره في « أعيان الشيعة » للعلامة السيد محسن
 الأمين العاملي . ولا تنحصر قيمة هؤلاء الناس في كونهم أرباب
 فقه وأدب ، بل إنها تتمددى ذلك إلى كونهم زعماء حركة أدبية
 واسعة النطاق في أواسط الفرات . فقد كانوا يتزعمون الحركة
 الأدبية في النجف ، كما كانوا يتزعمون الحركة الأدبية في الحلة ، مدة
 بزوغ نجم الامام السيد مهدي وأنجاله الأربعة ، وهي مدة تقارب
 الخمسين سنة ، بتبدى بأوائل الربع الأخير من القرن الثالث عشر
 للهجرة ، وتنتهي بوفاته نجلة الرابع السيد حسين المتوفى في ذي الحجة
 من سنة ١٣٢٥ للهجرة ، والذي كان تأييده آخر موسم أدبي مهم في
 تاريخ هذا البيت . وكانت أفراحهم وأحزانهم طوال هذه المدة مواسم
 أدبية يتسابق فيها شعراء النجف والحلة مسابقات تعود على أدب ذلك
 الزمان بالنفع الكثير . ولعلي لا أخطئ كثيراً إذا قلت لكم ، إنهم
 مدحوا ورثوا وهنأوا بما يملأ مجلدات عديدة من حيث الكم ،
 وبما يمكن أن يعد من عيون الشعر من حيث النوع ، فما أعرف

الشاعر مصري أو سوري من شعراء القرن التاسع عشر رثاء يفضل
 رثاء حيدر والحبوبي لأعيان هذا البيت ، وما أعرف لشاعر مصري
 أو سوري كذلك من شعراء القرن التاسع عشر تهنئة تفوق تهاني
 حيدر وجعفر الحليين ، والقيّم والشببي الكبير لأعيان هذا البيت .
 وإذا كانت التهاني والمدائح مما لا يحفل به مؤرخ الأدب
 كثيراً في هذا العصر ، فإن الرثاء الصادق البليغ المفعم إحساساً وشعوراً
 وعاطفة كرثاء حيدر والحبوبي والشببي والخضري لأعيان هذا
 البيت جدير بأن يستوقف مؤرخ الأدب وأن يستأثر بقسط غير
 قليل من درسه ونقده وتمحيصه ، ولذلك فإن آل قزوين ، يعدون
 بحق من أكبر زعماء نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر .
 والسيد مهدي القزويني وأنجاله الأربعة هم الذين يحملون لواء هذه
 الزعامة كما تقدم ويتولون قيادة هذه الحركة .

وما أريد أن أحدثكم عن السيد مهدي - رحمه الله - على كثرة تشجيعه
 للأدب ، وعلى كثرة ما مدح وهنيء ورثي به من تقيس الشعر لأنه
 رجل فقه وكلام ، لم يعالج الشعر إلا في فرص نادرة في حياته الطويلة
 الحافلة ، ولم يجذ فيه إجادة تذكر . ولكني سأحدثكم عن أبنائه ،
 وأول من أتحدث إليكم عنه هو كبير أنجاله السيد جعفر .
 ولد - رحمه الله - في النجف ، وتأريخ ولادته مجهول مع الأسف ،

ونشأ في ظل والده نشأةً صالحة ودرس علوم العربية والدين ، على
 أساتذة نعرف منهم خاله المغفور له الشيخ علي بن الشيخ جعفر صاحب
 « كشف الغطاء » في الفقه ، والشيخ مرتضى أحد كبار أئمة الامامية
 في القرن الثالث عشر للهجرة ، ووالده . ويظهر أنه أخذ أكثر ما
 أخذ عن خاله المتقدم ذكره ، بيد أنه لم ينقطع للبحث والدرس طوال
 حياته ، لأن هجرته مع أبيه إلى الحلة في منتصف القرن المنصرم
 أفضت إلى اضطراره بواجبات اجتماعية كثيرة لم تكن لتسمح له
 بقضاء وقته كله أو جلّه بين الحبار والدفاتر والأقلام . ذلك لأن
 هذه الهجرة خلقت منه رجل رئاسة دنيوية ورجل عمل يقتني الضياع
 ويمتلك الأطنان الزراعية الواسعة ، وينفق كل ما يصل إلى يده منها
 في ما يعود عليه وعلى بيته بحسن الذكر وطيب الأحودثة ، ويعمل
 ما وسعه العمل على حفظ حقوق الفقراء وحماية مصالح الضعفاء .
 وكانت هذه الظاهرة المشرفة أبرز ما في تاريخ حياته ، وقد سمعت
 الناس يتحدثون بحماسة وإعجاب عن اهتمامه بقضاء حوائج الناس
 والسهرة على مصالحهم بعد مضي عشرات الأعوام على وفاته . على أن
 هذا كله لم يكن ليحول بينه وبين قرض الشعر من حين لآخر ، ولم
 يكن كذلك ليحول بينه وبين مساجلة بعض فضلاء عصره ممن
 تجمع بينه وبينهم صلة النسب بلطيف النظم ونقيس النثر .

وتوفي - رحمه الله - فجأة وفي حياة أبيه ، غرة المحرم سنة
١٢٩٨ هـ . وحمل نعشه على أعناق الرجال إلى النجف ، ودفن بقرب
جده عليه السلام . وكان لموته غير المنتظر صدى أسف عظيم في
مختلف أنحاء العراق ، وبكاه الشعراء بدموع القوافي أصدق بكاء
فقال فيه الجبوبي لاميته الخالدة التي مطلعها :

ترعتك من يدها قريشٌ صقيلا وطوتك فذآ بل طوتك قبيلا
وقال فيه حيدر عينيته الرائعة التي مطلعها :

قد خططنا للمعالي مضجعا ودفنا الدين والدنيا معا
وجعت مرثيته في سفرٍ اسمه « الأحزان في خير إنسان » جمعه
ورثبه وعاق عليه السيد حيدر ولا يزال المجموع محفوظاً في مكتبة
آل كاشف الغطاء في النجف الأشرف .

والمرجّم آثار عدة ، منها رسالة صغيرة في أصول الفقه ، وأخرى
مثلها في المنطق لم تطبع ، وعدة قصائد في رثاء شهيداء الطف ،
ومقطعات لطيفة ورسائل نفيسة كتبها في بعض أغراضه . فمن ذلك
هذان البيتان اللذان كتب بهما إلى صديق له :

الطرف بعدك لا ينفك في سهرٍ والقلب بعدك لا ينفك في شغل
يعقوب حزنك أبلاه الضنى فمسي من ردّ يوسف لطفاً أن ردك لي

وكتب إليه أخوه السيد حسين من النجف في أثناء مرض أصابه :
 بنفسى ، وقلّ بها أفديك لو أن مولىّ بعبدٍ فديّ
 ويفديك ما منك قد نلته جميعاً ، وما ملكته يدي
 وجودك علة هذا الوجود وجودك بلغة من يجتدي
 وشخصك لإنسان عين الزمان ولولاك ضلّ فلم يهتدي
 على مضضٍ قد طويت الظلوع بليلة ذي العائر الأرمـد
 فما عبر الغمض في ناظريّ ولا لدّ لي العذب من موردي
 فلولاً عقيلة بيت الفخار وأمّ المكارم والسؤدد
 لما لانت للمكث لي جانب ولا أخذ الصبر في مقودي
 (يريد بعقيلة بيت الفخار السيدة والدته) .

فكتب إليه :

أبا المرتضى قد غبت عني بساعة بها الموت أدنى من جيني إلى نحري
 فكم ليلة قد بها متيقناً بأني ألاقى في صبيحتها قبري
 أكابد من طول الليالي شداًداً كأن الليالي قد خلقت بلا فجر
 على حالة لم أدر من كان عائدي هناك ، ولم أشعر بزيد ولا عمرو
 وما طلبت نفسي سوى أن أراكم وليس سوى ذكراكم مرّ في فكري
 وكتب إلى أخويه محمد وحسين بهذه المناسبة :

أيّا أخوي اللذين هما أعز على النفس من ناظري

عذرتكما حيث لم تحضرا ولم يك من غاب كالحاضر
لقد بطشت بي كف السقام على غفلة بطشة القادر
فغودرت في لهوات المنون ولست بناس ولا أمر
فكم ليلة بها - والضنى ضجيجي - كليلة ذي العائر
على أن نفسي تشتاقيكم كشوق الربى للحيا الماطر
تداركني الله من لطفه فأصبحت في فضله الوافر

سيداتى وسادتي :

هذا ما سمح الوقت بروايته من شعر الرجل . وفي الجزء السابع
عشر من « أعيان الشيعة » الذي أنا مدين له بجزء غير قليل من هذا
الحديث شواهد كثيرة من شعر المترجم ومثل نفيس من نثره فليرجع
إليه من أراد

الخميس ١٣ / ٩ / ١٩٤٥



آل قزوينه أيضاً

سيداتي وسادتي :

حدثكم في الأسبوع الماضي عن الفقيه الكبير والأديب الجليل السيد جعفر كبير أنجال الامام السيد مهدي القزويني ، وأحدثكم الليلة عن أخويه العالمين الأديبين الكبيرين صالح وحسين . وأنا أجمع بين هذين الأخوين ليس فقط لأن الوقت يتسع للجمع بينهما ، بل لأن الثاني منهما كان تلميذ الأول وكان يشبهه في كثير من السمات والصفات ، ولا سيما في حب الدرس والانكباب على طلب العلم . وأتحدث عن الأول فأقول : ولد رحمه الله في النجف ، وتأريخ ولادته غير معروف لسوء الحظ ، وأخذ علوم العربية والدين عن طائفة من الأساتذة ، أكبرهم وأعمقهم أثراً في نفسه والده الذي أجازه فيما درس عليه من العلوم الشرعية . وكان معروفاً بعلمه الهمة وحب الدرس وكثرة المطالعة وغزارة الحفظ وحدة الذكاء ، هذا إلى كرم في الطبع ونبل في الأخلاق ، يتسم بهما سراة بيته على العموم . توفي - رحمه الله - على أثر داءٍ أعيا الأطباء سنة ١٣٠٢ هـ ، أي بعد

وفاة والده بسنتين فقط ، وبعد وفاة أخيه الأكبر بنحو من خمسة
أعوام ، وهكذا انهار شطر هذه الأسرة في سنوات قليلة بعد أن
عاشت متمسكةً ثابتة الأركان نحواً من نصف قرن . وندبه الشعراء
أحر ندب فرثاء الجبوبي بقصيدتين رائعتين ، مطلع إحداها :
تضعض جانب الحرم انصداعاً أحقاً ركن كعبته تداعى ؟
ومطلع الثانية :

ضجى اليوم غاضت بالندى نجمة النادي

بنقد الهدى ، أو قل بنقد أبي الهادي

وقد رويت لى طرفاً من أولى القصيدتين عند الكلام عن شعر
الجبوبي . وبكاه حيدر بقصيدتين هما في طليعة مرثيه ، بل في طليعة
الرثاء العربي قاطبة ، وقد أنشدتكم أبياتاً قليلة من إحدى هاتين
المرثيتين عند الكلام عن رثاء حيدر فأنشدكم الآن إذا أحببتم مثلاً
من كلتا القصيدتين ، على أن لا أعيد بالطبع شيئاً مما سبق لإنشاده ،
قال حيدر في إحدى هاتين القصيدتين :
ومجـدك ما خفت الردى منك يقرب

لأنك في صدر الردى منه أهيب (١)

(١) أخبرني ثقة أن حيدر بدأ هذه القصيدة أول ما بدأها بقوله :

رواق العلا أين المليك المحجب ؟ لمن بعده تلك الأسرة تنصب ؟ =

وما خلت منك الداء يبلغ ما أرى لأنك للدهر الدواء المجرب
ولا في فراش السقم قدرت أني أرى منك طوداً بالاً كف يقلب
أمنت عليك النائبات وإنها لعن كل من آمنته تتنكب
ولم أدر أن الخطب حجم وثبة وأن عشار الموت بالشكل مقرب
إلى حين أردتني بفقدك ليلة تولد منها يوم حزن عصبص
فقام بك الناعي، وقال، وللأسى بكل حشياً يدميه ظفر ومخلب،
هلم بني الدنيا جميعاً إلى التي ترزُل منها اليوم شرق ومغرب

وقال في الثانية :

أمر قصاً دمي وأحشائي معاً بنشائد الخنساء لا إسحاق
فرّق بأقتلهم ما مجامع أضلعي إن المكارم آذنت بفراق
قتلت أسيلاً لأغر لولا جوده قتل الزمات بنيه من لملاق
فأزل بنعيك في الوري رمق الوري

فالموت زال بممسك الأرماق هذا أبو الحسن استقل مشيعاً
ومشت وراء سريره من غالب لكن بنعشٍ لامتوت عناق
غلب الرقاب خواضع الأعناق

= إلا أنه أعرض عن هذا المطلع لأنه ينطوي على استخفاف بخليفة
المرني ألا وهو شقيقه السيد محمد.

متناسكين من الحياء تهاقت قطعاً قلوبهم من الاقلاق
سيداتي وسادتي :

يؤسفني أن لا أستطيع المضي في إنشادكم هذه القصيدة المعصاة ،
ولكنني أستطيع أن أقول لكم على كل حال إنه لو لم يرث المترجم
إلا بقصيدتي حيدر هاتين لكفى بذلك دليلاً على علو قدره وسمو
منزلته وعميق أثره في سير حركتنا الأدبية في القرن التاسع عشر .
ولو لم يكن لحيدر من جهة أخرى ألا هاتان القصيدتان في الرثاء
لكفى . وأعود إلى المترجم فأقول لكم إنه أتم مؤلف والده الأخير
في الفقه ، وكان الأجل هو الذي حال بينه وبين إتمامه . وترك عدة
قصائد ومقطوعات تدل كلها على رقة الشعور وخصب الخيال وعلو
الكعب في صناعة القريض ، منها هذه الأبيات التي يعتذر بها إلى
السيد حيدر عن هفوة صدرت منه :

يا زكي الأصول والآصال	ورضي الأقوال والأفعال
وأبا الحكمة المسماة شعراً	وهي عقد منظم من لآلي
إن حباً أجنّه لك قلبي	جوهر غير قابل للزوال
ووداداً أحنت عليه ضلوعي	لك يبلى جسمي وليس يبلى
أنا حر ومن ولائك رقي	وأبي وعن سواك انفصالي
ما أراني جنيت ما يوجب العتة	ب ولا حال عن ودادك حالي

غير أني أقول: هب لي، فهب لي عثرة لا أعدّها من فعالي
ومنها هذه القصيدة التي يبدأها بالفخر ويتخلص منه إلى رثاء
جده الحسين عليه السلام، والتي أقتطف لكم منها الأبيات التالية:
سل الطف عن أهلي وإن كنت عالماً

فكم سائل عن أمره وهو عالم؟
غداة ابن حرب سامها الضيم فارتقت

بـ ————— للمعالي الفرأيد عواصم
وقادها الجيش اللهام ضلالة متى روعت أسد العرين البهائم؟
فشمّر للحرب العواني شمردل نديما فيها سميري وصارم
رماها بآساد الكريهة، فتيمة نماها إلى الجبد المؤثل هاشم
مساعير حرب فوق كل مضمر مديد عنان لم تخنه الشكائم
مناجيد لا مستدفع الضيم خائب لديهم، ولا مسترقد الرغد نادم
سرت كالنجوم الزهر حفت بمشرق

هو البدر لا ما حجّبه الغمام
وزارت عراض الغاضرية ضحوة «وموج المنايا حولها متلاطم»
يوم كطل الرمح، ما فيه للفتى سوى السيف والرمح الرديني عاصم
تراكم داجي النقع فيه فأشرقت وجوه وأحساب لهم وصوارم
ومدت به شمس النهار رواقها فقوضه ليل من النقع قائم

أيا حسن يهنيك ما أصبحوا به وإن كان للقتلى تقام المآتم
مشوا في ظلال السمر مشيتك التي

لها خضعت أسند العرين الضراغم
فما شك من نالته أطراف سمرهم بأنك قد أرديته وهو آثم
وغني عن البيان أن التهنية بدلا من التعزية بمصارع الآباء
الآحرار والشهداء الأبطال فكرة أصيلة تستحق الثناء والتقدير .

أما شقيق المترجم وتلميذه السيد حسين - رحمه الله - فانه علم من
أعلام عصره وفذ من أفذاذ قطره ، جمع الأدب إلى العلم ، والشعر
إلى الفقه . وكان إلى هذا زاهدا ناسكا يؤثر التصوف ويميل إلى
التقشف ، إلا أن الزهد والتقشف لم يحولا دون صيرورة يديه ملتقى
العلماء والأدباء والشعراء في النجف مدة تزيد على عشرين سنة .
وقد مر بكم عند الكلام عن آثار شقيقه الأكبر السيد جعفر رحمه الله ،
مثل من شعره ، فأنشدكم الآن مثلاً آخر منه أقنطقه من
عرفانية له ، قال :

كلما مر من صدودك يحلو	صل معنى فالحب قطع ووصل
لك في شرعة الهوى معجزات	هن في فترة من الرسل رسل
آمنت فيك أمة العشق لكن	تحت داج من ليل شعرك ضلوا

يا مليك الجمال حكمك عدل
صل ولو بالتعذيب قلب محب
شرع عاشقوك فيك ولكن
شغلتي صفات معنـاك حتى
قبلة العاشقين أنت ولكن
تـه دلالة فأنت للحب أهل
واسقنيها على الصفاء كؤوساً
وأدرها على الندامى مداً
قد قرأنا مصحف الجمال فصولاً
لك في النيرات أسنى ظهور
أمن العدل أن حكـمي قتل
لك ما حرّم المهيمن رحـل
أنا وحدي بعـثهم مستقل
ليس لي في سوى معانيك شغل
أي وجه توجّهوا فليصـلوا
ولك القلب مرتع ومحـل
بسنا وجنتيك تجلى وتحلو
غرسـت كرمها المحبة قبل (١)
لم يكن في سوى جمالك فصل
وهي لولاك نورها مضمحل

* * *

وتوفي - رحمه الله - في ذي الحجة سنة ١٣٢٥ هـ. وكنت إذ ذاك
في الثالثة عشر من عمري ، ولكن لا أزال أذكر الدويّ الهائل
والآثر العميق الذي أحدثه خبر وفاته في أواسط القرات . وتنافس
الشعراء برثائه فاجتمع منه سفر ضخم جمعه ورتبه وعلق عليه المغفور له

(١) في الأبيات الثلاثة الأخيرة المنتهية بهذا البيت تأثر يـسـ بعرفانيات
ابن القارض .

الشبيبي الكبير الذي رثاه هو الآخر بقصيدتين رناتين مطلع
إحداهما : -

أصخت لرعد أوقر السمع هائله فقلت نعي في السماء زلازله
ومطلع الثانية : -

طيشي بريبك يا خطوب أو احلمي
ومن الفواح فالقحي أو فاعقمي
وحدث على أثر وفاته أن هطلت أمطار غزيرة في مختلف أنحاء
العراق عدا النجف حيث قصفت الرعود وأومضت البروق ولم
يقع سوى مطر قليل ، فاستغل فريق من الشعراء هذه الظاهرة
الطبيعية استغلالاً طريفاً ، وقد لا أخطئ إذا قلت لكم إن أكثر
من استغلها توفيقاً هو السيد باقر أحد أبناء السيد هادي كبير
أنجال السيد صالح القزويني المتقدم ذكره حيث قال مخاطباً الفقيه
من قصيدة :

نعمتك السما يا بدرها نعي ناكل
وقد أمسكت في حياك الدمع واكتفت

بدمع الوري ما بين ناع ونادب
فلما دهاها طارق الوجد والأسى
أذالت قليلاً من دموع سوارب

فصاح بها النعش المشيم كفكفي دموعك صبرا لا تبلي جوانبي
فأمسكت التهان لكنها رغت عليك رغاء الثقلات المصاعب
ومن لمعان البرق لفت ضلوعها
على مارج بين الحشا والترائب

* * *

وبهذا ينتهي حديثنا في هذه الليلة عن آل قزوين

الخميس ٢٠ / ٩ / ١٩٤٥



خاتمة المطاف في آل قزوين

أما في هذا الحديث ، وهو خاتمة المطاف في آل قزوين ،
 فسأحدثكم - سيداتي سادتي - عن خاتمة الصدر الأول من هذه
 الأسرة ، ألا وهو العالم الجليل والأديب الكبير والشاعر المجيد ،
 أستاذنا المغفور له السيد محمد . ثالث أنجال الامام السيد مهدي
 القزويني طاب ثراه . ولد رحمه الله في النجف ، قبيل هجرة أهله
 إلى الحلة في منتصف القرن الثالث عشر للهجرة ، ونشأ في كنف
 والده الجليل نشأةً مباركة ، وتولاه شقيقه الأكبر السيد جعفر
 برعايته وعنايته ، فكان صورة مصغرة منه كما كان شقيقه السيد
 حسين صورة مصغرة من أخيه السيد صالح ، ودرس علوم العربية
 والدين على جماعة ، منهم والده ، وشقيقه السيد جعفر ، والعلامة السيد
 كاظم اليزدي - أحد كبار أئمة الامامية في صدر هذا القرن . وكان
 - أعني المترجم - فصيح اللسان قوي الجنان ، غزير الحفظ ، مستظهِراً
 للقرآن كثير الرجوع إليه والاستشهاد به ، عظيم القدرة على الجدل
 والمناظرة ، عظيم الجرأة شديد الصراحة .

نكت السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ عهده للأمة العثمانية بمنحها الدستور ، محاولاً استرداد سلطانه المطلق بواسطة ما أسماه « الجمعية الحميدية » ، فما كان من المترجم إلا أن أبرق إليه يحمله تبعه إراقة الدماء واضطراب جبل الأمن في البلاد إذا هو لم يضحّ مصلحته في سبيل مصلحة الأمة بتنازله عن عرشه وإلى هذا يشير المرحوم السيد عبدالمطلب بقوله من قصيدة يمدحه بها :

ولكم قمت مقاماً دونه	ناهض العزمة عن عجزٍ قعد
مصلتاً منك ولاكن عزمة	لم تدع في حدها للسيف حد
عزمة سدت مسدّ الجيش قد	ضربت دون مسيل الجور سد
مذ بها أبرقت للجبار في	مرعد هدد قواه فارتعد
منزلاً في قصره صاعقة	أصبحت أركانه منها تهد
أنزلته صاغراً عن دسه	بعدما حك السها منه كتد (١)

ولاكن يظهر أنه ندم بعض الشيء على إرسال هذه البرقية ، أو أن بعض مشيريه جعله يندم على إرسالها لأنه عقب على هذه الآيات ساعة إنشاد القصيدة بقوله : « فلتة ، وقى الله شرّها » .

وكان رحمه الله على جلالة قدره خفيف الروح ، فكك الطبع في مجالسه الخاصة حاضر النكتة جميل العشرة ، صحبته وتشرفت بالأخذ

(١) النكتد : مجتمع الكتفين .

عنه سنين عديدة فما خرجت من عنده إلا وأنا أتمنى أنه لو كان عمر
المجلس أطول مما كان ، أضف إلى ذلك أنه وفي إلى أبعد حدود
الوفاء ، متواضع إلى أبعد حدود التواضع ، محب للأدب وأهله
حباً غير قليل .

اصطفاه الله لجواره في الخامس من المحرم سنة ١٣٣٥ هـ ، وحمل
نعشه إلى النجف مشياً بالحنين والزفرات ، ومع أن الحرب كانت
دائرة الرحي في وادي الرافدين بين الانكليز والأتراك ، ومع أنها
كانت شاغلة لأذهان الناس قاطبة رثاه فريق من الشعراء منهم
المرحوم السيد عبدالمطلب الذي رثاه بقصيدتين مطلع إحداها :
هجمت مسومة القضاء المنزل بمحرم فالصبر غير محال
ومنهم المتشرف بالتحدث إليكم عنه ، فقد رثيته بقصيدة أستاذكم
في أن أروي لكم منها هذه الآيات :

تالله لا يسلك مني مغرم	يضميه بالشم الحسان غرام
سحرته منك شمائل فتاة	كالزهر عنه تشقق الأكام
ومواهب زينتها بمناقب	في مثلها تتجمل الأيام
وروائع جادت بهن بديهة	فيها يتم النقض والابرام
طوراً ترف من القريض حسانه	وتنص آونة بها الأحكام
هي منبع السحر الحلال وعندها	يلقى حلال للورى وحرام

وسبته منك صراحة وفصاحة للسان وائل ما بها للمام (١)
وتواضع جلالة بمهابة تُثني الرقاب لها وتحنى الهام
أما آثاره فهي : منظومة في المواريث ، ورسالة في علم التجويد ،
ومجموع شعر ونثر اسمه « طروس الانشاء وسطور الاملاء » أثبت
فيه ما اختاره من منظومه ومشوره ، أبرز ما فيه نوع من الأدب
طريف وأصيل يمكننا أن نسميه (أدب البرق) ذلك أنه كان يحب
أن يعبر عن قصده فيما يدور بينه وبين الناس من مراسلات بشيء
من الشعر يطيره على لسان البرق . فمن ذلك هذه البرقية اللطيفة التي
أرسلها إلى المرحوم السيد سلمان النقيب مهنتاً بها إياه بالعيد وبالعود
موفقاً من دار السلطنة العثمانية وهي :

عيدان للزوراء زالت فيهما عنها النحوس وعاد كل سعود :
عود النقيب متوجاً تاج العلا لمحله الأسنى ، وعود العيد
ومن ذلك هذان البيتان اللذان أبرقهما إلى المرحوم السيد
عبد الرحمن النقيب ملتصقاً منه أن يسمح بالمرور عبر أراضيه لترعة
كانت الحكومة العثمانية تريد حفرها بين الهندية وكر بلاء تمكيناً
لهذه الأخيرة من الانتفاع بالقرات عندما طمت الرمال نهر
الحسينية وهما :

(١) المراد بلسان وائل سحبان وائل ، الخطيب المشهور .

في كربلا لك عصبية تشكو الظما من فيض كفك تستمد رواءها
أترك يا ساقى عطاشى كربلا

وأبوك ساقى الحوض تمنع ماءها؟ (١)

ومن ذلك هذه البرقية التي أرسلها إلى ناظم باشا والي العراق في
مستهل عهد السلطان رشاد ملتسماً منه أن يبذل كل ما في وسعه في
سبيل إنشاء سد الهندية وإغاثة سكان لواء الحلة الذين جف نهرهم
بجف مورد حياتهم وتفرقوا في أنحاء العراق أيدي سبأ، وهي:

قل لوالي الأمر قدمات الفرات ومضى عنه أهاليه شتات
أفترضى أن يموتوا عطشاً وبكفيك جرى ماء الحياة؟
وقد عني ناظم باشا بأمر البرقية عناية حسنة فأمر بترجمتها إلى
اللغة التركية وبالإجابة عنها لإجابة مرضية. ومنه هذان البيتان اللذان
أبرقهما إلى المرحوم السيد هادي كبير أنجال أخيه السيد صالح مهتلاً
إياه بنجاته من مكيدة دبرت لاغتياله وقتل فيها خادم له اسمه
«محصول» وهما:

فديت بالمحصول كي يفتدي أصلك محفوظاً لآل الرسول

(١) مما يؤسف له أن النقيب عبد الرحمن ساعه الله لم يلب رجاء هذه
البرقية النبيلة.

والمثل السائر بين الورى :

« خير من المحصول حفظ الأصول »

وهذان البيتان اللذان أبرقهما إلى والذي عند وصوله الشام في طريقه إلى مكة وهما :

مددت الطرف نحو الشام شوقاً وزاد لذكرها شغفي وحي

غداة محمد قد حلّ فيها « وما حب الديار شغفن قلبي »

ومن هذا القبيل هذان البيتان اللذان نظمتهما على لسان المرحوم الحاج مصطفى كبة في أثناء زيارته للحلة وأرسلهما هذا على لسان البرق إلى أخيه الشيخ محمد حسن وهما :

في بابل طاب عيشي مع كل خلٍ رفيق

فصرت نعمان دهري لو أن عندي شقيقي

وقد أبرق الشيخ محمد حسن مجيئاً على هذه البرقية بقوله :

رصافتي رصفتها مدامعي بالعقيق

بها صبغت أقاحي لكي يعود شقيقي

وهذان البيتان اللذان نظمتهما على لسان الحاج مصطفى كبة أيضاً

وأبرقهما هذا إلى أخيه المذكور كذلك وهما :

لقد سحررتني بابل ، فاستمالي

هواها عن الزوراء من حيث لا أدري

فلو لم تكن فيها هجرت لأجلها «عيون المها بين الرصافة والجسر»

فأجاب الشيخ محمد حسن مبرقاً بهذا الشطر :-

«أتسحر مثل المصطفى أرض بابل؟» ١٢

وقد ذكرت مجلة بغدادية حديثة هذه البرقيات الأربع ونسبت أبيات المترجم خطأ إلى الحاج مصطفى كبة ، والصحيح ما أوردناه ، هذا مع العلم بأن الحاج مصطفى كبة لم يقل الشعر في يوم من الأيام ، ولم يصفه بهذا أحد فيما أعرف . وقد شاع (أدب البرق) - إذ أصبحت هذه التسمية - في الحلة على عهد المترجم ، حتى أن بعض الممتازين من الناس كانوا يمارسونه سواء أكانوا شعراء أم لم يكونوا ، وقد كلّفت مراراً عديدة يوم كنت مقيماً في الحلة أن أقول الشعر ليستخدم لهذا الغرض .

وفي «طروس الانشاء» عدا ما تقدم ملح وطرف كثيرة منها هذه الأبيات التي شكر بها المترجم السلطان عبد الحميد على إنشائه ترعة الحميدية التي تصل الفرات بالنجف وهي :

٢ ؟ شكراً إمام المسلمين ن على صنائعك السنية

أجريت نهراً في الفـري به مننت على الرعية

وسقيتها العذب الفـرا ت على الظما سقيا هنيه

فإليك بالدعوات قد عجت بأكباد رويه

ومنها هذان البيتان اللذان كتبهما إلى صديق له اسمه (حبيب
أفندي) كان قاضياً في الهندية وهما :

لي في الأنام حبيب بالهجر كالسيف ماضي
لا أرعوي عن هواه فليتهض ما هو قاضي
وهناك طرف وملح أخرى كثيرة لا يتسع لذكرها المقام فنكتفي
بالإشارة إليها لضيق الوقت مـ

الخميس ٤ / ١٠ / ١٩٤٥

—((☆))—

الشيخ جعفر الشري حياته وآثاره

سيداتي وسادتي :

من كبار فقهاء العراق وشعرائه في القرن التاسع عشر ، المغفور له
الشيخ جعفر الشري أو الشروي (١) ، ابن الشيخ محمد حسن ووالد
صديقنا الأستاذ الكبير الشيخ علي الشري . وقد يسر المترجم وهو في
قبره أني أعرفه بابنه ، ولكن ثقوا أنه كان أبنه شأننا وأعلى قدراً
وأسير ذكراً من أن يعرف . فقد كان مرشحاً لزعامة عشرات
الملايين من الامامية في مختلف أقطار العالم الاسلامي ، ولكن الأجل
عجل عليه ، فمات وهو ابن خمسين سنة فقط . وهو علم من أعلام
أسرة توارثت الفضل كبراً عن كابر ، مؤسسها من الناحية العلمية
الشيخ حسن بن راشد ، وهذا زعيم «الفراغنة» الذين كانوا يتزعمون
قبيلة «خيقان» المنتشرة في العراف وشواطيء الفرات الأدنى وأواسط
الفرات . وقد هاجر الشيخ حسن إلى النجف الأشرف لطلب العلم

(١) يدعو النجفيون شروقياً كل من يسكن جنوب العراق .

في أواسط القرن الثاني عشر على ما يظهر ، فكانت النجف مقر أبنائه
الذين اشتهر جماعة منهم بالفضل والأدب ، في مقدمتهم صاحب
الترجمة .

ولد رحمه الله في النجف خلال سنة ١٢٥٩ للهجرة ونشأ في حجر
والده العالم الجليل الشيخ محمد حسن نشأة صالحة ، ودرس على جماعة من
علماء عصره أشهرهم العلامة الشيخ محمد حسين الكاظمي ، وصهره
الامام الشيخ محمد حسن صاحب «جواهر الكلام» ومؤسس الأسرة
الجواهرية في النجف الأشرف ، ولم يلبث أن اشتهر فضله وذاع
صيته حتى صار أصدقائه وإخوانه من أهل العلم والأدب يلقبونه
« الخريت » . والخريت هو الخاذق البصير بعمله من الرجال . ومن
لقبه بهذا اللقب المرحوم الشيخ محمد حسن كبة ، فقد قال في أبيات
يحتكم بها إليه في خلاف أدبي دار بينه وبين المغفور له السيد حسين
القزويني المتقدم ذكره :

هلم نحكم الخريت فينا فذاك السيف لا تعرفه نبوة
وخريتهما الحكم هو صاحب الترجمة .

توفي رحمه الله سنة ١٣٠٩ للهجرة وعمره خمسون سنة كما تقدم
ودفن في النجف ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

وتسألوني عن أبرز صفاته فأقول لكم : إنه كان حاضر البديهة

سريع الخاطر مرح النفس خفيف الطبع كثير التسامح عظيم الثقة
 بنفسه رقيق الشعور دقيق الاحساس واسع الخيال . فأما سرعة
 خاطره فحسبي دليلاً عليها هذه المطارحات الشعرية التي كانت تجري
 بينه وبين المرحوم الشيخ محمد حسن كبة والتي يروي العلامة العالمي
 في الجزء السابع عشر من « أعيان الشيعة » مثلاً صالحة منها . أما أنا
 فأروي لكم منها هذه القصيدة التي اشترك في نظمها الرجلان والتي
 ظفرت بها في كراريس تحتوي على طائفة من شعر الشيخ محمد حسن
 كبة ، وسأروي لكم الآن من أبيات الشيخ محمد حسن كبة ما يفي
 بتسلسل الكلام ، على أن أروي لكم كل ما أختار من أبياته في هذه
 المطارحة عند الكلام عن شعره في حديث قادم إن شاء الله . وقد
 نظمت القصيدة في مدح السيد محمد سعيد الجبوبي والتشوق إليه ،
 وهذا ما يهمننا منها ، قال الشيخ محمد حسن :

عليك سلام الله ما ذرّ شارق وما أن مشتاق وما جن وامق
 وما تيممتي في هواك صباية وما علقت بالقلب منك علائق
 وقال الشيخ جعفر :

وما هيّجتني للحمي وحسانه عيون مها أوروبية وحدثاق
 إذا قلت : دعني منهما ، قال قائل :
 كذبت ، وأيم الله ، ما أنت صادق

أَتُنْكِرُ شَوْقًا فَيْكِ وَالسَّهْمَ شَاهِدُ؟ وَتَكْتُمُ وَجْدَ أَمْنِكَ وَالْدَمْعَ نَاطِقُ؟
 وَتَكْنِي بِعَذْبِ الْمَاءِ أَوْ بَارِقِ الْحَيَا وَقَدْ أَخَذَا مِنْكَ الْعَذِيبَ وَبَارِقُ؟
 إِلَى كَمْ، وَكَمْ تَخْفِي؟ هَلَمْ، فَكَلْنَا مَشُوقٌ يَعْنِيهِ مِنَ الْحُبِّ شَائِقُ
 أَيْصِفُوا لَكُمْ مَاءَ تَصْفِقُهُ الصَّبَا وَيَصْفُقُ مِنِّي الْكَفَّ بِالْكَفِّ صَافِقُ؟
 يَسُوغُ لَكُمْ مِنْهُ وَرُودُ نَمِيرِهِ وَإِنِّي عَلَيْكُمْ بِالْزَلَالِ لَشَارِقُ
 فَوَّادِي وَدَمْعِي رَاحِلٌ وَمُودِعُ وَقَلْبِي وَأَشْوَاقِي مَسُوقٌ وَسَائِقُ
 وَلَمْ يَبْقَ مِنْ نَفْسِي سِوَى نَفْسٍ خَفِي

كَأَنِّي بِهِ (١) عِنْدَ التَّنَفُّسِ سَارِقُ
 وَجَفَنَ بَدَمْعٍ فَيْكَ مَا زَالَ طَافِيًّا عَلَى أَنْ جَسَمِي بِالْمَدَامَعِ غَارِقُ
 وَمِنْهَا لِلْمُتَرْجِمِ:

سَعِدْتُ وَلَوْلَا شَقْوَةُ الْحُبِّ لَمْ أَكُنْ
 سَعِيدًا وَلَا لِي فِي السَّعِيدِ عِلَاقُ
 فَتَى رَاقٍ لِي سَمْعًا وَمِرَايَ وَمَنْطَقًا

إِذَا رَاقَ شَيْءٌ لِلْمَحِيئِ رَائِقُ
 فَانْ عَاقِبِي عَنْهُ الْحَيَا يَتَّبِعُ الْحَيَا (٢)

(١) هكذا في المخطوطة وربما كان الصحيح (له) .

(٢) يظهر أن أمطاراً متواصلة حبست المترجم في بغداد وحالت بينه وبين

صديقه السيد محمد سعيد المقيم في النجف ساعة نظم هذه القصيدة .

به أنست عيناى واستوحشت له
 فتى دبّ في عقلى وجسمي حبه
 عدّاكل من رافقت أو من أفارق
 عظامه نيّطت به والدقائق
 فليست أرى شيئاً سواه كأنما
 مغارها ملأى به والمشارك
 فلا تبعد الأيام منى مزاره
 ولا طرقته لليالي طوارق
 وأما خفة طبع المترجم وكثرة تسامحه فتدلنا عليها صفحات من
 غزله تشف عن كلفه الشديد بالجمال للمسيحي السافر وتشير إلى صلّاته
 المتينة بالمسيحيين رغم التعصب الذي كان سائداً على عهده ، أروي
 لكم منها هذه الأبيات :

حي أقمار النصرارى تخذت في الكرخ دارا
 وظباء في كناس ما تألفن النفارا
 تحسب البذلة صوناً وتمدد الستر عارا
 وكذا الأنجم طراً على دين النصرارى
 بي غزيرات جفون هي كالسيف غرارا
 لم تزل سكرى صواحي وبها الناس سكارى
 ومنها :

كبدي شكواك هذي من في طارت شرارا
 لم أكن للبيض أخشى قبل جفنيها انكسارا
 قد رأينا لك وجهاً فيه جالينوس حارا

جال ماء الحسن فيه فإذا الناس حيارى
 قلت - إذ قالت : سوارى ما له غنى تواري ؟
 معصم يدعو عليه كل من صاغ السوارا
 عذب الصاغة في الذو ق فصاغته مرارا -
 أنت يا آية عيسى بك أصبحنا نصارى
 أين خلخالك ؟ قالت : غاص في الساق وغارا
 ونستمر بكم شواهد أخرى تدل على كلف الرجل بالجمال المسيحي
 وصلاته الوثقى بالمسيحيين .

وأما عظم ثقته بنفسه فيكفي للدلالة عليه هذان البيتان وهما :
 هذه القهوة هذي هذه المهني عنها
 كيف تدعى بحرام وأنا أشرب منها ؟ !
 وأما رقة شعوره ودقة إحساسه وسعة خياله فيدلنا عليها جميعاً
 ما أنشدتكم وما سأنشدكم من بدائع أشعاره .
 بقي أن أقول لكم كلمة في آثاره ، وهذه عبارة عن كتابين في
 أصول الفقه ، وثالث في الفقه ، وديوان شعر ، وقد فقدت كلها مع
 شديد الأسف . وقد سألت نجله الأستاذ الشيخ علياً عن ما لديه من
 آثاره فقال لي إنه لا يملك منها ورقة واحدة . ولكن لله الحمد على أن
 « الطليعة » و « الحصون المنيعة » و « نقباء البشر » وبعض المجامع

المخطوطة حفظت لنا طائفة صغيرة من شعره نشر معظمها السيد
 محسن أمين العاملي في الجزء السابع عشر من « أعيان الشيعة ». وقد
 رويت لكم مثلاً منها عند الكلام عن أخلاقه وأروى لكم منها الآن
 قوله في وصف عربة الترام :

وسارية تحن بغير قلب وتلعن بالعويل بلا لسان
 تحن لمعهد منها قريب ويسكت واجد نائي المكان
 تسنمنا لها أعلى سنام يسابقنا عليه الفرقدان
 ترانا قبض كف الجو فيها وقد وآت بها فرسارهان
 وكم حملت ولم تعقد نكاحاً بمن شابا عليه العارضان
 وما حملته في الأحشاء إلا وقد وضعته فهو لها ابن آن
 وقوله في قصر سكنه أخوه الشيخ أحمد ببغداد :

لعمرك إن الأرض تشقى وتسعد وأسعدها قصر به حل أحمد
 حواشيه من بلورة وسمائه

فروع غصون الكرم والأرض عسجد
 ومن طرب فيه المزاهر هلمت وغنى نداماه الهزار المفرد
 وكم نثرت أيدي السحاب لآلئاً تقاصر عن مشورهن المنضد
 تطوف عليه للنصاري كواب
 أكان لها فيه مزار ومعبود ؟

وقوله متغزلاً من قصيدة :

وناسكة أرى الأنجيل فيها يترجم لي بقرآن فصيح
أقول لجفنها - إذ رام قتلي - أفدني ، وبك ، بالخبر الصحيح
أقتل المسلمين يجوز عمداً ؟ ! فقال : نعم ، على دين المسيح

* * *

سيداتي وسادتي :

أظن أن الذين قرأوا الأستاذ الشرقي منكم وعرفوا رقة شعوره
ودقة تفكيره ونفاضة تعبيره يعرفون الآن ممن ورث هذه
المزايا كلها

الخميس ١١ / ١٠ / ١٩٤٥



الشيخ محمد حسن كبة حياته وآثاره

سيداتي وسادتي :

قلت لكم في أول حديث من هذه الأحاديث ما معناه : إن آل كبة ، لعبوا دوراً خطيراً في خدمة الحركة الأدبية ، أثناء القرن المنصرم ، وأقول لكم الآن إن أكبر من فعل ذلك منهم عميدهم المرحوم الحاج محمد صالح ونجله الفقيه الجليل والشاعر المجيد الشيخ محمد حسن . وما أريد أن أترجم للأول ، لأنه لم يكن رجل فقه وشعر ، وإنما كان رجل وجهة وتجارة ، ورجل صلاح وورع ، ورجل أريحية ومروءة . ولكنني أترجم للثاني ، لأنه ورث عن أبيه مزاياه الآتية ذكرها كلها ، وأضاف إليها الفقه والأدب والشعر .

ولد رحمه الله في رمضان سنة ١٢٦٩ للهجرة بالكاظمية ، حيث كان يقيم والده أثناء هذا الشهر ، منقطعاً للتبتل والعبادة ، ونشأ في بغداد نشأة نبيلة مترفة ، ودرس العربية على أساتذة لا نعرف منهم أحداً . وقرأ الشيء الكثير من كتب الأدب ، وقرض الشعر وكان

هذا موضع كلفه ومظهر ذكائه ونشاطه في أيام شبابه . ومع أنه كان
 يزاول التجارة حرفة آبائه وأجداده ، فانه كان يحيا غالباً في قصره
 شرقي بغداد ، حياة النبلاء ، يصحبه في كثير من الأحيان نفر من
 خيرة أدباء العراق ، في مقدمتهم الجبوبي والشرقي الذي حدثكم عنه
 قبل أسبوع ، يسامرهم ويعاشرهم ، ويشترك وإياهم في قرض الشعر .
 وفي آخر الجزء الثاني من «العقد المفصل» المطبوع ببغداد سنة ١٣٣٢ هـ
 مثل صالحة مما اشترك في نظمه هو والجبوبي . وفي سنة ١٢٩٩ هـ
 ختمت حياته التجارية ، فانقطع إلى طلب العلم ، وأخذ يختلف إلى
 النجف ، ويقضي فيها الفترات الطوال لهذا الغرض . ثم إنه درس على
 الفقيه الكبير الشيخ عباس الجصاني في الكاظمية ، مدة قصيرة من
 الزمن . وفي سنة ١٣٠٦ هـ رحل بعائلته إلى سامراء حيث كان يقيم
 رأس علماء الامامية الأكبر السيد محمد حسن الحسيني الشيرازي
 المتوفى سنة ١٣١٢ هـ ، فدرس عليه وأخذ عنه ، ثم لزم بعده الشيخ
 محمد تقي الشيرازي رجل الثورة العراقية الأكبر ، وأخذ عنه الشيء
 الكثير . وقد أجازته معظم أساتذته في الفتوى ورواية الحديث . وقضى
 أكثر من عشرين عاماً منقطعاً إلى التأليف في الفقه وأصوله وما
 إليها . وتوفي في الحادي عشر من رمضان سنة ١٣٣٦ هـ . وكان
 لوفاته صدى أسف عظيم في مختلف أنحاء العراق .

أما صفاته فقد كان رحمه الله كريم الطبع سخي الكف أريحي
 الروح حاضر البديهة ، رقيق الخيال مشبوب الحس ، محباً للأدب
 وأهله حباً جما . ولكم أن ترجعوا إلى العقد المفصل لتروا ما يقوله
 السيد حيدر في مقدمته وفي سائر أبوابه عن صفات هذا الرجل
 ومزاياه . أما أنا فأكتفي بأن أقدم البرهان على سرعة خاطره لا أنني
 وعدتكم هذا ، وذلك بأن أروي لكم مثلاً مختارة مما ساهم به في نظم
 القافية التي اشترك بنظمها ارتجالاً مع الشيخ جعفر الشرقي والتي
 رويت لكم مثلاً من أبيات الأخير منها في الحديث السابق ،
 قال المترجم :

عليك سلام الله ما ذر شارق	وما أن مشتاق وما حن وامق
وما تيممني في هواك صباية	وما علقت بالقلب منك علائق
وما سجت في أثل ساعرج حمامة	كأنني وإياها مشوق وشائق

وقال بعد أبيات :

لإذما نشقت الريح من أيمن الحمى	فما أنا إلا طيب نشرك ناشق
عشقت معانيك الحسان تمحضاً	وما العشق مالم يخلص الحب عاشق
فلي لوعة وجه النهار ، ولوعة	تورقني بالليل ، والليل غاسق
وددت بأن فارقت حتى حشاشتي	ولا أنت في يوم النوى من أفارق

وقال مشيراً إلى الجبوبي :

شقيق ولولا ذكره العذب ما اغتدت

تبيّجني عند الرياض الشقائق
يلجلجني ذكر اسمه هيبه له
وما خرسست لولاه مني الشقاشق
لقد فاني منه الغبار إذا جرى
وحسبي أني لاحق وهو سابق
ولا عجب لو أنصف القوم بيننا
فان السها عال ، وشلان شاهق
إذا لم تغز بـكر المعالي بوصله
فمن ذا يحـيها ؟ ومن ذا تعانق ؟
ومنها قوله :

أطاعك يوم البطش جيش عرمرم
عليه لواء النصر ما دمت خافق
فوارسه منك الأنامل ، والحجا
أمير وغاه ، والسطور الفيالق
وأقلامك ! الدم الرقاق سـلاحه

إذا الحرب قامت لا السيوف البوارق

* * *

سيداتي وسادتي :

هذا مثل ناطق من قدرة الرجل على الارتجال ، ولمن أراد المزيد
أن يرجع إلى الجزء الثاني من «العقد المفصل» ليجد فيه أمثلة أخرى
كثيرة . وشعر المترجم في جملة جامع بين الرقة والمتانة ونقاء الديباجة
والجزالة ، تقرأه فتحس مرة كأنك تقرأ ابن سناء الملك وتارة

كأنك تقرأ أبا فراس الحمداني لما يمثل من بلهنية العيش وصفاء الحياة
من جهة ، وسمو المكانة وعلو المنزلة من جهة أخرى ، اسمعوا قوله
متشوقاً إلى بغداد :

أرحها أيها الحادي	على معنى يغداد
وطارحها أحاديث	هوى فت بأعصاد
وقرط سمع واعيا	بانشاء وإنشاد
بحيث رياضها ناد	والني زهرة النادي
بروحي أنت من ألف	وإن عز لك النادي
فصل مضناك تغليسا	وزر من غير ميعاد
هزلت فليس غير الج	د لي إلغاً يغداد

وقوله متغزلاً :

نحن قوم إذا نظرنا صبورنا وإذا ما سلا الورى ما سلونا
قتنتنا بحسنها وجنات ككؤوس الطلى صفاء ولونا
وجفون رشقنتنا بنبال نحن منها لولا الهوى ما دنونا
وقوله من أرجوزة يصف بها رحلة قام بها بين النجف وكر بلاء
عن طريق القررات :

يارب يوم هو أصفى يوم أحسن وقعاً من لذيذ النوم
سرنا على اسم الله فيه من حمى حامى الحمى ميممين الحرما

حتى أرحناها بروض قد زها
والماء - لا عدمت منه الكوثر -
ومذ تبدى البدر في أفق السما
سرنا على حراقة وابن الصبا
فذاك بالماء الهوا يهزه
ترفنا إذ ذاك نسمة السحر
فلم نزل ، حتى إذا الليل دجا
وقوله مفتخرًا :

بنرجس يشبه أحداق المها
صفائح التبر سكتن أنهرها
ومثله فوق القرات ارتسما
يخفق كالقلب إذا ما طربا (١)
وذا الهوى بالنار يستقره
بزورقٍ أسرع من لمح البصر
ثانيةً ، فزنا بتحقيق الرجا

يا شائون أديعوا الحقد أو فدعوا
لستم بأكفاء أقوام إذا ذكروا
أين القرات من المالح الأجاج إذا
لنا من العز ساحات ممنة
منا الكرام وفي نعمائنا انكشفت
لن غر كم لين لمس من جوانبنا
إن سد إقبال دهر بعض عيكم
ومنها :

لنا بغر المعالي عنكم شغل
بفضاهم في البرايا يضرب المثل
قيسا ؟ وأين من التيارة الوشل ؟
تنبو وتقصف عنها اليوض والأسل
دجا الخطوب وفي أسيافنا الأجل
فالصل لان ولكن دونه الأجل
فقد يزين علانا الحادث الجلل

إن المعاني إذا أنتجتها فكري
فعن ما فعلته الأعين النجل

(١) المراد بابن الصبا : الشراع .

وكم كلّي نظمت منكم وأفئدة أقلامي الرقش لا العسالة الذبل !
عجيبة - وزماني كله عجب - رام الذباب محلاًّ دونه زحل !
وقوله مفتخراً أيضاً :

سل الضيفان عن أهلي وعني وساهم عن قدور راسيات
وساهم عن شماتة الأثافي بحيث شمام ثالثة الأثافي
وسل حساد مجدي عن ذراه وما جرعوا من السمّ الدُعاف
فبيتي ذاك مفزع كل وفدٍ وما جأ كل منتجع وعافي
وبيتي ذاك معقل كل ركب

فمن يُجر ومن خص عجاف (١)

سيداتي وسادتي :

أظن أنني لم أخطئ ولم أسرف عندما قلت لكم : أن المترجم
يعيد إلى الأذهان نعمة ابن سناء الملك حيناً ، ونبرة أبي فراس
حيناً آخر . ففي ما رويت لكم من شعره خير شاهد على ذلك .
على أننا إذا حيّينا الأديب المتبحر في شخص المترجم فينبغي أن لا
تنسى منه السري الجواد المفضل الذي يتعهد الأدب ويتفقدّه ،
ويحبه ويحبّه ، ويمين على اصطناعه ومزاولته بكل وسيلة مستطاعة .

(١) بحر : مملوءة .

فلولا صاحبنا لما كتب « العقد المفصل » ولولاه لما كتبت صفحات
كثيرة من ديوان حيدر ، ولولاه لما نظمت قصائد كثيرة وكثيرة
جدا لشعراء آخرين . رحم الله الشيخ محمد حسن كبة ... فلقد كان
من أقطاب نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر ... يمدّها
بنشاطه ، وينغذيها بأدبه ، ويعملها بنشبهه .

الخميس ١٨ / ١٠ / ١٩٤٥



الكوازاه

— أو —

خليفة أبي العتاهية

سيداتي وسادتي :

حدثكم في القسم الأخير من هذه السلسلة عن جماعة من الشعراء
الفقهاء النبلاء ، وأريد الآن أن أحدثكم عن جماعة من الشعراء
الشعبيين الذين لم يرزقوا حظاً كبيراً من سعة الحال ورغد العيش ،
كما أنهم لم يرزقوا حظاً كافياً من التعليم والثقافة . وسأحدثكم في هذا
المساء عن شاعرين من صميم الشعب ، ولدا فقيرين وعاشا فقيرين وماتا
فقيرين ، مع أنهما كانا من شعراء العراق البارزين في القرن المنصرم .
هذان الشاعران الشعبيان المجيدان هما الكوازان السيدان صالح
وحمادي ابنا مهدي ابن حمزة الشمري نسبة إلى قبيلة شمر المعروفة .
ولد هذان الشاعران في الحلة بيت أب كان يصطنع بيع الجرار
والكيزان وما إلى ذلك من الأواني الخرفية . وكان من الحق أن
ينقذهما الشعر من مخالب الفاقة وأن يربأ بهما عن هذا العمل المتواضع

كما ربأ عنه بأبي الغتاهية قبل مئتين وألف سنة تقريباً ، ولكن ما كان
 القرن الثالث عشر للهجرة ليهيئ لهما المصير الذي هياه القرن الثاني
 لسلفهما بأئع الجرار واليكيزان في فجر حياته وشاعر الخلفاء والوزراء
 فيما بعد. وفي الحقيقة أنهما أصابا شيئاً من رفعة المنزلة وذووع الشهرة ،
 إلا أنهما بقيا كوازين بأتم معاني هذه الكلمة إلى آخر أيام حياتهما .
 ولئن كان الكواز الصغير - وهو الشيخ حمادي المتوفى عام ١٢٧٩ هـ -
 قد رضي أن يتكسب بشعره في غير نجاح وأن يمدح من يستحق
 ومن لا يستحق طلباً للجائزة ، لقد كان الكواز الكبير - وهو الشيخ
 صالح - يأنف من هذا كل الأنفة ويطرف عنه كل الترفع ، فلا
 يمدح إلا تقديراً للعلم وتكريماً للفضل والأدب وتوثيقاً لعرى
 الولاء والصدقة ، ولذلك كانت مدائحه مقصورة على آل قزوين
 وآل كبة . على أنه لم يكن مكثرأ من مديح هؤلاء الناس ، وإنما كان
 يمتدحهم في ظروف ومناسبات خاصة تقتضي قيامه بهذا العمل ،
 فكأنه لا يريد أن يستعين بمخلوق على ما رضى له الخالق . وكما كان
 الكواز الكبير أصلب من أخيه عوداً وأعف نفساً وأشرف خلقاً ،
 كذلك كان أخصب قريحة وأوسع خيالاً وأرفع لغة وأسلوباً ،
 أضف إلى ذلك أنه تعلم بعد أن تقدمت به السن ، فدرس النحو
 والصرف والمنطق . وفي شعره ما يدل على دراسته هذه :

شاركتها بعموم الجنس وافترقت عنهن فيما يخص النوع من نسب
 بينما بقي الكواز الصغير أمياً طول حياته . ومن ظريف ما يحكي
 عنه بهذا الصدد أن نحوياً خطأه ذات يوم في شيء من شعره
 فقال له : أنا لا أستطيع أن أناقشك فيما تقول ، ولكن ارجع إلى
 كتابك تجد أنك على خطأ وأني على صواب . وقد جمع الكواز
 الكبير شعره وشعر أخيه في ديوان اسمه « الفرقدان » إلا أنه ضاع
 مع شديد الأسف ولم يبق في أيدينا من شعر الرجلين سوى القليل
 النزر . وأروي لكم فيما يلي مثلاً مما يحضرني من شعر الكواز الصغير ،
 لا نني لا أريد أن أقف عنده طويلاً . قال رحمه الله متغزلاً في
 صدر قصيدة :

حبذا أنت من حبيبٍ مسلمٍ ومشيرٍ بطرفه متبسمٍ
 لك خد بمر خالٍ عليه خطب القلب للفرام فأنعم
 وقال في مطلع قصيدة :

أورد على أقحوانٍ أطل بخديك أم دم صبٍ أطل
 وقال في أول قصيدة رثى بهاء شهداء الطف :

أما الأحبة ما لهم رجـم ألقوا النوى وتأبد الربع
 جمـم تشتت شمله فاذا للشوق بين ضلوعك الجمع

وعليهم صدع الفراق ضحاً
وقال يصف ناقة :

غنى لها باسم الغوير حداثها فصفت لصوت حداثها سمعها
وسرت وتغريد الحداة يسوقها من خلفها وتقودها صيواتها
فكانها نشوانة من شوقها وكان صوت حداثها ككسانها
ومن طريف شعره هذه الأبيات التي يصف بها مسير الحسين
وأصحابه عليهم السلام من الحجاز إلى العراق وتروطهم أرض كربلاء :
ومقوضين تحملوا وعلى مسراهم المعروف محتمل
ركبوا إلى العز الردي وحدا للموت فيهم سائق عجل
وبهم ترامت للعلا شرفاً لبل المنايا السود لا الابل
حتى إذا بلغ المسير بهم أقصى المطالب وانتهى الأمل
زلوا بأكناف الطغوف ضحاً وإلى الجنان عشية رحلوا
سيداتى وسادتي :

هذه نماذج من شعر الكواز الصغير ، تدلنا على ما عنده من
سليقة حسنة وفطرة صافية وقريحة سمحة ، ولكنها لا تدل على أنه
من ذوي الأصالة والقدرة على الابتكار كما كان أخوه الذي جمع نفاذ
الحس إلى جودة السليقة وعمق التفكير إلى صفاء الفطرة . وفي ما بقي
لنا من شعره خير دليل على ذلك ، اسمعوا قوله :

الطرف يزعم لولا القلب ما رمقا والقلب يزعم لولا الطرف ما عشقا
هـذا يطالب في لب له احترقا وهذا يطالب في دمع له اندفقا
وبين هذا وهذا قد وهى جلدي من أدعي وهما بالقول ما اتفقا!
فأكبر الظن أن هذه الخصومة التي نسبها الشاعر إلى طرفه وقلبه
والنتيجة التي انتهت إليها هذه الخصومة ، وهي حيرته المطبقة بسبب
اختلاف الخصمين ، معنى لم يسبقه إليه أحد . ومن شعره الدال على
أصالة قوله مخاطباً نفسه :

ما ضاق دهرك إلا صدرك اتسعا فهل طربت لوقع الخطب إذ وقعا
وكلما عثرت رجل الزمان عمى أخذت في يده رفقا وقلت : لعا
ترداد بشراً إذا ازدادت نوائبه كالبدر إن غشيته ظلمة سطعا
وكم رحمت الليالي وهي ظالمة وما شكوت لها فعلاً وإن فظما !

* * *

في هذه الأبيات - يا حضرات السيدات والسادة - دليل
ما وراءه دليل على صحة ما وصفت به الكوازي الكبير من صلابة
العود وسمو النفس ومثانة الخلق ، ولكن الذي أريد أن أقوله الآن
هو أن المؤلف عند شعراء العرب هو ذم الزمان والتقريع له والبرم
به ، فهم يبن مشبه له « بأَم الكلب » ترأَم جروها ، وتعرض عن
شبل الأسد ، ومقارن بينه وبين البحر الذي تطفو فوقه الجيف

ويستقر في قعره اللؤلؤ ، ومعتبر إياه عاصمة هوجاء لا تقصف من
الشجر إلا ما كان عالياً وهكذا .. أما الرفق به والصفح عنه والترفع
عن محاسبته ومعاتبته لطفاً وكرماً ، فهذا ما لا أعرفه إلا عند
الكواز الكبير . ومن غرره المبتكرة قوله في رثاء ولده توفي صغيراً
ودفن في محل قريب من الحلة يدعى « مشهد الشمس » :

ليهن محاني « مشهد الشمس » أنه

هوى بدر أنسي عنده بثرى القبر

وكان قديماً مشهد الشمس وحدها

فأضحى حديثاً مشهد الشمس والبدر

أما سائر شعر الرجل فانه مثل رائع في تفاسد المعنى وفصاحة
اللفظ وجودة التركيب ، اسمعوا قوله في صدر قصيدة :

حباني بأنواع الشراب تكرما فوالله ما آتت خمراً على الهمي
وما الخمر إلا مقلته وريقه أعند وجود الماء أبغي التيمما ؟

وقوله مهيناً السيد مهدياً القزويني طاب ثراه بابلاله من مرض :

سر يوماشانيك واغمّ دهرنا رب حلو لطاعم عاد مرا
كاشح سر لعقة الكلب أنقاً ثم في غمه القديم استمرا
ضحك الدهر منه إذ طال تيمهاً بسرور كصحوة الموت عمرا

وقوله في صدر تهنته إياه بزفاف نجله الثالث أستاذنا السيد محمد
رحمه الله :

حيث من رشأ غريب أسفرت عن قمر منير
وأيت يعطفك النسيب هم تعطف الغصن النضير
أمرمة ما شمس الطلا بفواقع الشعري العبور
ذقها وعبرها إليّ تشمني نشر العبير
فلمالك عندي والطلا كلتاها حلب العصير (١)
وقوله منها في عدالة المدوح :

سيان عند قضائه قدر الميجل والحقير
رب الخورنق عنده «رب الشويهة والبعير»
وقوله في سعة علمه وجودة تأليفه :

العلم حبوتك التي ما نلتها بالمستعير
يبدو لديك لبابه وسواك يحظم بالقشور
ولئن تسمى فيه فالأعمى يسمى بالبصير
نهج البلاغة ما تحرر لا مقامات الحريري

(١) في هذا البيت تضمين لجزء من قول حسان بن ثابت :
كلتاها حلب العصير فعاطني بزجاجة أرهاهما للمفصل

وقوله متغزلاً في صدر قصيدة يمدح بها الشيخ محمد رضا كبة :

أما الحبيب فأخذ بدلاً	مني وأبدل وصله مللاً
هو بالرقاد يبيت مكتحلاً	إذ بالسهاد أبيت مكتحلاً
وأقول لليل الطويل لما	ألقى: كأنك قد خلقت بلا
إن كان أنساه الوداد هوى	غيري فاني ما حيت فلا
من لي بليل ما وددت له	صبحاً وإن شاهده عجلاً
بات الحبيب به نغازله	طوراً وطوراً تنشد الغزلاً
تروي حديثاً هزنا طرباً	هزّ المدامة شارباً ثملاً
نزداد في تكراره فرحاً	فرح الرضا في وافد تزللاً

وقوله مفتخراً في مساجلة شعرية :

ولو كان لبسي قدر نفسي لأصبحت

نحاك ثيابي من جناح الملائك

ولو كان في ما أستحق مجالسي

نصبني على هام السماك أرائكي

وقوله في الشيب :

قلبي خزانة كل علم

م كان في عصر الشباب

فأتى المشيب فكدت أذ

سى فيه فاتحة الكتاب

وقوله في مطلع قصيدة يرثي بها أحد العلماء الأبرار :

هو المحراب فابك له جزوعا عشية فارق البدر الطلوعا

وقوله مخاطباً الامام الشيخ مرتضى الأنصاري :

فيا راضياً دهره باليسير ولا شيء فيه عليه عسير

أراك سليمان في ملكه وسلمان إذ لا تعاف الحصير

وقوله في نفس القصيدة يخاطب الامام السيد مهدياً القزويني :

لئن صُرفت عنك بعض العيون فما تدرك الشمس عين الضرير

وقوله أخيراً من قصيدة عصماء يرثي بها شهداء الطف :

لي حزن يعقوب لا ينفك ذا لهب

لصرع نصب عيني لا الدم الكذب

وغلطة من بني عدنان أرسلها للجد والدها في الحرب لا اللعب

فانظر لأجسامهم قد قد من قبل

أعضاؤها لا إلى القمصان والأهب

ومعشر راودتهم عن نفوسهم

بيض الطبا غير بيض الخرد العرب

فأنعموا بنفوس لا عدل لها

حتى أسيت على الخرمسان والقضب

وهي طويلة نكتفي منها بهذا المقدار رغبة في الإيجاز.

وتوفي صاحبنا سنة ١٢٩١ هـ ورثاه زميله السيد حيدر بقصيدة

عامرة مطلعها :

كل يوم يسومني الدهر ثكلاً ويريني الخطوب شكلاً فشكلاً

عزى فيها السيد مهدياً القزويني بالفقيد . . . رحمهم الله

جميعاً رحمة واسعة

الخميس ٢٥ / ١٠ / ١٩٤٥

— (☆) —

شاعره شميان

سيداتي وسادتي :

حدثكم في الأسبوع الماضي عن شاعرين كبيرين كوازين ،
وأحدثكم الليلة عن شاعرين كبيرين أحدهما حائك حيّص ، والآخـ
ر عطار . وأبدأ بالكلام عن الأول ، فأقول لكم إنه الحاج حسن بن
الحاج محمد القيم ، والقيم باغة العامة هو السادن ، ويظهر أن أحد
أجداد المترجم كان يتولى سدانة بعض المزارات المقدسة في الحلة ،
فأطلق عليه لقب القيم لهذا السبب وورثه المترجم وسائر أفراد
أسرته منه .

ولد صاحبنا في الحلة في أوائل الربع الأخير من القرن الثالث
عشر للهجرة ، ونشأ يبيت أبيه ، ومع أن هذا لم يكن بعيداً عن
الثقافة العربية الإسلامية لأنه كان يصطنع الوعظ ويرثق به ، ولم
يكن من ضيق الحال بحيث يعجز عن تعليم ابنه ، فانه اكتفى بتعليمه
القراءة والكتابة ، ثم رضي له بعد ذلك أن يكون صانع مناطق ، أي
حائك حيّص ، إلا أن الطبيعة أبت إلا أن يكون هذا الفتى حائك

كلام، وحائك كلام حاذقاً في هذه الصناعة كل الحذق ماهراً فيها كل
المهارة. والمعروف أنه كان وثيق الصلة بالشيخ محمد نوح الذي
خصصته بالحديث الخامس عشر من هذه الأحاديث، والذي أشرت
إليه في أثناء أحاديثي الأخرى غير مرة، وكان هذا يعده تلميذاً له،
ولا أدل على ذلك من قوله في قصيدة يرثيه بها:

سقيتك سلسل الكلم المصفى تجذبه قذى الهذر الذميم
ومن ظريف ما يحكى عن المترجم في هذا الصدد أنه أشد الأستاذ
نوحاً غزل رائيته التي مطلعها:

قد حملت نورك يا معطاره صباً بنجد طيب عراره
والتي سأروي لكم طرفاً منها، على أنها لمهيار، فاستحسنها الأستاذ
استحساناً شديداً وأثنى عليها ثناءً عاطراً، فلما وثق القيم بأنه راضٍ
عنها كشفه بالحقيقة، فقال له: «أشهد لقد أصبحت شاعراً».
ومهما يكن من أمر علاقة القيم بنوح فإنه مما لا شك فيه أن
الأول قد تعلمذ على شاعرين قديمين عظيمين: هما الشريف الرضي،
وتلميذه مهيار - فقد كان يقرؤهما كثيراً ويعجب بهما إعجاباً شديداً
ويتأثر بهما تأثراً شديداً كذلك. وقد قضى - رحمه الله - عمره القصير
في ممارسة حرفته المتواضعة من جهة وفي القراءة والدرس والتتبع من
جهة أخرى.

أخبرني شاهد عيان ثقة أن حانوته الصغير كان ندوة أدب
خطيرة الشأن - ذلك لأنه كان يطلع تلاميذه من صغار الحاكّة على
خير ما يقرأ وخير ما ينظم ويرشدّهم إلى ما في هذا كله من سحر
وجمال وفن وصناعة . وكان عارفو فضله من أهل العلم والأدب
يختلفون إلى حانوته دائماً يستمتعون بحديثه العذب وأدبه الغض
وظرفه الجم .

وتوفي - رحمه الله - على أثر داء أعيا الأطباء سنة ١٣١٩ هـ ولما
يتجاوز الخامسة والأربعين ، وكان لوفاته صدى أسف شديد في
الحلة وما إليها من أواسط القرّات .

أما صفاته : فقد كان أيباً ، وفيّاً ، ذكي القلب ، خفيف الروح ،
بارع النكتة ، شديد التأمل في شعره كثير التنقيح له .

قرض الشعر وهو عامل بسيط ، فلم تحدّثه نفسه في يوم من
الأيام أن يتخذ وسيلة لجرب المغام وكسب الجوائز ، ولو أراد هذا
لكان ميسوراً سهلاً ، ولكنه أبى إلا أن يضطلع الأدب للأدب
وأن يقرض الشعر للشعر . ولذلك كان شعره رثاءً لأهل البيت
أو غزلاً أو تهنئة لصديق ، أو مديحاً أو رثاءً له ، أو نكتة تستدعيها
مناسبة ظريفة . وعلى ذكر الطرف والنكت يعجبني أن أحدثكم
بنكتة من أجمل نكته وأعجبها ، ذلك أنه كان ساعة وفاته محاطاً بجمع

كبير من الأهل والأصدقاء بينهم الأديب وبينهم الأمي وبينهم غير
هذا وذاك، وكان بينهم رجل مهذار بهم أنه يتكلم ولا يهمه أن يكون
كلامه مفيداً أم غير مفيد مقبولاً أم غير مقبول، فتحدث بما شاء،
وتكلم كلاماً كثيراً لا محل له، ولما لم يجد موضوعاً يواصل فيه
كلامه نظر إلى المترجم المسكين وقال له: لاني أستطيع أن أخبرك بما
يؤذيك، قال: وهو؟ قال: المرض وشدة الحر - وكان الفصل صيفاً -
فقال له: ولم تترك الثالث؟ قال: وهو؟ قال: هذرك! أفتظن أنه يقل
عن هذين؟

أما شعره فانه فصيح اللفظ شديد الأسر جميل السبك، تقرأه
فتبني في سهولة تامة ما لصاحبه من عناية فائقة بهذيبه وتنقيحه،
وتنقده فلا تكاد تجد فيه بيتاً يمكنك أن تضع مكانه بيتاً أو لفظاً
يمكنك أن تضع مكانه لفظاً. وقد جمع ابنه الوحيد للرحوم
عبد الكريم ديوانه إلا أنه مات فمات ديوان أبيه معه، ولم يبق لدينا
من شعره سوى مثل يسيرة أروي لكم بعضها في ما يلي: اسمعوا
قوله متغزلاً من قصيدة:

قد حملت نَشْرَكَ يا معطاره صباً بنجد طيبت عراره
سرت برياك فظن صاحبي قد فضّ داريّ لنا عطاره

وقوله منها :

يا هل طرقت طنباً لغمة	تحرص في نجم القنا أستاره
فباخبا رياً الشباب سجفها	يمنع عنه قومها من زاره
لو ينتضي مو تورهم من جفها	سيفاً لرد مدركا أوتاره
أو أدركوا بالطنن ربح قدھا	عافوا القنا واعتقلوا خطاره
تشير لي خلف القنا بمعصم	قد فصمت فغمته سواره (١)

وقوله منها :

قلت استعرت لحظ ظبي رامة	قالت بها لحظي هو استعاره
وقوله متغزلاً من أخرى :	
فيكن يا ظميات حاجر	سهرت قلوب لا محاجر
من كل ذات محاسن	لو شممت سود الغدائر
لأريت صبحاً قد تبليج	واضحاً تحت الدياجر
لا يتي أجفانها	ضافي الدروع ولا المغافر
عجبا لمن نواظراً	كن الفوار والبواتر

(١) كانت هذه القصيدة قد قيلت في زواج المرحوم السيد حسن ثاني أنجال السيد صالح القزويني المتقدم ذكره ، فلما وصل منشدها إلى هذا البيت صاح المجتمعون : « ألا لعنة الله على الكاذب .. » واستعادوا البيت مراراً .

وقوله متغزلاً كذلك من أخرى :

مها تستعير الريم لفته جيدها سقت بدم العشاق ورد خدودها
وزرت سجافاً لو تطيق ذوو الهوى

لزرت حواشيه بجمل وريدها
أما رئاؤه فانه على جانب عظيم من النفاسة : هذا مع العلم بأنه
يعطيك صورة صادقة من أخلاق الفقيده ومواهبه وفضائله وشخصيته
ومكانته ، اسمعوا قوله من قصيدة يرثي بها السيد حيدر :

أفندري تراك يا خير رمس أودع الله عنده أي نفس
كنت تدعى بالأمس حفرة لحد وبه اليوم صرت دارة قدس
فيه أصبحت عامراً وآكم من بيت مجد بعد ابن أحمد درس
فهو في ظلمة وأنت بنور وهو في وحشة وأنت بأنس
وإذا ما دجا فقير عجيب ! أي يوم يضيء من غير شمس ؟
وقوله فيها يخاطب الفقيده :

لي قلب أطلقته فيك دمعاً بعد ما كان من جواه بجبس
ما جرت أدمعي عليك ولكن هي نفسي أسلتها فوق نفسي
وقوله من قصيدة يرثي بها أحد الصالحاء :

صبراً ولأن طرقت عظيمه فالمرء قد يسلو همومه

يقول فيها :

يا ثاويًا والصالحا ت بجنبه أمست مقيمة
عاقدت دهرك لا تتلا قي فيه يوما أو تصومه
وسدت قبرا قدغدا صدفاً ودرته يتيمه

وقوله في مطلع أخرى يرثي بها تقياً آخر :

بادرا في بردة النسك ادرجاه واعقدا اليوم على التقوى رداه
على أنه يخيل إلي أني أظلمكم وأظلم القيم وأظلم شهداء الطف
كذلك ظلماً شديداً إذا لم أروا لكم شيئاً من رثائه إياهم ، فانه من
أجود شعره وأنقسه ، اسمعوا قوله واصفياً إياه أبي الشهداء
وبسأله :-

ومضى يريد الحرب حتى أنه تحت اللواء يموت وهو كريم
واختار أن يقضي ورمته الطبا فيها وأظلمه القنا المحطوم
ففضى وسيم الوجه فوق جبينه للعز من أثر الطبا توسيم
ثاوي بظل السمير يشكر فعله في الحرب مصرعه بها المعلوم

تلكم هي حكاية القيم ، وهذا هو مجمل القول في شعره القيم .

أما صاحبه العطار ، وهو الحاج مجيد المتوفى قبل نحو من عشرين
سنة وعن عمر يناهز السبعين ، فقد كان أدبياً رفيع الذوق مرهف
الاحساس متوقد الذهن سريع الخاطر إلى درجة مذهشة ولا سيما في

التأريخ بالشعر ، وهو فن من الأدب كان رائجاً عندنا إلى وقت غير بعيد رواجاً كبيراً ، فمن ذلك قوله على لسان حلية ثمينة أهدها المرحوم السيد محمد القزويني إلى ابنه معز الدين بعد ولادته بقليل ، وقد نقش البيت في الحلية وهو :

لنا المعز حلية مذارخوا ومفتخر

سنة ١٣٢٦ هـ

وقوله مؤرخاً ضريحاً شاده المرحوم الشيخ خزعل أمير المحمرة سابقاً للقاسم ابن الامام موسى بن جعفر عليه السلام ، وهو :

للإمام القاسم الطهر الذي قدس روحا
خزعل خير أمير أرخوا شاد ضريحاً

سنة ١٣٢٤ هـ

وكان شديد التمسك بالدين حسن الامام بالعربية ، بديع الخط . وكان من أخلص أصدقاء المرحوم السيد محمد القزويني ، كما أنه كان محترماً عند الجمهور احتراماً غير قليل . ومما أأسف له هو أنني لا أروي شيئاً كثيراً من شعره ، ولكنني مع ذلك سأروي لكم ما يدل على سمو منزلته وعلو مواهبه وملكاته . اسمعوا قوله متشوقاً إلى لقاء الله ، وهو موضوع لا يخلو من غرابة وأصالة :

ما شاقني قرب الحمام وإنما اشتاق قرب الواحد المنان

لأشتم ریح العفو عند لقائه وأذوق طعم حلاوة الاحسان
وقوله مناجيا ربه :

أحصلا ما في الصدور بموقف لا عذر فيه لنا عن العصيان
أتقيم فينا العدل يحكم وحده وأمرتنا بالعدل والاحسان ؟
وقوله في عصا تمينة أهديت إلى المرحوم السيد محمد القزويني :

وإن عصا من عوسج ترهق العدا وتثمر معروفاً يميني محمد
لتلك التي يوم القيامة جده يزود بها عن حوضه كل ملحد
ولهذين البيتين قصة طريفة ، خلاصتها أن شاعراً مكثرًا لإكثاراً

عجيبا اسمه الشيخ يعقوب استحسن هذين البيتين فشطرها فصارت
البيتان والتشطير أربعة أبيات ، ثم شطر الأبيات الأربعة فصارت
ثمانية ، ثم شطر هذه فصارت ستة عشر بيتا ، ثم شطر الستة عشر
بيتا فصارت اثنين وثلاثين بيتا ، فلما بلغت الأبيات هذا المبلغ كتبها
وقدمها إلى صاحبنا العطار ، فلما رآها نظر إليه نظرة خيفة ثم قال له :
« صديقي الشيخ ... أتسكب أربع قرب من الماء على قدح صغير من
عصير الليمون ؟! ... فعل الله بك وفعل .. » م

الخميس ١ / ١١ / ١٩٤٥

شعراء متفرقون

سيداتي وسادتي :

حدثكم في قسم من هذه السلسلة عن جماعة من الشعراء الفقهاء النبلاء . وحدثكم في قسم آخر منها عن جماعة من الشعراء الشعبيين الذين قضوا أعمارهم في مزاوله حرف بسيطة وأعمال متواضعة يكسبون منها مسكة رزقهم مع أنهم كانوا أرباب فضل وأدب وأصحاب ملكات حسنة ومواهب سامية . وأود أن أحدثكم الآن عن شعراء متفرقين يتخيل إلي أن وقفة قصيرة عند كل واحد منهم تكفي لاعطاء فكرة واضحة عن حياته وأخلاقه وأدبه . وبين هؤلاء العالم والجاهل والغني والفقير والناهب والخامل . وأول من أقف عنده منهم في هذا المساء هو الشيخ عبد الحسين ابن الشيخ نعمة الطريحي نسبة إلى آل طريح وهم أهل علم وأدب ورئاسة دينية في الحلة والنجف والرماحية ، وهذه الأخيرة مدينة عافية الآثار اليوم في أواسط القررات ، ينتهي نسبهم إلى حميد بن مظاهر الأسدي أحد كبار شهداء الطف . ومن أعيان هذا البيت الشيخ فخر الدين صاحب

«مجمع البحرين» في اللغة ، وقد طبع كتابه هذا غير مرة ، والشيخ
محيي الدين المتوفى سنة ١١٤٨ للهجرة ، وهو شاعر مجيد ومن نفيس
شعره قوله في وصف القانوس :

كأنما القانوس في حلة حمراء من نسج دقيق^(١) رقيق

والشمعة البيضاء في وسطه ذات اعتدال مثل سهم رشيق

صعدة بلور لها حربة من ذهب في خيمة من حقيق

أوكاعب بيضاء عريانة قائمة في كلة من شقيق

ومن علماء هذا البيت وأدبائه المبرزين صاحبنا الشيخ عبدالحسين ،
وقد ولد هذا في النجف الأشرف سنة ١٢٣٥ للهجرة وتولى والده
الفقيه الجليل الشيخ نعمة تربيته فنشأ أحسن نشأة وأفضلها .

حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين ، ودرس علوم العربية والدين
على جماعة من العلماء ، نعرف منهم والده والشيخ حسن كاشف الغطاء
صاحب «أنوار الفقاهة» والشيخ مرتضى الأنصاري الذي أشرنا إليه
مراراً عديدة في هذه الأحاديث ، وقد أجازة هذا في رواية الحديث
والافتاء . ومما هو جدير بالذكر أن صاحبنا لم يقتصر على دراسة
العلوم اللسانية والشرعية كما هو مألوف في عصره ، ولكنه درس
شيئاً لا بأس به من الحساب والهندسة والفلك وغير ذلك من العلوم

(١) يروى « رفيع » وهو خطأ .

التي يسميها القدماء بالخيلة. وقد انقطع للتدريس والتأليف في أواسط حياته، فأخذ عنه جماعة من أولي العلم والفضل، وترك مؤلفات عدة لم يطبع منها شيء، منها: «إيضاح الكلام في شرح شرائع الاسلام» في الفقه، و«موصل الطلاب إلى أصول البناء والاعراب» و«العقد الفريد في علم التجويد» و«متقن المقال في أحوال الحديث والرجال» - وهو تلخيص لكتاب جده الشيخ نضر الدين المتقدم ذكره «جامع المقال فيما يتعلق بأحوال الحديث والرجال» - و«أرجوزة في الموارد» و«القواعد الكتابية» وهي رسالة في الاملاء والانشاء، وله ديوان شعر يشتمل على سائر فنون الشعر. وغني عن البيان أنه إنما كان يمدح ويرثي ويهنيء أقرباءه وأصدقاءه وأوداءه. فمن شعره قوله معاتباً السيد صالح القزويني البغدادي القادم ذكره:

قد منعمت وصالكم أي منع	وهجرتم وهجركم غير بدع
كم أتينا على اشتغال بوصل	وأتيتم على فراغ بقطم
وسمغنا ما قلموه وأنتم	قد صمتم عن قولنا كل سمع
إن جفا جيرة الغوير فقيهم	بودادي أعتاض جيرة سامع
معشراً بعد معشر ووداداً	عن وداد وأربعاً بعد ربم

وقوله متبرماً بالحياة:

يلوت تحركي ومدى سكوني فلم ينجذ التحرك والسكون

فعدت بحيرتي لم أدر فيما النجاة وراحتي فيما تكون

وقوله في الموضوع نفسه :

وأفراح تمر وليس تبقى ويبقى دونها المسح الوبيض

وأنس جاء من خبر ضعيف وحزن في الحديث المستفيض

ولولا فقد أحبابي وهمي لما استشفعت يوماً بالقرىض

سيداتي وسادتي :

أحب أن ألفت أنظاركم إلى أن الخبر الضعيف والخبر المستفيض

الوارد ذكرهما في البيت الثاني من هذه الأبيات من مصطلحات علم

الحديث ، وبهذه المناسبة أود أن أقول لكم إن ذكر الاصطلاحات

العلمية كثير في شعر الرجل ، وذلك بسبب ممارسته الدائمة لها . ولم

أقف على تأريخ وفاة المترجم ، فانتقل بكم إلى الكلام عن شاعر فقيه

آخر هو الشيخ صادق بن محمد بن أحمد من آل أطميش وهم بيت من

ربيعة . والشيخ صادق هذا هو والد قرينة الشيخ عبدالحسين الطريحي

المتقدم ذكره ، وقد كان رجل فقه وأدب وشعر ، فمن شعره قوله :

سأشكر من لقائكم القليلاً وأشكو من فراقكم الطويلاً

إذا نهشت أفاعي البين قلبي جعلت دواءه الصبر الجميلاً

وقوله مراسلاً أحد أصدقائه :

لعل ليالياً ذهبت تعود فيورق من زمان الوصل عود

ويرجع لي بها زمن التصابي وغصن شيبتي خضل يمد
ومنها :

فلا تجزع لهجر بهـد وصل فأيام الهوى ييض وسود
فوال حق من أولاك علماً تفيد به سـواك وتستفيد
وتوفي الشيخ صادق أطيمش سنة ١٢٦٨ للهجرة - رحمه الله .

* * *

أما خاتمة شعراء هذا المساء فهو السيد مهدي السيد داود ، عم
السيد حيدر - الشاعر الكبير وأستاذه . وقد أشرت إليه عند الكلام
عن نشأة ابن أخيه . وأقول لكم الآن إنه ولد بالحلة في أوائل القرن
الثالث عشر للهجرة ونشأ بها نشأة حسنة ، وهاجر إلى النجف لطلب
العلم فدرس شيئاً غير قليل من العلوم اللسانية والشرعية ، ثم عاد إلى
الحلة ف قضى فيها معظم أيام حياته . وقد اشتغل بالتأليف ، فكتب لآل
كبة (مصباح الأدب الزاهر) وهو كتاب أُرِّخ به حركة العراق
الأدبية على عهده . وقد قيل لي إن النسخة الوحيدة التي توجد من
هذا الكتاب هي الآن في دار الكتب المصرية . وله مختارات شعرية
نقيسة تقع في مجلدين ضخمين قرأتها يوم كنت مقيماً في الحلة واستفدت
منها كثيراً . ولو لم يكن له من الفضل على الأدب العربي إلا تربية
السيد حيدر وتخريج له لسكنى . وتوفي رحمه الله سنة ١٢٨٨ للهجرة ،

فرثاه ابن أخيه بقصيدة رنانة رويت لكم بعضها عند الكلام عن
رثائه . وله شعر كثير تغلب عليه الزخرفة البيانية المتكلفة ويشيع فيه
الغلو والإغراق ، أروي لكم مثلاً من أحسنه فيما يلي ، قال متغزلاً
في صدر قصيدة :

نسيم الصبا استنشقت منك شذا الندى

فهل سرت سرت مجتازاً على دمتي هند ؟

قد كرتني نجداً وما كنت ناسياً	ليالٍ سرقتها من الدهر في نجد
ليالٍ قصيرات ويا ليت عمرها	يمد بعمرى فهو غاية ما عندي
بها طلعت شمس النهار فلقها	ظلامان من ليل ومن فاحم جمع
ولو لم تغطي خدّها ظلماتها	لشق عمود الصبح من وجنة الخد
قد اختلست منه عيوني نظرة	أرتني لهيب النار في جنة الخلد
وفي وجنتها حمرة شك ناظري	أمن دم قلبي لونها أم من الورد ؟
وفي نحرها عقد توهمت ثغرها	لأنه نظّمن من ذلك العقد
وما كنت أدري ما المدام وإنما	

عرفت مذاق الراح من ريقها الشهد

وقبل اهتزاز القد ما هزة القنا

وقبل حسام اللحظ ما الصارم الهندي

ومن قربها مالت برأسي نشوة صحوت بها يا مي من سكرة البعد

ولأن زال سكر البعد من سكر قربها
فلا طبّ حتى يدفع الضد بالضد
تعشقتها طفلاً وكهلاً وأشيأاً ورهماً
عرته رعشة الرأس والقدر

وقال يصف أحد الخانات التي بناها المغفور له الحاج محمد صالح
كبة بين بغداد والحلة ، وكان قد لجأ إليه بسبب نزول المطر في زيارة
قام بها لبغداد . والقصيدة وصف للخات ومدح لبانيه المفضل
كما سترون :

ويبت على ظهر الفلاة بناء من	له همة من ساحة الكون أوسع
نزلنا به والغيث يسكب ماءه	كأن قطره من سيب كفيه يهيم
وما برقه إلا تبسم ثغره	لوقاده من جانب الكرخ يلمع
ومنه وقتنا أن تبلى ثيابنا	مقاصير من شأ الكواكب أرفع
ولم ير في الدنيا مقاصير جنة	لشمل بني الدنيا سواهن تجمع
كأننا حلول في منازلنا بها	ولم تتضمنا مهامه بلقم
وبتنا بها حتى تمت نفوسنا	نقيم بها ما دامت الشمس تطلع
وعنها وإن عزت علينا بيوتنا	وددنا إلى أكنافها ليس نرجع
فقيهها أبو المهدي أسبغ نعمة	

على الناس فيها أطوق الناس أجمع

وأغنائهم قد كان مفتقراً لها كمن مسّه فقر من الدهر مدقع
له الله كم أسدى سواها صنائعاً بأمثالها سمع الورى ليس يقرع

* * *

وللمترجم شعر كثير في «دمية القصر»، وهو كتاب مخطوط للسيد
حيدر، توجد منه نسخة لا ثاني لها فيما أعلم عند صديقنا الفاضل
الشيخ مهدي كبة، وفي «العقد المفصل» المطبوع ببغداد سنة ١٣٣٢
الهجرة. فليرجم إليه من أراد

الخميس ١١ / ٨ / ١٩٤٥

—((☆))—

شعراء متفرقون أب وابن

سيداتي وسادتي :

حديثنا في هذه الليلة عن أب وابن كان لهما في حياة بغداد الأدبية أثناء القرن المنصرم شأن غير قليل . فأما الأب فهو السيد صالح بن السيد مهدي بن السيد راضي الحسيني القزويني المعروف بالبغدادي الذي ورد ذكره مع مثال من شعره في الحديث الحادي عشر من هذه الأحاديث . وأما الابن فهو السيد راضي أحد أبناء السيد صالح الستة الذين كانت بينهم من ورث علمه وفضله وأدبه ومواهبه ومناقبه .

ولد السيد صالح في ١٧ رجب من سنة ١٢٠٨ هـ في النجف ، وبها نشأ وترعرع ، ودرس العلوم اللسانية والدينية على جماعة من العلماء ، أكبرهم وأعظمهم أثراً في نفسه أستاذه الامام الشيخ محمد حسن صاحب « جواهر الكلام » في الفقه - الذي ورد ذكره مراراً عديدة في هذه الأحاديث ، وقد زوجه هذا لإحدى كريماته . ومع أن صاحبنا

كان رجل علم طويل الباع في الفقه وما إليه من العلوم الدينية فانه
أقبل على قرض الشعر إقبالا شديداً ، لأنه كان مطبوعاً عليه مغرمًا
به ، فبرع فيه براعة فائقة ونال فيه شهرة واسعة .

وفي سنة ١٢٥٩ للهجرة صعد بغداد فرحب به أهلها ترحيباً
عظيماً ، وأزلوه من نفوسهم منزلة سامية ، واتسعت عندهم حاله
وطاب عيشه . فأقام بين ظهرانهم حتى آخر حياته ، وأنسا الله في
أجله فعاش نحواً من تسعة وتسعين عاماً هجرياً . وتوفي في ٥ ربيع
الأول من سنة ١٣٠٧ هـ ، ونقل جثمانه إلى النجف مشيعاً تشييعاً
يليق بمكانته الرفيعة ومنزلته السامية .

أما صفاته ، فقد كان - رحمه الله - وسيم الطلعة جميل القسمات
أبيض اللون ممتلئ الجسم وقوراً رزيناً عف اللسان سمح الكف
محبياً إلى النفوس محترماً عند الخاصة والعامة على السواء .

سيداتي وسادتي :

لهذا الشاعر العلوي القزويني البغدادي المشهور بالأمس والمغمور
اليوم ديوانا شعر ، أحدهما خاص بأهل البيت عليهم السلام اسمه
(الدرر الغروية في مدائح العترة النبوية) وهو يتألف من أربع
عشرة مطولة تقع في نحو من ثلاثة آلاف بيت ، وثانيهما جامع

لما تفرق من شعره في شتى المقاصد والأغراض ، من مديح إلى رثاء
إلى تهنئة إلى وصف - وإن كان هذا عنده قليلاً جداً - وليكنه خالٍ
من الهجاء خلواً تامةً ، فما أذكر أنني قرأت فيه بيت هجاء واحداً ،
وأكبر الظن أن تدين الرجل وسمو أخلاقه هما اللذان عصماه من
التعرض لأعراض الناس والتهجم على أحسابهم وأقدارهم .

ولكن بماذا يمتاز شعر صاحبنا في ديوانيه هذين؟! الواقع أنه يمتاز
بفصاحة اللفظ ، ومتانة السبك ، والاكثار من الزخارف البديعية ،
وشيء غير قليل من المبالغة ، وطول النفس . ولا بد لي من أن أقف
قليلاً عند هذه الميزة ، لأنها مما يلفت النظر حقاً ، فكثيراً ما بلغت
قصائده المائتي بيت ، وربما بلغت الثلاثمائة بيت دون أن يسرع إليها
الوهن أو الضعف . ونظم مئيات الأبيات في عروض واحد وعلى
روي واحد ومن غير ضعف ولا وهن في الغالب ، أمر ليس بالسهل .
وكان حقاً أن يجذب هذا القزويني البغدادي انتباه جمهور القراء بطول
نفسه وقوة أسلوبه . ولكن هيهات ، فإن المواضيع التي يعالجها في
الأكثر ليست مما يلذ قارئاً أو يستميله ويستويه . وأنا أروي لكم
مثلاً من غزله ونفره - وهما خير ماله من الشعر - لتتمكنوا من
تكوين فكرة صحيحة عنه . اسمعوا قوله متغزلاً من قصيدة :

أعد الوصال فقد قضيتُ صدودا ودع الوعيد وأنجز الموعدا
 ما كان ضرك لو وصلت متيماً جرعه يوم الصدود صديدا
 حبس عليك شجونهُ وشؤونه لم تألُ تصويرياً ولا نصعيدا
 إن غبتَ عن عيني فانك لم تزل تلقاء قلبي شهاداً مشهودا
 حملتني ما لو تحمل بعضه الـ جلود منك لصدع الجلودا
 وأنا الذي إن جف مجرى عينه أجرى فؤاداً بالهوى مفؤودا
 قيّدت ما أطلقت من عبراته أرايت إطلاقاً غدا تقييدا؟
 حملت ريك النسيم فما سرى إلا وأورى شجوي المكودا
 كم فيك أنشر ما طويت من الهوى

شغفياً ، وأنظم ما شرت عقودا
 أخلقت ثوب الصبر وهو مجدد وأعدت لي رث الغرام جديدا
 قد كنت أقنع بالخيال يزورني لو كنت تمنح ناظري رقودا
 هب لي الكرى صلةً ، لعلك عائدي
 طيفاً ، فيجمل يقظتي بك عيـدا
 جاوزت حد الوجد فيك ، وإنما وجدي كودي ، لم يكن محدودا
 كانت ليالي الوصل بيضاً ، فاغدت
 أيام هجر كالكالي سودا

وقوله من موشح طريف :

حسب سقاء الحب - صرف الشغف
فلم يزل من حبه في سكر

صبأ إلى نشر الصبا المبكر مستنشقا به أريج العنبر
مبدداً بالنشر شمل الكدر مجدداً عصر الشباب النضر
مستأصلاً داء المعنى المدنف * مبشراً عن الفزال الأهيف
بعوده إلى الكيب الأعفر

أفدي رشا أفي له ويفدر من لم يمت بحبه لا يعذر
أغرت أحوى المقلتين أحور من وجهه ماء الجمال يقطر
كم ذب عنه بالحسام المرفف * وكم حماه بالقنى المثقف
من طرفه وعطفه المنكسر
وقوله مفتخراً :

طريق المعالي في شقوق الأراقم ونيل الأمان في بروق الصوارم
ومن خاض أمواج الردى خافه العدا
وألقي إليه السلم من لم يسالم
ومن عاف ذل العيش طابت حياته

ولذ له في العز طعم العلاقم

أعط عنك أبراد الكرى وامتط السرى

فما في اغتنام المجد حظ لنا ثم

وخض لجسج الأهوال في طلب العلا

ألا إنما الأهوال أحلام نائم

ولاني لسباق إلى كل غاية كبت دونها صيد الملوك الأعظم

أحن لقرع الزاعمية^(١) بالكلأ وأصبوا لوفع البيض فوق الجماجم

سيداتى وسادتى :

هذا هو مجمل القول في السيد صالح القزويني البغدادي وشعره .

أما ابنه السيد راضي فاننا لا نكاد نعرف عنه شيئاً يذكر مع الأسف .

إذ كل ما نعرفه عنه هو أنه كان ممن يتكسبون بالشعر ومن المكثرين

منه وإن لم يبلغ مدى أبيه في هذا المضمار ، وأنه كان محباً للتسميط

أي التخميس ، قلما أعجبه قصيدة أو قطعة إلا سارع إلى تسميطها ،

وأنه كان رجل أسفار ، زار كثيراً من أنحاء العراق وفارس ، وأنه

توفي في تبريز عاصمة إيران الثانية على عهد أبيه الذي ندبه بمرثية

رقية . ومن المؤسف أنه ليس لدينا من شعره سوى مجموعة صغيرة

جمعها أخوه السيد حسون الذي لا يزال حياً والذي يبلغ الخامسة

والثمانين من العمر ، أروي لكم منها هذه الأبيات التي أعرب بها

(١) الزاعمية : الرماح ، تنسب إلى « زاعب » : بلد أو رجل .

صاحبنا عن شوقه إلى أحبائه ببغداد يوم ضاقت به الحال في تبريز
التي لقي بها حتفه . قال :

أحببتنا بزوراء العراق	لقد طال النوى فمتى التلاقي ؟
برى جسدي لكم شوق قديم	وشيدب مفرقي هول الفراق
أراعي الساهرات بلا هجوع	مدامي أدمعي والشوق ساقى
غريق مدامع أشكو أواماً	تؤججه تبساريج اشتياق
فما يطفي حريق الشوق دمي	ولا دمي بنار الشوق راقى
يهد قوى الرواسي ما أقاسي	من الشوق الملح وما ألاقى
لقد أفنى الفراق جميل صبري	وما أبقى سوى الحسرات باقى
لعل الدهر يعدل بعد جور	ويجمع شملنا بعد افتراق
وما تبريز للفصحاء مأوى	وأن الترك من عرب العراق !
وما الخيل العتاق وما سواها	سواء في ميادين السباق
سيداتي وسادتي :	

بهذا ينتهي حديث هذين الشاعرين البغداديين المنسيين . وأرجو
أن نكون قد وفيناها بعض حقهما وأنكم قد وجدتم في حديثهما
شيئاً من المتعة واللذة

الخميس ٢٢ / ١١ / ١٩٤٥

خاتمة

- أو -

قيمة الأدب العراقي في القرن التاسع عشر

سيداتي وسادتي :

حدثكم عن حركة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر تسعة
وثلاثين حديثاً ، استعرضت فيها بإيجاز مرة وإطناب تارة - تبعاً لما
يقتضيه المقام - حياة ستة وعشرين شاعراً منسياً في غير حق ، مهملاً
في غير إنصاف ، ورويت لكم ما اتسع الوقت لروايته من مختار
شعرهم وطريفه . وكان بين هؤلاء الشعراء تسعة فقهاء مبرزين في
عصرهم ، وأربعة عمال لم يؤثروا حظاً يعتد به من الثقافة ، كما أنهم لم
يؤثروا حظاً يعتد به من المال ، وشاعر ناسك متصوف يهيج سبيل
ابن الفارض في تقديس الله وتمجيده ، وآخر غزل مطبوع على العفاف
والطهر يفسج على منوال الشريف الرضي في طرافة غزله وفي طهارته ،
وشاعر مكتتب بطبعه مبتأس بفطرته ، ومحب خفيف الطبع طاهر

الحب يعيد إلى الذاكرة أيام جميل بثينة وقيس بن ذريح ، وآخر ماجن
 ينحو نحو أبي نواس في الخلاعة والمجون والتهتك . وهذا يعني أن
 أدبنا في القرن التاسع عشر يمثل كل لون من ألوان الأدب العربي
 القديم وكل فن من فنونه . واشتماله على هذه العناصر جميعاً ، وحده ،
 يكفي لأن يحملنا على الاهتمام به والانصراف إلى ضبطه وتدوينه
 وإنقاذه من الضياع ، ثم إلى نقده ودرسه وتدوقه . على أنه ينطوي
 على محاسن أخرى من شأنها أن تزيد قيمة إلى قيمته وخطراً إلى
 خطره . ذلك أنه يمثل حياتنا السياسية في القرن التاسع عشر تمثيلاً
 صادقاً ، ويمثل حياتنا الاجتماعية تمثيلاً لا بأس به ، ويمثل حياتنا الدينية
 تمثيلاً صادقاً عميقاً . ومن يتصفح ديوان الشيخ صالح التميمي المخطوط
 يجد أنه صورة صادقة من حياة العراق السياسية على عهد داود باشا
 وعلي رضا باشا . وقد ضربت لكم الأمثال على ذلك عند الكلام عن
 حياة التميمي وشعره قبل سنة تقريباً . ولاني لانتهاز هذه الفرصة
 فأهيب بلجنة الترجمة والتأليف والنشر لطبع ديوان الشيخ صالح
 التميمي فإن في ذلك إنصافاً للرجل وخدمة للأدب صادقاً ونفعاً
 للناس غير قليل . وما يقال عن ديوان التميمي المخطوط من الناحية
 السياسية يقال عن ديوان الأخرس المطبوع - فإن هذا الديوان
 الضخم حافل بصور الفتن والقلاقل والاضطرابات التي كانت تقوّض

أركان الأمن في هذه البلاد وتفضي إلى إراقة الدماء وإزهاق النفوس
وتعطيل الأعمال النافعة بلا مسوغ ولا مبرر . ولعل رائية الآخرس
التي يصف بها ضرب نجيب باشا مدينة كربلاء بعد إنذار أهلها
ودعوتهم للاخلاد إلى السكون والطاعة ، وداليته التي يصف بها
اضطراب حبل الأمن في البصرة وغلبة العصابات عليها وإنقاذها من
هذه الفوضى الهائلة على يد ناصر باشا السعدون ، أبلغ شعره السياسي
وأروعه . ومع أن ديوان عبد الباقي ديني قبل كل شيء فانه يحتوي
على صفحات سياسية مهمة ، أحسنها فيما أظن رائيته التي يسجل بها
ظفر علي رضا باشا بالشيخ جابر أمير المحمرة واستيلاء العثمانيين على
إمارته استيلاء تاما .

أما تمثيل هذا الأدب حياتنا الاجتماعية فانه يتجلى في دواوين
ورسائل عديدة أحقها بالذكر مقامات أبي الشناء الألو سي . ففي المقامة
الأولى من هذه المقامات يوصي أبو الشناء أولاده ، ومما يوصيهم به
الحذر من الناس ، وهنا يصف لهم أخلاق مواطنهم وصفاً دقيقاً
فيصور لهم تكاليفهم على المادة وعبادتهم للقوة وكيد بعضهم لبعض
واغتيال بعضهم لبعض الآخر . وفي المقامات الثانية والثالثة والرابعة
يترجم أبو الشناء نفسه ويسرد تاريخ حياته ولكنه يصور في شيء
غير قليل من المهارة أشرف الأحاسيس وأنبيل العواطف ممثلة في

أولئك الذين أكرموه وأحبوه وأيدوه إقراراً بعلمه وإكباراً لفضله
 وأدبه . كذلك هو يصور ببراءة فائقة أخس الأخلاق وأحط
 الطباع ممثلة في أولئك الذين كادوا له وتألّبوا عليه وبالغوا في إيذائه
 لا شيء سوى أنه أغزر منهم علماً وأوفر فضلاً وأدباً . وكما يمثل هذا
 الأدب حياتنا السياسية والاجتماعية كذلك هو يمثل حياتنا الدينية
 تمثيلاً تاماً . ولمن أراد البرهان على ذلك أن يرجع إلى ديوان حيدر
 فانه واجد فيه ثلاثاً وعشرين قصيدة في مدح أهل البيت ورثائهم ،
 كلها من نفيس الشعر ومختاره . ومع أن حيدراً فارس هذه الحلبة الذي
 لا يشق له غبار فان في دواوين جعفر كال الدين وإبراهيم الطباطبائي
 ومحمد نوح وغيرهم رثاء لأهل البيت لا أعالي إذا قلت لكم : إنه على
 جانب كبير من الروعة والنفاسة . وقد أنسيت أن أشير إشارة خاصة
 إلى ديوان عبد الباقي العمري ، فان هذا الديوان حافل بمدائح أهل
 البيت عليهم السلام ومرائهم ، ثم إنه يحتوي - إلى جانب هذه
 المدائح وتلك المراثي - على مدائح دينية أخرى أهمها رائيته في الشيخ
 الصوفي الجليل محي الدين العربي ، تلك الرائية التي أقامت أدباء
 عصره وأقعدتهم وأمطروها وابلاً من الثناء والتقريض . وليس هذا
 هو كل ما يمتاز به الأدب العراقي في القرن التاسع عشر ، بل إنه
 بلغته المهذبة وأساليبه المتينة ، وديباخته المشرقة يعيد إلى الذاكرة

عهد أبي تمام والبحري والشريف الرضي .

ستقولون ومن هم الشعراء الذين يسيّدون إلى الذاكرة أيام أولئك
الأعلام؟! وأجيب بأن أحد هؤلاء هو التيمي الذي منحته لقب
أبي تمام الصغير عند التحدث لكم عنه ، وثانيهم هو الجبوبي الذي
نجد جمال لغة البحري ولطافة أسلوبه في كل قصيدة من قصائده وفي
كل موشحة من موشحاته ، وثالثهم هو حيدر الذي لو قال قائل إن
الرضي بعث في شخصه لما كان مخطئاً . ومن شأن هذه الملاحظة أن
تقودنا إلى الموازنة بين القرن الثالث عشر للهجرة في العراق والقرون
الاسلامية الأولى . وعندي أنه أكبر شأناً من القرن الأول للهجرة ،
من الناحية الشعرية طبعاً ، وأقل قيمةً وخطراً من القرنين الثالث
والرابع ، ولكنه يساوي القرن الثاني للهجرة وقد يفوقه بعض الشيء ،
لأنه لم يجتمع في هذا ثلاثة فحول من درجة التيمي والجبوبي وحيدر .
وتسألوني عن مركز العراق الأدبي في القرن التاسع عشر بالنسبة
إلى سائر الأقطار العربية ، فأقول لكم إنه يبذلها جميعاً سوى مصر
التي أنجبت محمود سامي البارودي وإن كانت مصر قد أنجبت البارودي
وحده بينما أنجب العراق ثلاثة من أمثاله . وشيء آخر لابد من أن
أقوله لكم ، وهو أن القرن التاسع عشر في العراق نتيجة رائعة
للقرون المتوسطة في هذه البلاد ومقدمة أكثر روعة للقرن العشرين .

فليس من شك في أنه لو لم ينبغ عندنا التيممي والحبوبي وحيدر لما
نبغ عندنا الزهاوي والرصافي والكاظمي .

هذا هو رأيي فيما أنتجه العراق من أدب وفن خلال القرن
التاسع عشر . 'سقتُهُ' باخلاص وبسطته بجلاء وصراحة ، وأرجو
أن يكتب له السداد والتوفيق مـ

الخميس ٢٩ / ١١ / ١٩٤٥



صفحات مطوية من الأدب العربي

وهذه خمسة أحاديث أذيعت من محطة الشرق
الأدنى في أثناء صيف سنة ١٩٤٥ بعنوان
« صفحات مطوية من الأدب العربي » تناولت
شاعرين عراقيين ولد أحدهما في أواسط القرن
التاسع عشر ، وثانيهما في أواخره . رأيت أن
أنشرها هنا استتماماً للفائدة

محمد مهدي البصير

السيد عبد المطالب - حياته وأخلاقه -

سيداتي وسادتي :

في وادي الرافدين ثروة أدبية طائلة يجهلها الجيل الحاضر في العراق وفي غيره من الأقطار العربية جهلاً يكاد يكون تاماً . فليس في كتب الأدب المدرسية الحاضرة - إذا استثنينا « مدخل » الأستاذ الأثري - أية إشارة إلى حركة العراق الأدبية في القرنين الماضيين . وليس في موسوعات الأدب الحديثة « كتاريخ آداب اللغة العربية » لـ جرجي زيدان ، و « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » لـ لأب لويس شيخو إلا النزر اليسير جداً عن هذه الحركة . ولجهل الناس هذه الثروة الأدبية الغزيرة أسباب كثيرة ، بعضها قريب وبعضها بعيد . فمن أسبابه البعيدة : عزلة العراق الجغرافية في السابق ، وقلة اتصاله بالأقطار العربية المجاورة ، وندرة المطابع في حواضره ، ولا سيما الثانوية منها . ومن أسبابه البعيدة والقريبة على السواء : فقر العلماء والأدباء والشعراء بصورة عامة ، وعجزهم في كثير من الأحيان

- بسبب ضيق ذات يدهم - عن طبع آثارهم ونشرها على الناس ، وقلة
عناية الحكومة بهؤلاء وبآثارهم - وأقول : قلة عناية الحكومة ،
لئلا أقول أكثر من هذا - وعدم وجود صحافة أدبية غنية قوية
تقوم بما شغلت عنه الحكومة وتؤدي ما غفل عن أدائه المسؤولون .
وهناك أسباب أخرى لهذا الجهل لا أريد أن أعرض لها في
هذا الحديث .

ويسرني - سيداتي وسادتي - أن أعمل على نشر هذه الصفحات
المطوية من الأدب العربي وأن أذيعها على الناس بكل وسيلة
مستطاعة . وأحمد الله على أنني نشرت طائفة منها على أمواج الأثير
من دار الاذاعة اللاسلكية العراقية . وأنا ناشر أمامكم من وراء هذا
الذياع طائفة أخرى منها راجياً أن تنال عطفكم وحسن قبولكم لها .
وموضوع حديثنا في هذه الليلة هو الأديب الكبير والشاعر
المجيد السيد عبد المطالب ، الذي كان عالماً من أعلام الأدب في
وادي الرافدين نحواً من أربعين سنة . ثم إنه مات ، فمات معه
شهرته ، وانطوى شخصه فانطوى معه أدبه .

هو عبدالمطلب بن السيد داود بن السيد مهدي الذي ورد ذكره
مراراً عديدة في « العقد المفصل » المطبوع ببغداد عام ١٣٣١ هـ .
وهو من أعلام آل سليمان في الحلة ، وهم بيت علوي كبير له قدمه

الراسخة في العلم والأدب وله مكائنه السامية في عالم الزعامة والقوة
 فيما مضى من الزمن ، وفي أبنائه يقول القائل :
 آل سليمان الذين أدّرعوا صدق المزايادون إعلان الكذب
 المانعون الضيم أولياءهم والموردون الخضم تيار العطب
 وقد ولد صاحبنا في الحلة ، وتأريخ ولادته مجهول مع الأسف ،
 ولكن يغلب على الظن أنه ولد في أوائل النصف الثاني من القرن
 التاسع عشر . وثقف على يد عمه السيد حيدر وعنه أخذ . وقد وفي
 ذلك الدين الذي لعمه في عنقه أحسن وفاء ، فجمع شعره ورسائله وما
 رثي به من شعر في ديوان أسماه « الدر اليتيم والعقد النظيم » وطبعه
 في الهند طبعة سقيمة إلى الغاية ، إلا أننا نشكر هاله كل الشكر ،
 لأنه لولا هذه الطبعة لضاع علينا شعر عمه حيدر ولكان ضياعه
 خسارة لا تعوّض للأدب العربي . وبرع صاحبنا في قرض الشعر
 على عهد عمه براءة تامة . ولا أدل على ذلك من أنه رثاه بثلاث
 قصائد بليغة . وكان يترفع عن التسكيب بالشعر ترفعاً تاماً ، لأنه
 كان يعتمد في كسب رزقه على الزراعة التي كانت تدرّ عليه في أول
 أمره أرباحاً طائلة ، فكان يتمتع بشيء غير قليل من الواجهة والثروة .
 ولكن أدركته حرفة الأدب ، ودارت عليه دائرة الزمن ، فأصبح
 ذات يوم وهو لا يملك شروى فقير . ولما كان يستأجر بعض أطيان

الحكومة في لواء الحلة ، وكان لهذه في ذمته مبالغ طائلة ، وضعت أملاكه
وفي جملتها داره في المزار العلي . وعزّ على أستاذنا العلامة المغفور
له السيد محمد القزويني أن يصبح عبدالمطلب - الذي طالما تغنى بماثر
بيته ومفاخره لا شيء سوى المودة والصداقة الخالصة ، وشاركهم
في أفراحهم وأحزانهم ، وابن أخي السيد حيدر الذي خلد ذكرهم
بمدائحهم ومراثيه - أقول : عزّ عليه أن يصبح عبدالمطلب هذا بين
عشية وضحاها على قارة الطريق فأوعز إلى ابن أخ له أن يشتري
داره على أن يتركها تحت تصرفه كما كانت من قبل ، وهكذا كان .
وعندئذ لم يجد المترجم بداً من التكسب بالشعر ، فلجأ إليه ،
وصار يمتدح كبار العلماء والزعماء ، وكان هؤلاء يجلون قدره
ويجزلون صلته . وحدث أن زار البصرة بعد إعلان الدستور
العماني ، وكان السيد طالب النقيب في أوج عزّه وفي إبان حركته
الانفصالية أو اللامركزية ، فالتصل به وعرفه هذا معرفة تامة .
فأكبر فضله وأدبه ، وعقد النية على استغلال مواهبه ، فاتخذة سفيراً
له لدى زعماء الفرات الأوسط ، وخاصة لدى الشيخ مبدّر القرعون
الذي كان أكبر زعماء أواسط الفرات في ذلك الحين . وبذلك أصبح
السيد عبدالمطلب من كبار دعاة اللامركزية الادارية في العراق
ولكنه استطاع أن يكتم ذلك كتماناً تاماً ، كما أنه استطاع أن

يحافظ على صلته الودية بأعداء الامر كزية الادارية من العلماء
 والزعماء ورجال الحكومة أيضاً محافظة تامة . وليس من شك في
 أن صلته بأنصار الامر كزية الادارية، وفي مقدمتهم السيد طالب،
 عادت عليه بالنفع الكثير من الناحية المادية . ولكنه نفى يده من
 خدمة هذه الحركة عندما أعلنت الحرب العامة الأولى، وخدم
 العثمانيين قلباً وقالباً، ودعا إلى مناصرتهم ومؤازرتهم بشعره ونثره
 وبأزجاله أيضاً . فقد أنسيت أن أقول لكم إنه زجال كبير يقول
 كل نوع من أنواع الزجل ويحيد فيه لإجادة تامة علاوة على أنه
 شاعر كبير من شعراء العربية الفصحى . . . وبلغ من حماسه للقضية
 العثمانية أنه زار جبهات القتال في العراق مراراً عديدة ، ودعا العشائر
 المجاورة لهذه الجبهات وغير المجاورة لنصرة الحكومة . ولقيت دعوته
 شيئاً غير قليل من النجاح . فلما دُحر الأتراك في العراق ودخل
 « مود » بغداد لجأ إلى الانزواء ولزم بيته في الحلة . ثم ترك هذه
 المدينة إلى قرية قريبة منها كانت فيها أملاكه ولا تزال فيها أملاك
 أسرته . فمكث هناك حتى توفي سنة ١٩٢٠ م . ومن الغريب أنه
 توفي ورجلان من أبناء عمه في ليلة واحدة ، فكان هذه الأسرة
 التي طالما عركت الحياة وطلبت المجد والجاه والغنى وأصاب من كل
 ذلك حظاً لا بأس به في فترات مختلفة من الزمن قد أرادت أن

تودع الحياة دفعة واحدة ، لأنه لم تقم لها بعد أولئك الثلاثة الذين
ماتوا في ليلة واحدة قائمة إلى الآن .

وتسألوني عن صفات المترجم وأخلاقه ، فأقول لكم : إنه كان
فصيح اللسان حسن الحديث غزير الحفظ سريع الخاطر كثير
الانصاف ، يجمع الفكاكة إلى الصرامة ، وشدة الوقعة إلى الدعابة .
يحدثك فيخيل لك أنه يقرأ في كتاب ، وتحاوره في الأدب فيدهشك
بكثرته حفظه وسعة اطلاعه ، ويسمعك الشعر المرتجل كأنما أعده
ونظر فيه ؛ وتسأله عن الناس فلا يبخس لأديب أدباً ولا ينكر
لفاضل فضلاً ، وتُنشده القصيدة فيها الغث والسمين ، فيقول لك
عن الغث إنه غث وعن السمين إنه سمين . إلا أنه سليط اللسان
مرء الهجاء ، إذا هجا أقذع فأوجع ، ولذلك كان الناس يتحاشون
جانبه ويخشون لسانه .

سيداتي وسادتي : تلك هي حياة السيد عبد المطلب ، وهذه هي
أخلاقه على الاجمال . أما شعره فأرجو أن أحدثكم عنه في
وقت قريب م



السيد عبد المطالب

— شعر ٨ —

سيداتي وسادتي :

تحدثت إليكم قبل أيام عن حياة الشاعر العراقي الكبير السيد عبد المطالب وأخلاقه حديثاً بجملاً ، وأود أن أحدثكم اليوم عن شعره حديثاً بجملاً كذلك .

ينقسم شعر صاحبنا - كما هو مألوف عند أضرابه القدماء - إلى غزل ومديح وفخر ورثاء وهجاء وغير ذلك من أبواب الشعر القديم . وتحدث أولاً عن غزله ، فنلاحظ أنه قليل إلى الغاية ، وأنه - إلى قلته - لا يعبر عن شيء يمكن أن يدعى غراماً ، إلا أنه حلو الجرس رقيق اللفظ نقي الديباجة ، تقرأه فتلك قراءته ، وتستمع إلى إنشاده فيهزك وبطربك ، وأنا أسمعكم شيئاً منه لتروا أنا مسرف في وصفه بما وصفته لكم به أم منصف ؟! قال المترجم :

بالودقِ راوحِ ياغيث أو باكر
ملاعب الظبي في لوا حاجز
واستنتب الروض في مسهلة
ينفح بالنذرملها العاطر

كأن حصباءها إذا مطرت مكنون درّ قد بثّه نائر
 كأن أغصانها إذا اعتنقت والصبح ساع ما بينها سافر
 غيد نشاوى والسكر من طرب مال بها أولاً على آخر
 تلك لعمري دار الهوى وبها أصبح باللهو مربعي عامر
 اختل سرب الظباء ملتمساً غرة ذاك الغزال النافر
 قمصته بالعيون ملتمساً منه على الورد لقمة الصادر
 بنظرة فجرت حشاي دماً فمن مجيري من لحظي (الفاجر)؟
 أما في مديح المترجم ، فليست الديباجة النقية الصافية هي التي
 تستهويننا وحدها ، بل إن هناك حقائق كثيرة بعضها سياسي وبعضها
 ديني تسترعي انتباهنا وتستدعي اهتمامنا . فبعد المطب شاعر ذكي
 القلب مرهف الحس ثاقب الفكر ، وهو يراقب مجرى الأحوال في
 تركيا وإيران مراقبة حسنة ويتتبع سير السياسة في هذين البلدين
 تتبعاً لا بأس به ، ويقف على ما تحدث من الانطباعات العميقة في
 محافل كبار العلماء والزعماء وما يترتب على هذه الانطباعات من
 أعمال مهمة ونتائج خطيرة ، ويصف كل ذلك في مدائحه من يمتدح
 من أولئك العلماء والزعماء وصفاً رائعاً دقيقاً . ها هو يمتدح
 الشريف محمداً القزويني المتوفى عام ١٣٣٥ هـ وكان من كبار أئمة
 الدين في العراق ، فيحدثنا أنه غضب أشد الغضب عندما ركن

السلطان عبد الحميد إلى الدس على الدستور ، وألف ما أسماه « الجمعية
المحمدية » لمناهضة الحكم الدستوري في البلاد . فأبرق إليه يهدده
بإعلان الثورة إذا هو لم يتنازل عن العرش حقناً لدماء رعاياه . وها هو
يمتدح طالباً نقيب البصرة ، فيصف نضاله في سبيل اللامركزية
الإدارية ويثني عليه ثناء عاطراً . وها هو يمتدح الفقيه الكبير الشيخ
كاظم الخراساني المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ فيصوّر لنا الدور الخطير الذي
لعبه في سبيل تحرير إيران من نير الاستبداد والظلم . ويصف لنا
الانقلاب الدستوري الإيراني وما سبقه من فساد في الحكم واستبداد
بشؤون الملك واضطهاد للأحرار وما تلاه من حوادث جسام ومعارك
طاحنة أثارها الشاه محمد علي المخلوع عملاً على استرداد ملكه بالقوة .
وتسألوني أن أروي لكم مثلاً من هذا المديح الحافل بوصف تلك
الحوادث التاريخية الخطيرة ، اسمعوا قول عبد المطلب في موقف
الشريف محمد القزويني من السلطان عبد الحميد :

ولكم قت مقاماً دونه	ناهض العزيمة عن عجز قعداً
مصلتا منك ولكن عزمة	لم تدع في حدّها للسيف حدّ
عزمة سدّت مسد الجيش قد	ضربت دون مسيل الجور سد
مذ بها أبرقت للجبار في	مرعد هذّ قواه فارتعد

مَنْزَلاً فِي قَصْرِهِ صَاعِقَةً أَصْبَحَتْ أَرْكَانُهُ مِنْهَا تُهْدَمُ
أَنْزَلَتْهُ صَاغِرًا عَنْ دَسْتِهِ بَعْدَ مَا حَكَّ السَّهْمُ مِنْهُ كَتَدَ
وَقَوْلُهُ فِي مَوْقِفِ الشَّيْخِ كَاطِمِ الْخُرَاسَانِيِّ مِنْ الْحُكْمِ فِي إِيرَانَ قَبْلَ

الدِّسْتُورِ وَبَعْدَهُ :

نَصَرْتُ وَدَاعِي الْجُورِ خُزْيَانَ وَاجِمُ
فَمَا ذُلُّ مَظْلُومٍ وَلَا عِزُّ ظَالِمٍ
غَدَاةُ غَشِيَتِ الْمُسْتَبِيدُ (١) بِلَطْمَةٍ عَلَى تَاجِهِ مِنْهَا غَدَا وَهُوَ لَا طِمَ
فَوَلِيَّ وَقَدْ أَعْطَاكَ لِلطَّعْنِ كَتْفَهُ فَمَا أَنْتَ إِلَّا الْعَدْلُ لِلْجُورِ هَازِمٍ
إِذَا مَا بَنَى لِلْجُورِ عَرْشًا هَدَمْتَهُ

وَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْنِي وَذُو الْعَرْشِ هَادِمٌ ؟
فَلَوْ كَانَ حَرًّا مَا اسْتَرَقَّ بِجُورِهِ رِقَابًا لَهَا الْإِسْلَامُ بِالْعَتَقِ حَاكِمٍ
وَلَا أَصْبَحَتْ فِي الْقَيْدِ تَرْسِفُ أَرْجُلُ
بَرْتَهَا فَأَدَمَتْهَا الْقِيُودُ الْأَدَامُ
وَلَا اخْتَارَ أَرْبَابَ السَّفَاهِ بَطَانَةً فَأَدْنِي ذُو جَهْلٍ وَأَقْصَى عَالَمٍ
وَقَوْلُهُ مِنْهَا وَاصْفَاءَ فَشَلِ الشَّاهِ الْمَخْلُوعِ فِي مُحَاوَلَاتِهِ اسْتِرْدَادِ
مَمْلُوكُهُ بِالْقُوَّةِ :

فَمَا ظَفَرَتْ لَابِنِ الْمَظْفَرِ رَايَةً وَلَمْ يَغْنِ عَنْهُ جَيْشُهُ الْمُتَرَاخِمُ

(١) الْمُرَادُ بِالْمُسْتَبِيدِ هُنَا هُوَ الشَّاهُ الْمَخْلُوعُ .

بلى ، نكصت راياته عن مجاهد
وسطوته تغنو الجيوش الخضارم
وذي قلم يقوى على الطعن معصماً

إذا ارتعشت بالسهمري المصم
يطاعن بالأقلام فهي أسنة
وكم قلم أضحى له الرمح تابماً
وقول له الماضي غدا وهو خادم!
وإذا اغترنا لرثاء صاحبنا اقتصاره على العاطفة الشخصية غالباً ،
فإننا نستطيع أن نقرر أنه من نفيس الشعر ، لفظ مختار وعبرة متينة
منسجمة وعاطفة صادقة في كثير من الأحيان . وماذا ينبغي أن
يكون في الرثاء البليغ أكثر من هذا ؟! على أنه - أعني رثاء المترجم -
لا يخلو من وثبات سياسية عنيفة ، أهمها في المراثي الثلاث التي ندب
بها صاحبنا الشيخ كاظماً الخراساني ، وقد مات هذا الامام فجأة وهو
يتيحاً للخروج من النجف إلى إيران حيث ينوي تحريض الشعب
على مناهضة روسيا القيصرية التي كانت جنودها تحتل شمالي هذه
البلاد ، فمن جيد رثائه له قوله من قصيدة :

قضى ليله شطرين ، شطراً محارباً
وشطراً به باتت تضيء المحارب
فما ابيض وجهه الصبح إلا وسودت

مآتم في فقه—دانه ومنادب
وأضحت ركاب السيروهي مناخة
وهل نأثر فيه تشار الركائب ؟!

وقوله من أخرى :

رأى الليث يضرى للوثوب ، فهـا له

فأَمسى الردى لَيْسَلاً يُسر اغتياله
يُماكرهُ المقدور في ساعة بهـا أمنتُ عليه مكرهُ واحتياله
يباغت منه بالحمَام موجَّهاً جديراً بأن تفدي الوجوه نعاله
وماذا يقال عن نخر عبد المطب ؟

الواقع أنه ينسج في أكثره على منوال الشريف الرضي ، فلا
ينفك يحدثك أنه مصمم تصميماً لا يتزعزع على إثارة حرب شعواء
تسفر عن استرداد العلويين حقوقهم في السيادة والحكم ، وأنه سيظل
بعيداً كل البعد عن متم الحياة ولذائد العيش حتى تتحقق تلك
الأمنية الغالية ، ألا وهي قيام دولة آل أبي طالب على يده . ولكن
الحروب التي شنت على الدولة العثمانية في الفترة الأخيرة من حياته ،
ولا سيما في شمال أفريقيا ، رسمت له منهجاً جديداً في الفخر ، إذ
صار يفخر بالعرب على أنهم أباب الضيم وحماة النفور وحفظة الحقوق
من كل معتد أثيم . اسمعوا قوله يخاطب الإيطاليين من قصيدة :

أجهلهم بأننا منذ خلقنا عرب ليس ينزل الضيم فينا ؟
لا ندي الوتر للعدا إن وترنا وعلى الوتر لا نغض الجفونا
قد قفونا آباءنا للعالي وإلهـا أبناؤنا تفتنينا

علمونا ضرب الرقاب دراكا
ولنا نعمة من العز ياأبي
نحن قوم إذا الوغى ضرستنا
كلما استصعب الملم ترانا
وإذا مارحى الحروب استدارت
وقوله منها:

سائلوهم بنا غداة التقينا
كيف رعنهم الغداة بضرب
ونقضنا صفوفهم بطعان
كلما صاحت المدافع ثبنا
نبحونا مهولين فلما
كم لنا بالوحدات عندهم ثا
أترى قتلهم بها كان يجدي
سيداتى وسادتي:

هذه إلمامة قصيرة جداً بشعر عبد المطلب ، وليكني أظن أنها
كفيلة باعطاء فكرة صحيحة عنه . فهل ترون أننا على حق في نسيانه
نسياناً كاملاً وإهماله إهمالاً تاماً؟

أبو المحاسن حياته وأخلاقه

سيداتي وسادتي :

يدور حديثنا الليلة ، حول شاعر عراقي منسي آخر ، كان في أيام حياته أنه ذكراً وأعلى قدراً وأبعد صيتاً من صديقه وزميله السيد عبد المطالب الذي سبق أن حدثكم عنه ، كما أنه أرق خيالاً وأرق شعوراً وأتق أسلوباً منه . هذا الشاعر الذي نسي في غير حق وأهمل من غير ذنب هو الشيخ محمد حسن المسكني بأبي المحاسن ابن الشيخ حمادي من آل محسن ، إحدى القبائل العراقية المعروفة .

ولد صاحبنا بكر بلاء سنة ١٢٩٣ للهجرة وبها نشأ ودرس علوم العربية والدين على جماعة من أساتذتها الفضلاء ، أبلغهم أثراً في نفسه وأشدهم سلطاناً على عقله الأستاذ الفاضل والشاعر الفحل المرحوم الشيخ كاظم الحائري نسبةً إلى « الحائر » وهو البقعة التي تحيط بضريح الحسين بن علي رضي الله عنهما .

وكان المترجم في أول أمره قديماً في تفكيره قديماً في أسلوبه .

إلا أنه تأثر بالانقلاب الدستوري العثماني ، فأخذ يقرأ الصحف
والجلات والكتب الحديثة ويتأثر بها رويداً رويداً ، حتى تغير تفكيره
وتغير أسلوبه ، إلا أنه احتفظ بطابعه العربي الخالص . وكان عظيم
الآيمان بالانقلاب المذكور ، يعلق عليه الآمال الطوال والأمانى
العراض ويتوقع على يد القائمين به إصلاحاً شاملاً كاملاً لكل ناحية
من نواحي الحياة في المجتمع العثماني .

قد صبح جسم الملك من سقامه واستيقظ الراقد من منامه
ولكن سرعان ما ظهر الانشقاق في صفوف الأحرار العثمانيين ،
وتعاقب الائتلافيون والاتحاديون على كرسي الحكم في جو يسوده
القلق والاضطراب ، وانتهزت إيطاليا هذه الفرصة فأعلنت الحرب
على الدولة سنة ١٩١٢ وانزعت منها طرابلس وليبيا ، واقتفت أثرها
دول البلقان فأعلنت الحرب على السلطنة سنة ١٩١٣ وانزعت منها
جميع أملاكها في شبه جزيرة البلقان . ووقفت جيوش البلغار على
مقربة من الأستانة ، تهددها بالبوار وتنذر لها بالاستيلاء . وعز ذلك
على شاعرنا العربي العثماني ، فبكي لما حل بالدولة من مصائب وويلات
بكاء مراً ، ورثى لها رثاءً كله صدق وإخلاص . وسنعرض لراثه
هذا عند الكلام عن شعره . ثم لم يطل الوقت حتى أعلنت الحرب
العامة الأولى ، ودخلتها حكومة تركيا الاتحادية ، فدخلها صاحبنا

بخياله القوي وشعوره الحاد وإحساسه المرهف وقلمه النفاذ وإيمانه
الصادق . ولكن ظروف اضطرابه للإقامة في قرية تقوم فيها أملاكه
اسمها (جَنَاجَه) حدثت من نشاطه وقللت من إنتاجه . وخسرت
تركيا وحلفاؤها الحرب فلجأ صاحبنا إلى السكوت والازواء .

وشاءت الظروف أن تكون كربلاء خلال سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠
مركز نشاط سياسي كبير بسبب إقامة الامام الشيخ محمد تقي
الشيرازي ، رجل الحركة العراقية الوطنية الأكبر ، فيها . فساهم المترجم
في هذا النشاط بانضمامه إلى حزب سياسي سري ألفه الشيخ محمد رضا
كبير أنجال الامام الشيرازي . وكان لهذا الحزب أثره الكبير في
حوادث سنة ١٩٢٠ . فلما خبت نار الثورة وأعيد احتلال كربلاء
في خريف سنة ١٩٢٠ أُلقي القبض على المترجم وأرسل إلى الحلة حيث
سجن بضعة أسابيع ، ثم أطلق سراحه وعاد إلى السكوت والازواء .
وفي تشرين الثاني من سنة ١٩٢٣ دعي المرحوم جعفر باشا العسكري
إلى تأليف الوزارة على أثر استقالة السعدون من الاضطلاع بتبعات
الحكم . فرشح أديب وطني ذو صلة ببعض المقامات السياسية العالية
صاحب الترجمة لمنصب وزارة المعارف في هذه الوزارة ، ولقي ترشيحه
أذنًا صاغية ، فعين وزيراً للمعارف . ولكي أقول لكم الحقيقة كلها
يجب أن أقول لكم إنه أخفق في حياته الوزارية إخفاقاً تاماً . وعلة

ذلك أنه كان يود أن يظهر بمظهر الاداري الحازم ، وكانت أمور المعارف مودعة إذ ذاك إلى مربٍّ معروف بالكفاءة هو الأستاذ ساطع بك الحصري ، فكان يصطدم به من حين لآخر ، ويختلف وإياه في شؤون التعليم. اختلافات حادة ، فأدى ذلك إلى فشله في مهمته. وفي أغسطس من سنة ١٩٢٤ انسحبت الوزارة العسكرية الأولى من منصة الحكم فانسحب المترجم من ميدان العمل نهائياً وقضى بقية أيامه متنقلاً بين كربلاء و « جناحه » التي تقدمت لها الإشارة .

وفي ١٣ من ذي الحجة من سنة ١٣٤٢ هـ لبي نداء ربه على أثر سكتة قلبية ، فلم يحدث خبر موته ضجة في الصحف ولم تنظم القصائد ولم تكتب المقالات في تأييده وبيان ماله من المنزلة الأدبية السامية وما لحق الأدب بموته من خسارة فادحة . وكان ذلك ناشئاً عن سببين : أحدهما انشغال الناس عن الأدب بالسياسة ، وثانيهما عزلة الفقيه وسكوته المطبق في الفترة التي سبقت انتقاله إلى جوار الله . وثلاثة خصال في المترجم لا بد من معرفتها لمن أراد أن يكون فكرة صحيحة أو شبه صحيحة عن أخلاقه ، هذه الخصال هي : الثبات في المبدأ ، والوفاء للاخوان ، وشدة الاعتداد بالنفس . فقد كان رحمه الله يرى أن الشرق الاسلامي لا يمكنه أن ينهض إلا على أيدي

أبنائه ، وأن الدولة العثمانية هي زعيمة هذه النهضة الطبيعية وحاملة
لوائها في كل فرع من فروع الإصلاح ، وأن من واجب كل مسلم
بل كل شرقي يمطف على الشرق ويريد له الخير أن يعمل على إعزاز
كلماتها وإعلاء شأنها وتوطيد نفوذها . وقد نفذ رأيه هذا تنفيذاً
كاملاً دقيقاً ، فخبس لسانه وقلمه على خدمة الدولة منذ إعلان الدستور
في سنة ١٩٠٨ إلى جلاء آخر جندي عثماني عن العراق سنة ١٩١٨ .
ولو اتسع له المجال لاستمر في هذا الجهاد إلى ما شاء الله . وهذا مع
العلم بأن الحكومة العثمانية لم تفكر في يوم من الأيام بتقدير إخلاصه
ومكافأته على جهاده بمنحه مقعداً نيابياً أو منصباً حكومياً أو هبة
مالية ، كما كافأت الزهاوي والوصافي على خدمتهما لها بمنحهما عضوية
مجلس النواب ، وكما كافأت كثيراً من دعاة الآخرين مرة بالمنصب
وتارة بالهبات . على أن هذا لم يلفت نظر أبي المحاسن ولم يخطر له
على بال ، لأنه لم يكن يجاهد في سبيل مصلحته الخاصة ، وإنما كان
يجاهد جهاد الأبطال في سبيل الصالح العام . ولذلك فانه من
الانصاف أن نوفيه حقه من التقدير والاعجاب ، لأنه من الأدباء
الأفذاذ الذين لم يتجروا بأدبهم ، ولم يتطلعوا إلى المنافع الخاصة من
وراء جهادهم ، ولم يعملوا إلا براءة لضمهم وإراحة لضمائرهم .

وأما وفاؤه لآخوانه فحسبنا دليلاً عليه موقفه النبيل من صديقه
السري السيد قاسم الرشتي . فقد كان هذا كبير وجهاء كربلاء
والمقدم بين سراتها ، وكان يخلص للعثمانيين كما يخلص لهم صديقه
أبو المحاسن . فلما شبت نار الثورة في كربلاء سنة ١٩١٥ وانسحب
منها ممثل الحكومة ، قبض على زمام الأمور في المدينة النائرة أناس
يعادون الرشتي عداً شديداً ، فهدموا داره وصادروا كل ما وصلت
إليه أيديهم من أمواله ، ونجا هو بنفسه وبأفراد أسرته إلى مزرعة
له بقرب (المسيب) - مدينة على الفرات - فأقام بها سنة وبعض سنة ،
ثم انسحب مع العثمانيين إلى شمال العراق فإلى داخل الأناضول .

وفي هذه الفترة العصبية من الزمن وقف صاحبنا منه موقفاً كله
كرم ونبيل . فكانت رسائله التي يكتب بها إليه من حين لآخر
تفيض حناناً وعطفاً وتتدفق وفاءً وإخلاصاً . ومما هو جدير
 بالذكر في هذا المقام أنه لما سمع بهدم داره بكأها بقصيدة مؤثرة جداً
قد لا تكون موجودة في ديوانه لأنه قالها ارتجالاً ، أروي لكم
منها هذين البيتين :

سلمت على الدار وقف باكياً فلما أخت عليها الصروف
كانها لم تك ربع الندى وملجأ العاني ومأوى الضيوف

بقي أن أقول لكم إنه - رحمه الله - كان يثق بنفسه إلى درجة
تستحيل معها هذه الثقة إعجاباً شديداً بما له من محاسن وفضائل
ومزايا ومواهب، وقد عبر عن هذا الإعجاب بشعره مراراً عديدة :
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعد معاياه
على أنه إذا كان في صلابة الرأي وتراهة الخلق وسعة الخيال
ورقة الشعور وروعة البيان ما يبرر إعجاباً كهذا فإن المترجم يملك
ما يبرره



أبو المحاسن

- شعر ٨ -

أما شعر أبي المحاسن - سيداتي وسادتي - فانه يملأ مجلداً ضخماً ، وقد جمعه ، أو قل جمع المختار منه ، وأثبتته على ورق صقيل وصدر بعض قصائده بمقدمات طريفة تنطوي على فوائد تاريخية حسنة . وأقول جمع المختار منه ، لأنه طالما قل الشعر ارتجالاً ، ثم أهمله ولم يدونه ، وأنا أروي مثلاً عديدة من شعره الفكاهة الذي لا وجود له في ديوانه . وهناك شعر جدي غير قليل قيل في مناسبات مختلفة ، ثم لم يدون ولم يحفظ . وديوان أبي المحاسن الآن في حوزة تلميذه الشيخ محمد علي اليعقوبي ، فعسى أن يوفق هذا التلميذ البار لطبع ديوان أستاذه في وقت قريب .

يحتوي هذا الديوان على فنون مختلفة من الشعر ، منها القديم ومنها الحديث ، منها الشخصي ومنها الاجتماعي ، ومنها السياسي . وما أعدم أن أتحدث إليكم عن كل فن من فنونه وعن كل باب من أبوابه ، فذلك ما لا يتسع له هذان الحديثان اللذان أكرسهما له .

ولكني أحدثكم عن ثلاثة أبواب من أبوابه هي الوصف والثناء
والشعر السياسي الخالص ؛ وأقول الشعر السياسي الخالص ، لأن رثاء
الرجل لا يخلو من صبغة سياسية قوية . على أني قد لا أخطئ ، إذا
قلت لكم : إن شعر أبي المحاسن في هذه الأبواب الثلاثة هو أباب
شعره وصفوة لانتاجه . فأما وصفه فإنه قليل نسبة ، ولكنه طريف
حقاً ولا سيما وصفه العقل فإنه على جانب كبير من النفاسة والروعة .
معلوم أن الوصف من أكبر أبواب القريض العربي وأحفلها
بروائع الشعر وبدائعها ، ومعلوم كذلك أنه يكاد يكون مقصوراً عندنا
على المحسوس والملموس من الأشياء . فأبو تمام والبحري وابن
الرومي وابن المعتز وابن خفاجة الأندلسي كلهم وصافون مبدعون ،
ولكنهم جميعاً لم يتجاوزوا في وصفهم المحسوس إلى غيره والمرثي إلى
سواه . وقل مثل ذلك عن سائر شعراء الوصف عندنا ، وقليل جداً هم
الشعراء الذين تجاوزوا عالم الحس إلى عالم النفس ، فوصفوا ما فيه من
قوى وعناصر لا يدركها بصر ولا تمسها يد . ومن هؤلاء أبو المحاسن
الذي وصف لنا العقل وصفاً صادقاً أصيلاً ، تطرق فيه إلى المركز
الذي يحتله من هذه الحياة والدور الذي يلعبه فيها وإلى صلته بالعلم
وعلاقته بالنفس ، فشرح كل ذلك شرحاً رائعاً مستفيضاً ، استمعوا
إليه يقول :

لك خلّ على الوداد أمين
 هذبت طبعه صروف الليالي
 قد تجلت آثاره ببيان
 هو ضد الهوى يصد وينهى
 أرخص الجهل قدره وهو علق
 هو للنظم في المعاش كفيل
 هادياً للسعادين جميعاً
 وإذا ما صجبتة كان زيناً
 هو والعلم فرق دان، وكل
 ما يبالي الذي تحصن فيه
 وبمرآته الصقيلة تبدو
 إن دجا الليل وهو شك جلاه
 من قديم له حديث مع النف
 جاريته وجندها شهوات
 ثم ما أجمأت الكريمة إلا
 ما نبا حده لدى الضرب لكن
 لأعضد السيف بالشجاعة وانظر
 وفي القصيدة وصف لآثار العقل المحسوسة المموسة كالأكبرباء
 صادق العهد بالوفاء قمين
 مثلما هذب السيوف القيون
 وتواری فما تراه العيوت
 عنه والقلب بالهوى مفتون
 عند أهل الحجي نفيس ثمين
 وهو للفوز في المعاد ضمين
 فيه دنيا الفتى وفيه الدين
 لك، والصحب خيرهم من زين
 من سنا لائقه له تزيين
 إن عدته معاقل وحصون
 صور الغيب تجتليها الظنون
 لمعان الصباح وهو يقين
 س ولكن ذاك الحديث شجون
 وأمان حلا لمن المنون
 وهو للنفس في وثاق رهين
 أسلمت قائم اليان المين
 ضربات الحسام كيف تكون
 ضربات الحسام كيف تكون

والبخار وما إلى ذلك ، أتركه مع أسنى الشديد لضيق المقام . وأما
رثاؤه فانه على جانب كبير من الأصالة والنفاسة لأنه فياض بالعواطف
حافل بصور صادقة لأخلاق طائفة حسنة من رجال الدين والسياسة ؛
هذا إلى متانة في اللغة ورصانة في الأسلوب وصفاء في الديباجة . وكم
كان بودي أن أنشدكم داليته التي يرثي بها الفقيه الجليل الشيخ كاظم
الذي ورد ذكره غير مرة في الكلام عن شعر السيد عبد المطلب
والتي يقول في مطلعها :

كان الهدى بأبي المهدي يعتضد فأين ساعد دين الله والعضد ؟
ونوניתه التي يرثي بها - أستاذة الشيخ كاظم الحائري والتي
يسهلها بقوله :

لم يبق لي صبر ولا سلوان غاض السلو وفاضت الأجفان
ويائته التي يرثي بها أحد أصدقائه من وجهاء كربلاء والتي مطلعها :
أأبكيك أم أبكي الندي والمعاليا ؟ وأرثيك أم أرثي جمين اصطباريا ؟
ولكن أنى لكم ولي ذلك !

بيد أنه مهما يكن من شيء ، فاني منشدكم طرفاً صالحاً من ميميته
التي يرثي بها البطل البغدادي الكبير محمود شوكة باشا المعروف
بالفاروق . وليس من شك في أنكم تعلمون أن محمود شوكة باشا هذا
هو الذي أعلن الدستور بقوة السلاح سنة ١٩٠٨ وأرغم السلطان

عبد الحميد على التخلي عن عرشه سنة ١٩٠٩ وأنه رأس الوزارة
 العثمانية سنة ١٩١٣ وأنه قتل غيلة وهو في دست الحكم في نفس السنة،
 فاعلموا الآن أن المترجم كان من المؤمنين بوطنيته والمغرمين بعقريته
 والمعجبين بمواهبه وقد حزن لمصرعه حزناً شديداً وزاد في حزنه
 أن شاعراً معادياً رثاه رثاء قرعه فيه على إقحامه الجيش في السياسة،
 فعبّر عن حزنه على القائد الكبير وعن رأيه في سياسته في القصيدة
 البليغة التي أقتطف لكم منها الأبيات التالية:

بكي الشرق يا خير الصدور الأعظم عليك بمنهل الدموع السواجم
 نغيت إليه فاستجالات ربوعه مصاباً ومادت أرضه بالأمّاتم
 ألا إن سيف الأمة اليوم غاله حمام فلا ابتلت يمين بقائم
 وقد غاب ذاك الليث عن غاب عزه

على حين أردى كل ليث ضبارم
 لأن أوحشت منه عرينة مجده
 لقد رزئت منه بمردي الضراغم
 أصابوه في سلم، وأعظم آفة
 على البطل المغوار غدر المسالم
 يعدون قتل المصلحين غنيمة
 وما هو إلا من أجلّ المقارم
 فإن يك قد أودى فقد عاد فائزاً
 بحسن مبادئه وحسن الخواتم
 تحمل أعباء الوزارة ناصحاً
 يدبر أمر الملك تدبير حازم
 فنعم وزير السيف يعطيه حقه
 إذا ارتعشت كف الجبان بصارم

ونعم وزير السيف والقلم الذي
مضى اليوم من كانت تشير بنانهم
تمج ثناياه سمام الأرقام
فيا أيها الناعي المعاتب من مضى
ولان مقاما قد تزوت لنيله
نعت ولكن بالقوافي الأثام
عُتبت على محمود شوكة ناقما
منيع الذرى لا يرتقى بالسلام
تناسيت آثاراً له ومساعياً
وما ضر محموداً مذمة ناظم؟
تضيء كأمثال النجوم العوام
ألم يكشف السكرب الذي ضيق الفضا

على أمة باتت بقبضة ظالم؟
فشيء صرح العدل مذهد سيفه
سيداتى وسادتي :

هذا ما رأيت أن أحدثكم به عن وصف أبي الحسن وراثته . أما
شعره السياسي البحت فأرجو أن أحدثكم عنه في حديث قادم

— (☆) —

أبو الحواس - شعرة أيضاً -

سيداتي وسادتي :

قلت لكم في أثناء الكلام عن أخلاق أبي الحسن (لأنه كان يرى أن الشرق لا يمكنه أن ينهض إلا على أيدي أبنائه ، وأن الدولة العثمانية هي زعيمة تلك النهضة الطبيعية وحاملة لوائها في كل فرع من فروع الإصلاح ، وأن من واجب كل مسلم ، بل من واجب كل شرقي يعطف على الشرق ويريد له الخير ، أن يعمل على إعزاز كلمتها وإعلاء شأنها وتوطيد نفوذها ، وأنه نفذ هذا الرأي تنفيذاً كاملاً دقيقاً ، فخبس لسانه وقلمه على خدمة الدولة منذ إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ إلى جلاء آخر جندي عثماني عن العراق سنة ١٩١٨) .

وأقول لكم الآن : إن قصائد أبي الحسن في هذا الباب تؤلف ملحمة خطيرة الشأن عظيمة القيمة من الناحيتين الأدبية والتاريخية . فهذه قصيدة تذكر لنا خلع السلطان عبد الحميد والمناداة بالسلطان رشاد خلفاً له ، وهذه أخرى تصور لنا حماسة الشعوب العثمانية

للدستور وتأييدها للحكم النيابي وتطلعها لمستقبل زاهر باهر . وهذه
 ثلاثة تروي لنا نبأ إعلان إيطاليا الحرب على الدولة، واحتلالها طرابلس
 وبرقة ومقاومة العرب إياها مقاومة يكتبها التاريخ بمداد الفخر .
 وهذه رابعة تؤرخ لنا إعلان دول البلقان الحرب على السلطنة
 واستيلاءها على جميع أملاكها في شبه جزيرة البلقان، وسقوط وزارة
 كامل باشا الائتلافية وقيام وزارة محمود شوكة باشا الاتحادية على
 أنقاضها، ومؤتمر لندن والدور الذي لعبه في قضية البلقان وهكذا .
 وغني عن البيان أن المترجم يبسط هذه الحوادث بشكل يلائم وجهة
 نظره ويتفق وميوله وعواطفه السياسية . فتركيا وإن كانت قد
 خسرت الحرب دولياً في طرابلس وبرقة - رغم مقاومة العرب التي
 لا تنهي - وفقدت جميع أملاكها في شبه جزيرة البلقان، فإنها موشكة
 أن تستعيد ما خسرت وتسترد ما فقدت، لأن لها من صدق عزائم
 أبنائها البررة ونفاذ بصائرهم النيرة وقوة قلوبهم وسواعدهم ما يكفل
 لها الفوز أبداً، ويفرض الخسائر والهزيمة على خصومها دائماً .
 اسمعوا قوله من خمس طويل يعقب به على سقوط « أدنة » في
 أيدي البلغاريين ودنو خطر البلقان من القسطنطينية :
 أدنة القيحاء درة التاج أنت سراج الرومي الوهاج

سينجلي عن أفقك الليل الداج ويطلع السعد بتلك الأبراج
ثم يعود المجد مثل ما كان

وأنت يا عاصمة الميامين منيعة بالحمس المطاعين
فيك الأسود الغلب والسراحين ثقي ثقي بالنصر يا قسطنطين
أنت الحمى، بل أنت روح الأوطان

سيمعرف البلغار بأس الأحرار غمداً إذا جاش عباب التيارات
وانفجرت فيهم براكين النار فصوفيا ميعاد طالب النار
من كل حرّان إليها لهفان

فواضح أن أبا المحاسن لا يقنع بانقاذ القسطنطينية من خطر
الاحتلال واستعادة أدرنة التي تم الاستيلاء عليها عنوة ، وإنما يريد
أن يقتحم حدود بلغاريا ويحترق حصونها المنيعة وخطوطها القوية
وأن يمضي في حملته هذه قدماً حتى يدخل صوفيا ، وأعلام الظفر
ترفرف على رأسه . وليس من شك في أن كلامه يبدو لأول وهلة
جم السذاجة ، ولكني أظن أنه لا يخلو من حكمة . فقد كان الموقف
يقتضي بعث روح الأمل في الأمة وإشعال نار الحماسة في صدور

أبنائها، وإفهامهم أنهم لا يزالون أقوياء أشداء، يمكنهم أن يناضلوا
وأن يقاتلوا وأن ينتصروا. على أن المترجم يذعن أحياناً للأمر
الواقع، فيسجل الحوادث كما هي، ويصفها بصدق وصراحة غير
محاول أن يقلل من شأنها أو يهون من أمرها. وهذا مع العلم بأنه
يسبغ عليها ألواناً قائمة من عواطفه وانفعالاته. ولعل أحسن قصيدة له
من هذا القبيل داليتها التي حي بها شكري باشا قائد أدرنة الذي صمد
لجيوش البلغار والصرب الجسارة في معاقل أدرنة ستة أشهر مع أنه لم
يكن لديه سوى عشرين ألف جندي. وقد قدر له المترجم بسالته
الخارقة هذه ووفى موقفه المجيد حقته من التجلة والاكبار في قصيدة
عصماء أقتطف لكم منها الآيات التالية :

أقائد جيش المجد حييت بالمجد	أسرت ولكن بعدما فزت بالحمد
لبست على الأهل ستة أشهر	من الصبر سر بالاً مضاعفة السرد
والصرب والبلغار حول أدرنة	فيالق لا تحصى يحصر ولا عد
أخذت على السيل الآتي طريقه	على حين مد السيل يتبع بالمد
فما هجم التيار إلا وراعه	وقوفك مثل السدنا هيك من سد
تدافع في عشرين ألف محارب	دفاعاً به حارت عقول أولي الرشد
فيا حبذا جيش أقامت سيوفه	لنا شرفاً مالت مبانيه للهد
قليل عديد لا يرى مدداً له	على كثرة الأعداء غير ظبا الهند

ولو لا قضاء الله فاز بنصره ولكن قضاء الله ليس بذي رد
على أنه قد حاز نفراً مؤرخاً على وجنة الأيام بالسك والند
أشكري قد أضحي لك السيف شاكراً

ضرائب قد جأت عن الوصف والحد
لألبستنا من صنع عزمك حلة من الفخر لا تبلى على قدم العهد
فيها لطف نفسي لهفة بعد لهفة

وشجواً على شجو ووجداً على وجد
ليوم به ساروا بحامي أدربة عميداً بلا جيش أميراً بلا جند
وتسألوني عن موقف أبي المحاسن من الحركة العربية التي كانت
قد ظهرت مع الدستور العثماني وتطورت ونمت حتى كانت في سنتي
١٩١٣ و ١٩١٤ على جانب كبير من الاتساع والقوة ، فأقول لهم :
إن موقفه منها لم يكن إيجابياً . فقد كان يرى فيها خطراً أيّ خطر
على الدولة العثمانية ، ويصف رجالها بأنهم سذج أغرار ، يعرضون
وطنهم لخطر الاحتلال ويجرون السلاسل والأغلال إلى
أعناقهم وأيديهم :

أنستقل سوريا ، وباريس تحاول اختلاسها بتدليس ؟
قدست يا أرض الرقي تقدس من أن تعود طعمة الفرنسيين

راضخة لذلة وإذعان

وقد يخيل ليكم - نظراً إلى ما تقدم - أن المترجم يسبح بحمد
 سياسة الاتحاد والترقي ويهمل ويكبر لهم كائنة أعمالهم ما كانت . ولكن
 هذا غير صحيح ، فالواقع أنه كان ينفذ سياستهم أحياناً نقداً شديداً
 وينكر بعض أعمالهم إنكاراً غير قليل ، وإن كان يفرغ نقده لهم
 ومحاسبته لإياهم في شكل غزل رقيق . اسمعوا قوله مشيراً إلى جمال باشا
 السفاح في أيام ولايته بغداد وإلى زملائه في الأستانة :

جمالك ليس يسمح بالجميل	وقلي ليس يرضى بالبديل
بقانون المحبة قد قبلنا	وهل يسمع المحب سوى القبول؟
ملكتم بحسنك الأحرار لكن	جهلت إدارة الملك الجليل
بطلعتك استضاء الشرق نوراً	فصن هذا الطلوع من الأفول
نجاهد في هواك وأنت تحمي	على أهل الهوى نهج السبيل
أقام ذووك في جدل ، ورحنا	ضحايا من صريع أو جدل
ونحن أصول مفخرك الزواكي	فكيف الفرع يهزأ بالأصول؟!

فواضح أنه يحكم على جمال ورفقائه بسقم الإدارة وعقم السياسة
 والانحراف عن جادة الصواب ولا سيما في ازدرائهم العرب الذين
 كانوا يريقون دماءهم ويزهقون أنفسهم وينفقون أموالهم في سبيل
 سلامة الدولة ، بينما يعنى سياسة الأستانة في خصومات داخلية

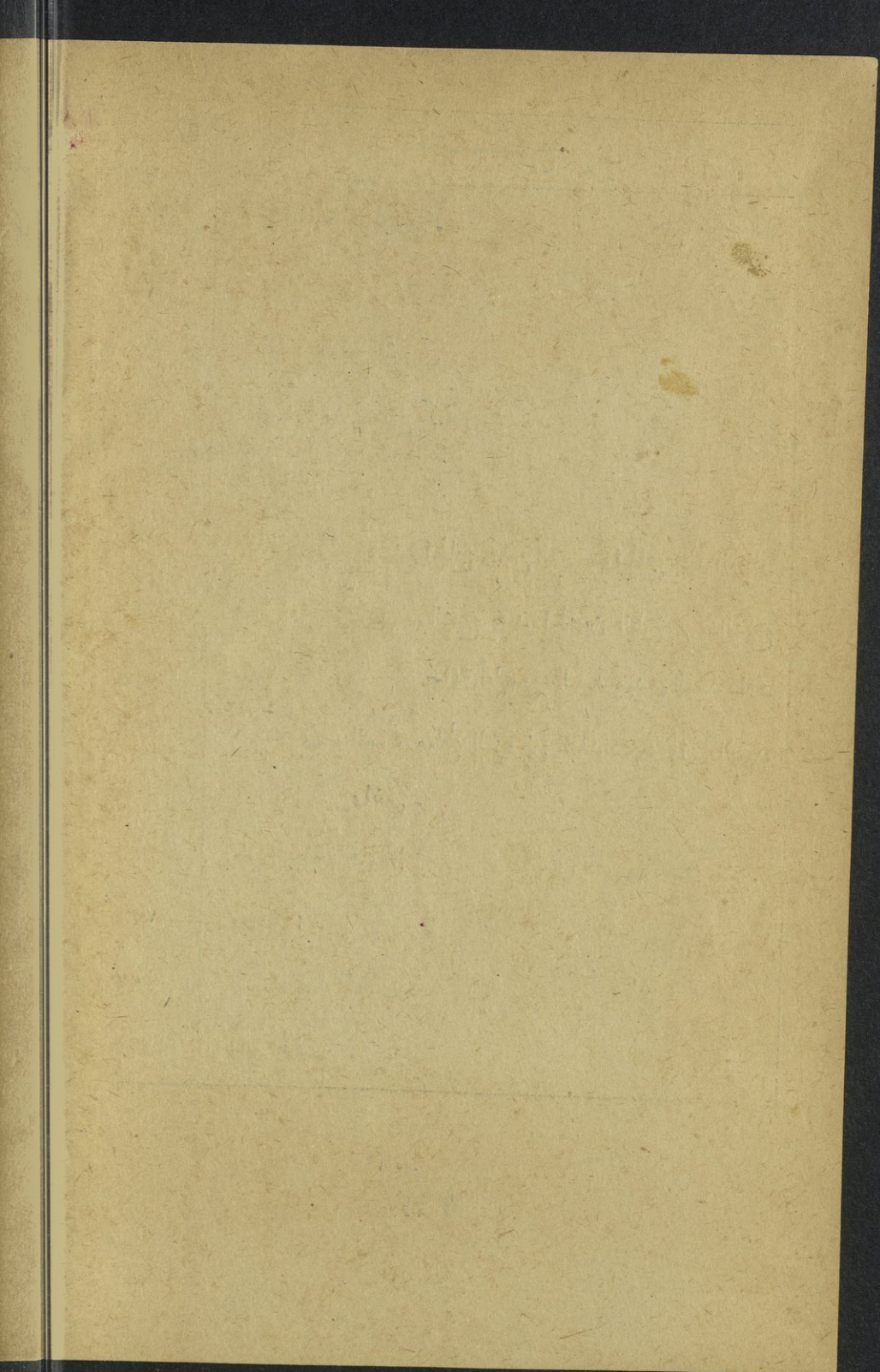
لا تقف عند حد ولا تعود على الدولة بشيء سوى البوار والدمار .
ولكنه يسجل أنه مضطر لاصطناع محبتهم وإخلاص الولاء
لهم لأنهم قادة الشرق الاسلامي وأحراره وحرّاسه من
المطامع والأخطار

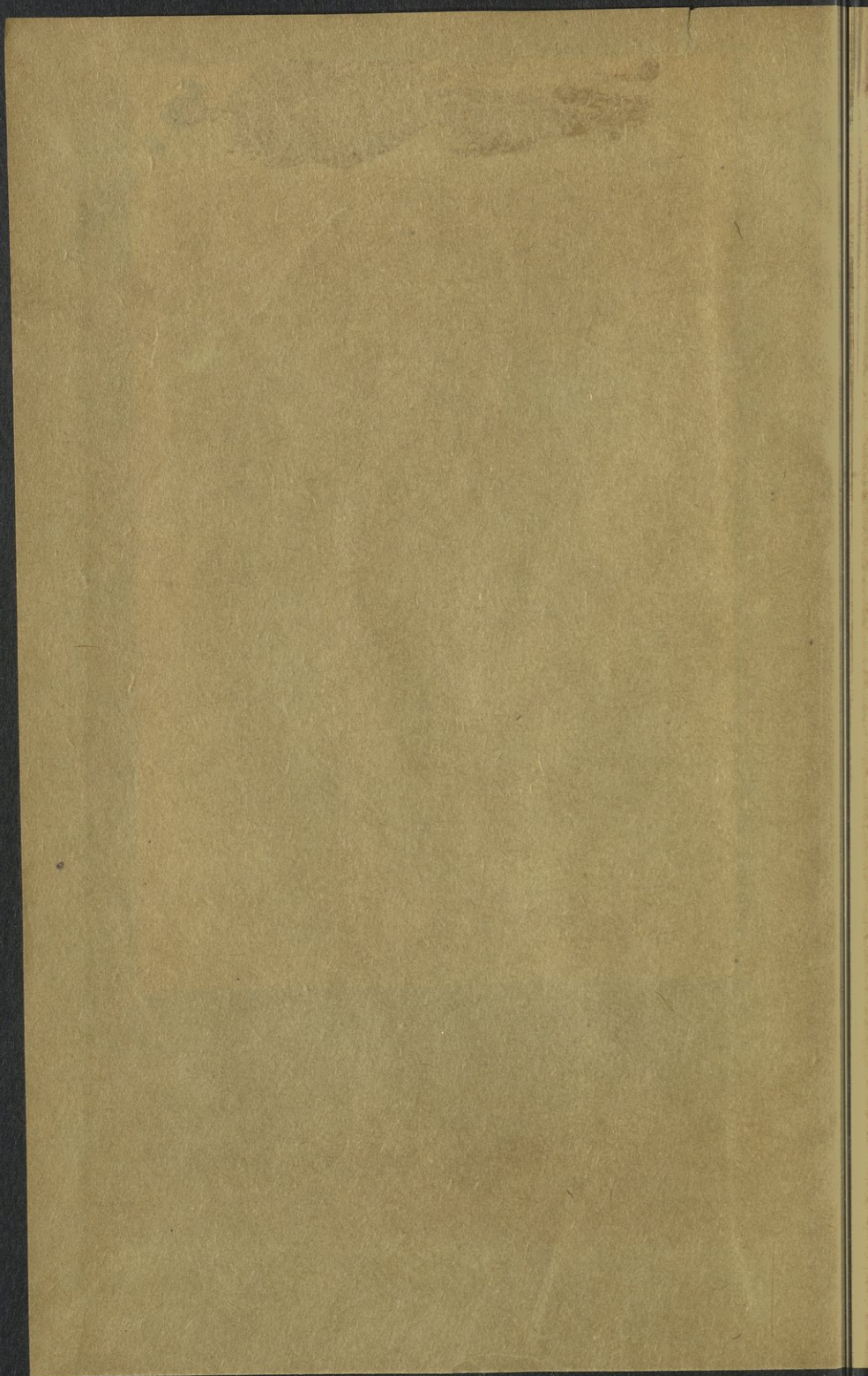


الفهرست

الموضوع	الصحيفة
مقدمة الكتاب .	٣
تمهيد : في نشأة نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر ومن آزرها من العظماء .	٨
السيد محمد سعيد الجبوبي .	١٤
السيد حميد الحلبي .	٤٠
الشيخ صالح الأيبي .	٧٢
عبد الباقي أفندي العمري .	٨٩
عبد الفقار الأخرس .	١١٤
الشيخ محمد أو الشيخ حمادي نوح .	١٣٠
السيد إبراهيم الطباطبائي .	١٣٨
السيد جعفر الحلبي .	١٦٢
الشيخ محسن الخصري .	١٨٤
الشيخ عباس النجفي .	٢٠٢

الموضوع	الصحيفة
أبو الثناء الألو سي .	٢١٩
آل قزوين .	٢٥٢
الشيخ جعفر الشرقي .	٢٧٦
الشيخ محمد حسن كبة .	٢٨٤
الكو أزان .	٢٩٢
شاعران شعبيان - الحاج حسن القيم ، والحاج مجيد العطار	٣٠٢
شعراء متفرقون - الشيخ عبد الحسين الطريحي ، الشيخ صادق أطيّمش ، السيد مهدي السيد داود	٣١١
أب وابن - السيد صالح القزويني البغدادي ، وابنه السيد راضي .	٣١٩
خاتمة - أو - قيمة الأدب العراقي في القرن التاسع عشر .	٣٢٦
ملحق :	٣٣٢
السيد عبد المطلب .	٣٣٣
أبو المحاسن .	٣٤٦





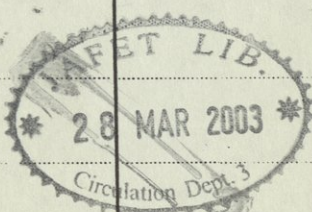
DATE DUE

JAFET LIB.

12 NOV 1988

JAFET LIB.

21 NOV 1988



LIBRARY

A.U.B. LIBRARY

892.709:B31nA:c.1

البصير، محمد مهدي

نهضة العراق الادبية في القرن التاسع

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01032896

892.709

B31nA

c.1

